جـامـعـة الـجـزائـر

مـعـهـد الـلـغـة و الأدب الـعـربـي

الـمدينـة في الـروايـة الـجـزائـريـة الـعـربيـة

بحث لنيل شهادة الـمـاجـيـسـتـيـر

إعداد
الطالب :قرطي خليفة

تحت إشراف :
الدكتور: عبد القادر هني

مـوسـم 95/94

المدينة في الرواية الجزائرية العربية

من (1973 الى 1992)

بحث لنيل شهادة الماجيستير

تحت إشراف :
الدكتور: عبد القادر هني

إعداد
الطالب :قرطي خليفة

موسم 95/94

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لقد شغلت، منذ مدة ليست بالقصيرة، بالرواية جنسا أدبيا أقدر على تصوير الحياة و التعبير عن مشكلات الإنسان النفسية والإجتماعية والحضارية . و قد أتاحت لي صلتي المتواضعة بها الوقوف على عوالم كثيرة و متنوعة فيها، و كان يعن لي في بعض الأحيان أن كل نص روائي يتجسد عالما قائما بذاته متفردا عما سواه، وكان أول عهد لي بالنصوص الروائية قراءة ما وقع بين يدي من الروايات العربية المصرية والسورية والفلسطينية والسودانية والعراقية ثم تلك الروايات العالمية من مختلف الجهات والأمصار ورأيت، بعد ذلك، أنه كان لزاما علي أن ألتفت إلى روايات بلدي وأخصها دون غيرها بالدراسة إسهاما مني في الكشف عن بعض خصوصياتها و التعريف بها، سيما وأن الدراسات التي تناولتها قليلة، فكان هذا أحد الدوافع التي وقعت وراء إختياري موضوع " المدينة في الرواية العربية الجزائرية ".

و قد إهتديت إلى هذا الجانب من موضوع الرواية العربية الجزائرية بالتحديد بعدما جالت في ذهني مشاريع دراسات أخرى في الموضوع ذاته..

و أنا لا أزعم أن هذا الموضوع جديد كل الجدة، ذلك أني قدعثرت، بعد ما تقدمت في بحثي خطوات لا بأس بها، على مخطوطة لرسالة ماجيستير أعدها الطالب الأخضر الزاوي في جامعة القاهرة سنة 1988 عنوانها << صورة المدينة الجزائرية في الرواية العربية الجزائرية بعد الإستقلال وعند ألبير كامو >>.

و واضح من عنوان هذه الرسالة أن صاحبها قام بدراسة مقارنة بين نصوص روائية جزائرية عربية و نصوص الكاتب الفرنسي ألبير كامو، قارن فيها بين صورة المدينة الجزائرية كما يراها الكتاب الجزائريون الذين كتبوا باللغة العربية بعد الإستقلال و بين صورتها كما كان يراها ألبير كامو، و في ذلك يقول صاحب الرسالة: <<لعل ما شجعني على إختيار هذا الموضوع و القيام بدراسته، هو خلو المجال تقريبا من الدراسات التي تقارن بين أدب الجزائريين العربي وأدب المعمرين الفرنسي الذين عاشوا في الجزائر>>(1).

و لعل الذي أباح لي المضي في بحثي الذي كنت قد حددت عنوانه وزمانه قبل أن تقع بين يدي هذه الرسالة بأكثر من عام ما يلي:

1- إن الدراسة التي قدمها الأستاذ الأخضر الزاوي دراسة مقارنة بينما لم أنح أنا في دراستي هذه نحوا مقارنا و إنما قصرتها على الرواية الجزائرية العربية.

2- لا تحدد رسالة الأخضر الزاوي فترة النصوص الروائية العربية الجزائرية تحديدا دقيقا، وإنما يحصر ذلك في عبارة: ما بعد الإستقلال، ومن خلال رجوعنا إلى النصوص الروائية التي إعتمدها عينة في بحثه نجده يقف عند حوالي سنة 1985، تاريخ صدور رواية << الخنازير>>

3- تمتد الروايات التي إعتمدتها في بحثي هذا إلى فترة قريبة جدا إذ تشمل آخر رواية عربية جزائرية صدرت عام 1992 وهي رواية <<غدا يوم جديد>> للكاتب عبد الحميد بن هدوقة.

4- تشمل دراستي هذه روائيين جزائريين أثبتوا حضورهم منذ

---

(1) صورة المدينة الجزائرية في الرواية العربية الجزائرية بعد الإستقلالو عند ألبير كامو -<<دراسة فنية مقارنة>> - الأخضر الزاوي بلقاسم- رسالة ماجستير -مخطوطة- جامعة القاهرة سنة 1988 -المقدمة -ب-.

الثمانينيات مثل: الأعرج واسيني وجيلالي خلاص وهو أمر لم أقف عليه في دراسة الأستاذ الأخضر الزاوي.

ويمكن أن أضيف إلى ذلك كله الإختلاف البين في خطتي البحثين ومنهجيتيهما و المراجع المعتمدة في كل منهما.

و تتناول هذه الدراسة بالبحث ظاهرة المدينة في الرواية الجزائرية العربية، وذلك لمحاولة الوصول إلى تفسير طبيعة العلاقة التي تربط بعض الكتاب الجزائريين بموضوع مثل " المدينة " الذي يعكس موقفا حضريا بالدرجة الأولى حين نحاول اليوم تجريده من بعده المادي الفيزيائي ونحله المحل الذي تفسر به ظاهرة << المدنية >> الحديثة. ولا شك أن ثمة علاقات مختلفة تنشأ بين النفس البشرية وبين الأماكن التي ترتادها، تتحدد من خلالها مواقف النفس من هذا المكان أو ذاك، ولذلك يمكن إعتبار << المدينة >> ظاهرة نفسية أيضا تكون من محفزات العمل الإبداعي، و هي لذلك تشكل فيه موضوعا لا يمكن أن يغفله.

وفي الرواية يتحول هذا الموضوع إلى وسيلة فنية لا غنى للكاتب عنها، إذ هي الإطار الذي تتحرك فيه أحداث روايته وترصد فيها سلوكات شخصيتها.

ولذلك فإن دراسة << ظاهرة المدينة >> في الرواية مشروعة بوصفها عنصرا فنيا من عناصر البناء الروائي تجسد عنصر " المكان " كما درست من قبل عناصر أخرى كالشخصية الروائية والزمان والسرد والبناء في الرواية.

و البحث يقتصر على الرواية المكتوبة بالعربية في الجزائر دون سواها وذلك سعيا لتعميق الدراسة و تخصيصها في هذا الجنس، ولعل من بين الدوافع الأخرى التي جعلتني أتناول هذا الموضوع العلاقة الخاصة التي ربطتني بعالم المدينة و ولدت في شعورا متناميا بالإغتراب الثقافي والحضاري في مدينة لا تدل ملامحها العامة على أنها جزء من

صورة الوطن التي أحملها في مخيلتي، لقد وجدتها مدينة ترفض أصيلها ومثقفيها وعلماءها وتفتح ذراعيها للمستورد، على مختلف أشكاله وألوانه،.. وقد وجدت في بعض الروايات التي إعتمدتها في دراستي هذه ما يعبر عن شعوري ذلك أصدق تعبير، فكان ذلك أكبر دافع لتعميق علاقتي بهذه الروايات ونقطة الإلتقاء بيني قارءا ودارسا وبين أصحاب هذه الأعمال.

وبالإضافة إلى هذا الدافع النفسي فإن قلة الدراسات المتخصصة في الجوانب الفنية من الرواية الجزائرية العربية كانت دافعا آخر شجعني على تناول هذا الموضوع.

و قد رأيت توزيع هذا البحث على تمهيد وثلاثة فصول: فأما التمهيد فقد استعرضت فيه ظاهرة المدينة على الصورة التي عرفت بها في الحضارات القديمة غربية وشرقية، ثم تعرضت لعلاقة العرب بالمدينة في الجاهلية والإسلام ثم بينت حضور المدينة في القرآن الكريم وفي الأدب العربي قديما شعره ونثره، وانتهيت إلى حضورها في الأدب العربي الحديث وموقف بعض الشعراء المحدثين منها.

وأما الفصل الأول فقد وسمته <<بملامح المدينة في الرواية الجزائرية العربية>> وفيه استعرضت ملامح المدينة كما تبرزها مختلف النصوص الروائية الجزائرية المعتمدة في هذه الدراسة وقمت بعد ذلك بتصنيف مايشترك فيه روائيان أو أكثر في رسمهم لملامح المدينة أو في نظرتهم إليها فجعلته صنفا وما يختلف فيه عنهم سواهم فجعلته صنفا آخر، وإنما كان غرضي من ذلك إظهار نقاط إختلاف الكتاب في رؤيتهم للظاهرة الواحدة وتعاملهم معها، ثم رأيت أن أربط بين تصور هذا الصنف أو ذاك عالم المدينة وبين مارأيته قريبا منه من العلوم الإنسانية، فتوصلت إلى أنه يمكن قراءة روايات هذا الصنف على ضوء علم

الإجتماع، وروايات ذاك الصنف على ضوء الجغرافيا، وروايات الثالث على ضوء التاريخ، وروايات الرابع على ضوءالفلسفة. أما الفصل الثاني فخصصته " لعلاقات المدينة " من خلال الرواية الجزائرية العربية، وقد لاحظت أن ثمة خمسة أنواع من العلاقات هي:

- علاقة الإنسان بالمدينة ، ورأيت أنها تفرز ثلاث حالات هي: الحلم بالمدينة والإغتراب في المدينة والهروب من المدينة، ثم أفردت لصورة المرأة في المدينة حيزا ضمن هذا العنصر.
- علاقة المدينة بالتاريخ.
- علاقة المدينة بالثورة التحريرية.
- علاقة المدينة بالريف.
- علاقة المدينة بالزمن.

و أما الفصل الثالث من هذا البحث فقد خصصته لفضاءات المدينة ورأيت إعتمادا على دراسة مصطفى التواتي في كتابه << دراسات في روايات نجيب محفوظ الذهنية >> أن أحصر هذه الفضاءات في نوعين هما: الفضاءات المفتوحة، والفضاءات المغلقة، والإنفتاح والإنغلاق هنا يأخذان مفهوما فيزيائيا و نفسيا وجماليا في الوقت نفسه. ففي الفضاءات المفتوحة تعرضت إلى الشوارع والأزقة والجسور والعمارة والبحر، أما في الفضاءات المغلقة فقد تعرضت إلى البيوت والغرف والسجون والمقاهي والمساجد والأضرحة، على النحو الذي أشارت إليه النصوص الروائية المعتمدة في دراستي هذه.

وقد ختمت كل فصل من الفصول الثلاثة بخلاصة عرضت فيها ما توصلت إليه من نتائج، ثم أنهيت البحث بخاتمة.

ولم أسلك في هذا البحث منهجا واحدا وإنما رأيت أنه من المفيد الإستفادة من مناهج نقدية متعددة كالمنهج الوصفي والمنهج السوسيولوجي والمنهج الجمالي والمنهج الدلالي، ولعل ما أملى علي هذا

هو ما تمتاز به الرواية من خصوصيات وأبعـاد متنوعـة، فهـي لا تخلـو مـن البعـد الإجتمـاعي ولا النفسـي ولا الدلالـي ولا الجمـالي، ولذلـك فـإن دراسـة بعد واحد منهـا دون سـائر الأبعـاد يعد مسـألة جزئية تستوجب الإحاطة بالأبعاد الأخرى الإحاطة بالأبعاد الأخرى للوصول إلى دراسـة متكاملة للرواية، ولذلك فإنـه لمـا كـان للروايـة بعد إجتمـاعي رأيـت مـن المفيد الإستعانة ببعض الدراسات السوسيولوجية التـي تنـاولت موضـوع المدينة، ولما كان لها بعد جمالي استفدت من المنهج الجمالي وهكذا.

و لعل أهم ما لقيت من المتـاعب فـي هـذا البحـث هـو قطعـي مسـافة تزيد عن مائتي كيلومتر بين مقر إقامتي وبين الجزائر العاصمة، مـرة أو مرتين كل أسبوع في سبيل التزود بالمادة الضرورية للبحـث، وكنـت فـي كل مرة أقطع المسافة ذهابا وإيابافي اليوم نفسه، ولكن الله يسر لـي هذا السبيل، فلم يبق اليوم من تلـك المتـاعب كلهـا سـوى ذكـرى ممتعـة علـى قساوتها ومرارتها.

و لا يفوتني هنا أن أتقدم بالشكر الجزيل لأستاذي الدكتور عبد القـادر هني الذي قبل الإشراف علـى بحثـي وأخذ بيدي موجهـا إيـاي ومشـجعا وتكلف عناء متابعتي في كل خطوة كنت أخطوها، وقد أفـادتني توجيهاتـه القيمة في تدارك كثير مما وقعت فيه من الأخطـاء، فأسأل الله أن يجازيـه على ذلك خير الجزاء.

و لا أزعـم، ختامـا، أننـي تمكنـت من إخـراج هـذا البحـث فـي أمثـل صورة، ولا أدعي لنفسي فضلا كبيرا على من سـيلحق مـن بعـدي ولكـن حسبي أني لم أدخر جهدا في إنجازه على النحو الذي رأيته ملائما ولائقـا بموضوع كهذا، وفوق كل ذي علم عليم، والله نسأل التوفيق والسداد.

تمهيد:

المدينة ظاهرة عريقة في تاريخ الحضارات الإنسانية، إذ عرفها الإنسان منذ أن سنح له فكره الإنتقال من المرحلة << الحيوانية >> التي تطبعها الغريزة والإنقياد للظواهر الطبيعية دونما محاولة للتخلص منها، إلى المرحلة <<الإنسانية>> التي شهدت ميلاد عبقرية الإنسان الأولى، و كان بداية تفتق هذه العبقرية إستغلال القدرات العقلية و ملكه الذكاء التي وهبها إياه الله سبحانه وتعالى. وتبين الدراسات الأنتروبولوجية أن هذه النقلة لم تكن دفعة واحدة، وإنما << مر الإنسان بتغيرات مختلفة في حياته الطويلة إلا أن أهم هذه التغيرات كانت ثلاثة:

٤٧١٥٢٣

1- إنتقاله من حالة البحث عن الطعام إلى إنتاج الطعام و المعيشة الثابتة. أي إلى حياة القرية.

2- إنتقاله من القرية إلى حياة المدينة الأولى.

3- إنتقاله من حياة المدينة الأولى إلى حياة المدينة الصناعية >>(1).

و هذا الإنتقال قد كانت له آثار كبيرة على مسار الإنسان الحضاري، حيث أمكنه إنشاء المدينة لتصبح تجمعا بشريا ذا نمط معين من السلوك والعلاقات والعادات يختلف كثيرا عن ذلك السائد في مرحلة الإنسان السابقة، وأعني بها مرحلة القرية. فمن الناحية السلوكية مثلا، إستطاع الإنسان أن يكيف سلوكه ويهذبه على نحو مغاير تماما لما ألفه طوال حياته البدائية، فتحضر سلوكه بما يتماشى مع طابع معيشته الجديد القائم على ما تفرضه عليه المدينة. ولعل مفهوم "الحضارة" و" التحضر" و" العمران" ارتبط بالمدينة أكثر من أية بيئة أخرى حتى عدت المدينة << مهد الحضارة، فيها عرف الإنسان طعم الراحة والإستقرار، من بعد طول تشرد و مطاردة في البراري والقفار>>(2).

(1).مجتمع المدينة -عبد المنعم شوقي- الطبعة الأولى -دار النهضة العربية- بيروت 1981-ص38.

(2).أزمة المدينة العربية -عبد الإله أبو عياش- الطبعة الأولى -وكالة المطبوعات- الكويت 1980- ص11

لكن هذا المفهوم لما يتبلور في صورته المثالية لعدة إعتبارات أهمها:

- تعد أنماط المدن بإختلاف أنظمة العلاقات الإجتماعية و عقليات الشعوب وانتماءاتها الحضارية و العرقية و الثقافية و الدينية.

- الطابع الحركي للمدينة الذي يفرض في حالات كثيرة تغيرا من بنية سكانها وعلاقاتهم و نمط معيشتهم.

- تعدد العلوم التي تتخذ من المدينة موضوعا لها، فيذهب كل علم في تحديد مفهومها مذهبا مغايرا لما يذهب إليه غيره.

و سوف أقف هنا عند بعض تعريفات المدينة من منظور علماء الإجتماع والجغرافية.

فمن الناحية المكانية المحضة يرى علماء الجغرافيا أن << المدينة ظاهرة جغرافية لأنها تشغل جزءا من سطح الأرض >>(1) و هي لا تعني بالنسبة إلى الجغرافي أكثر من << نمط معين من الإستقلال للأرض، يجمع في مجال قد يزيد أو ينقص مجموعة من الأفراد يعيشون و ينتجون >>(2) . وهذا الإطار المكاني لابد أن يكتسي بعدا إجتماعيا ليتبلور مفهوم المدينة بإعتبارها علاقات بين أفراد يعمرونها و يخضعون لأعراف معينة تواضعوا عليها أو وجدوها قائمة فاتبعوها، والمدينة، من هذه الناحية هي << نظام نسيجي من العلاقات الإجتماعية و الثقافية و الإقتصادية و السياسية و الإدارية المتشابكة مع بعضها البعض وهي تبقى قوية ما بقي النسيج محكما..>>(3).

و لقد حاول الأنتروبولوجيون و علماء الإجتماع البحث في أصول المدن ونشأتها و توصلوا إلى أنه << في الأمكان القول بأن نشأة المدن تعود لثلاثة أسباب ممكنة : إقتصادية، سياسية، دفاعية >>(4)، و هو ما يمكن تلخيصه في حاجة الإنسان، فالمدينة، في الواقع، لم تكن نشأتها إلا لحاجة ضرورية أملتها على

---

(1).مدينة الجزائر -علي عبد القادر حليمي- المطبعة العربية لدار الفكر الإسلامي- 1972-المقدمة.

(2).الجغرافية الحضرية -جاكلين بوجوقاربيي، ترجمة د.عبد القادر حليمي- ديوان المطبوعات الجامعية -الجزائر- 1989 ص120

(3).أزمة المدينة العربية ص11.

(4).الجغرافيا الحضرية ص89.

الإنسان ظروف طبيعية و بشرية و نفسية ودينية، ومن هنا كان الإختلاف في طبيعة المدن و وظيفتها و دورها في حياة الإنسان، وهو ما أدى إلى إنعدام <<نمطية>> للمدينة يستنبط على ضوئها مفهوم موحد << للمدينة >>. وهناك تصنيفات عديدة للمدن، منها ما يأتي بالنظر إلى الدور الذي تلعبه المدينة والنشاط الذي تقوم به فنجد هنا : المدينة الإقتصادية و المدينة السياسية والمدينةالصحراوية والمدينة الجبلية...و منها ما يكون لإعتبارات ثقافية و تاريخية محلية فنجد مثلا: مدينة الثقافة ومدينة العلم، والمدينة التاريخية، ومدينة الأمير عبد القادر... وهكذا. و لقد جمع شابو في كتابه << دراسة في الجغرافية الحضرية >> هذه الوظائف كلها << و ميز بين ست مجموعات كبرى للوظائف هي: الوظيفة العسكرية، الوظيفة التجارية..الوظيفة الصناعية...الوظيفة الثقافية... وظيفة الإستقبال...الوظيفة الإدارية و السياسية...>>(1).

و هذه التصنيفات التي وضعت للمدن حديثة، وإن كانت وظائف لمدن قديمة. وحركية المدينة المشار إليها سابقا تقتضي تبدلا في وظيفة المدينة وطابعها. إلا أن، الثابت هو أن المدينة ظلت تؤدي دورها الريادي في تاريخ الحضارات الإنسانية التي تعاقبت على بقاع كثيرة من الأرض، و قد احتفظت المدن التي كانت صرحا لحضارة غابرة بشواهد مادية و معنوية كثيرة ولا تزال تثير في النفس الإنطباع بعظمة تلك الحضارة وطابعها المميز وأحداثها التاريخية ووقائعها وإنجازاتها وشخصياتها. والمدينة بهذا ليست مجرد << مكان دائم للإقامة يتميز نسبيا بالكبر و الكثافة يسكنه أفراد غير متجانسين>>(2) ولكنها، إلى جانب ذلك، مركز للإشعاع الحضاري والفكري وممارسة أنظمة الحكم. وقد اكتسبت هذه الخاصية منذ القدم << فالدين والفن والعلم والأدب تنبع دائما من المدن، وتزهو فيها، كان ذلك في القدم، وهو كذلك في الحديث >>(3) . فقد ظلت آثينا على

---

(1).الجغرافيا الحضرية ص65.

(2).علم الإجتماع الحضري -د.محمد عاطف غيث- دار المعرفة الجامعية -الإسكندرية- ص134.

(3). فجر الإسلام -أحمد أمين- موفم للنشر - الجزائر 1989 ص275.

مدى قرون نقطة هامة تنبثق منها الفلسفة و الفنون فتنير ما حولها ثم يمتد ضوؤها ليغمر العالم آنذاك، و إليها يعود الفضل في تجميع جهود اليونان و عبقريتهم، والتأليف بين عناصر كثيرة متنوعة لنسج تلك الحضارة العريقة ذات الأبعاد المحلية و الإنسانية و الإقليمية في الوقت نفسه . فمن يذكر آثينا اليوم يذكر كثيرا من رموزها التي مجدتها مدينة ووطنا وحضارة، يذكر مؤرخيها، وفلاسفتها وشعراءها و ساستها و حروبها و ديانتها و أهلها و بالجملة يذكر كل ما يتصل بحضارة الإغريق التي كانت آثينا من أقوى مراكز الإشعاع فيها، وحسب آثينا أنها قدمت إلى الإنسانية فيلسوفين كأفلاطون و سقراط و شاعرا كهوميروس ومؤرخا كهيرودوت، والمدينة، بهذه الأبعاد، تتجاوز مفهوم كونها مكانا فيزيائيا يناقض القرية، إذ تتحول إلى كونها : << البوتقة الإنصهارية التي تمازجت فيها إبداعات الإنسان و إرهاصات الفكر و قدرات الأمم الخلاقة و هي الأرضية التي تبرعمت فوقها الثقافات وازدهرت في حدائقهاالعلوم والفنون>>(1) وقد اضطلعت<< روما >> بالمهمة نفسها، فيما بعد، حين تمكن الرومان من تدمير آثينا و نقل مركز الثقل إلى مدينتهم فأصبحت روما قلب العالم الغربي وحاملة راية حضارته الجديدة، لكنها لم تحافظ على الطابع ذاته الذي حافظت عليه آثينا طوال قرون من وجودها حتى سقوطها في يد الرومان في القرن الثاني قبل الميلاد.. و لم يكن هينا على روما في بداية أمرها الظهور بمظهر المدينة الجديدة مقطوعة الصلة عن آثينا، ذلك أن إقامة دولة بإنتصارات عسكرية على دولة أخرى لا يعني قيام حضارة متميزة بخصائصها و مقوماتها الفكرية و الفلسفية والسياسية، فقد ظلت آثينا مهدا للثقافة و الفكر بالرغم من الهزيمة العسكرية والسياسية التي منيت بها، وكان لزاما على ساسة روما الإستفادة مما تزخر به

(1).أزمة المدينة العربية ص11.

آثينا من علم وفلسفة و فن، وتحويل مركز الثقل بكل عناصره إلى عاصمة دولتهم شيئا فشيئا، فكان الأمر كذلك، و لم تظهر روما مدينة متميزة إلا حين اتخذت من نفسها قاعدة لحماية الديانة المسيحية و نشرها في العالم، و من ثم استطاعت أن تتربع على عرش الحضارة الغربية قرونا طويلة عرفت فيها فترات الضعف وأخرى للقوة، لكنها ظلت تجمع شتات أوربا كلها إلى عصر النهضة الأوربية الذي شهد عدة عواصم خرجت كلها من جناحي روما وورث منها مخزونا تاريخيا و حضاريا و دينيا استفادت منه في قيامها و أضافته إلى عناصرها المحلية التي تمنحها بعض التميز.

و قد عرفت حضارات الشرق مدنا تشهد لبناتها و معمريها بالعبقرية والإبداع، و لعل من أعظم هذه المدن تلك التي قامت في بلاد الرافدين و مصر واليمن وكان من أشهرها بابل و صنعاء، و سبإ و طيبة والأسكندرية وبيت المقدس وغيرها. ولقد كان لهذه المدن طابعها الشرقي المميز سواء من حيث هندستها أم مواقعها أم أنظمتها السياسية والإدارية، و عموم القول في هذا أن أغلب مدن الشرق كانت تقام على الأودية و الأنهار دائمة السيلان كدجلة والفرات و النيل، بينما كانت مدن الغرب تقوم على الواجهات البحرية، و لعل هذا يفسره الطابع الجغرافي لكل منطقة فضلا عن علاقة الإنسان بالبحر التي تجدها في الغرب أقوى منها في الشرق الذي آثر الولوج إلى أعماق اليابسة ليتخذها مستقرا له و منبعا لتفجير طاقاته الفكرية والإبداعية، وهذا الإختلاف في المكان كان له الأثرالكبيرفي اصطباغ كل حضارة بصبغة مميزة تحمل روافدها المحلية لترسم شخصية الإنسان في تلك المنطقة.

و ثمة ظاهرة وجب الوقوف عندها و هي: علاقة العرب بالمدينة. هل عرف الإنسان العربي مدينة بذلك المفهوم الحضاري العمراني كما عرفها اليوناني والروماني؟.

إن فترة ما قبل الإسلام فترة مهمة في تاريخ الإنسان العربي من حيث تكون العناصر البدائية في شخصيته، و بالنظر كذلك إلى ماخلفه من آثار فكرية و أدبية شكلت فيما بعد أرضية صلبة في بعده الحضاري الذي طعمه الإسلام بالعنصر الروحي الذي ظل فيه متوحشا يفتقد إلى شيء من العقلنة و الصواب، و لذلك فإن درجة الحضارة و الرقي التي بلغها الإنسان العربي بعد مجيء الإسلام لا يمكنها أن تلغي تلك الحقبة المهمة و الأساسية في تاريخ تكوينه و تطوره، و الظروف الطبيعية التي وجد فيها فرضت عليه تكييف نفسه معها دون أن يفكر طويلا في تكييفها مع نفسه، وهو ما يمكن اعتباره سلوكا بدائيا ذلك أن< البدائي يقف منبيئته << موقف المندهش، المتبصر، يحدق بها و يعني بتقليدها>>(1) وهذا الموقف من تلك البيئة الصحراوية القاسية المجدبة هو الذي فرض على العربي الترحال المستمر بحثا عن مواطن الماء و الكلإ التي كان يجدها بشق الأنفس، و لم يتح له أن يفكر في الإستقرار في مكان واحد يتخذه قرية أو مدينة، و لأنه لم يغير من سلوكه و موقفه ذاك ظلت حياته متذبذبة و<< لم يشد العرب ...مدنا و لا خلفوا في البيئة الصحراوية قصورا أو آثارا >>(2) و لعله من أسباب ذلك:

1- عقلية الإنسان العربي التي سايرت بيئته الصحراوية إذ أن <<الطبيعة كان لها أثرها البالغ في تكييف و تطبيع ذلك الإنسان العربي >>(3).

2- عزلة الإنسان العربي في محيط شاسع من الرمال لا يعرف له نهاية، وإنقطاعه عن حياة الشعوب الأخرى التي اتخذت من المدن أمكنة للعيش و الرخاء والتحضر.

3- غياب العوامل التي تساعد على بروز << مدينة >> في البيئة صحراوية، كالعامل الإقتصادي والعامل السياسي و العامل العسكري و العامل الإداري وغيرها ..فعلىالرغم من توفر النواة الأولى لقيام المدينة - بمفهومها القديم كما

---

(1).في النقد والأدب -إيليا الحاوي- الجزء الأول -الطبعة الرابعة- دار الكتاب اللبناني، بيروت.ص79

(2).الإنسان و عالم المدينة في الشعر العربي الحديث -مناف منصور- مركز التوثيق و البحوث، 1978.ص13

(3).أدب العرب في عصر الجاهلية -د.حسين الحاج حسين- المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، بيروت.ص17.

يرى فوستيل دي كولانج – فإن التطور المؤدي إلى ظهورها لم يحصل في البيئة العربية، فنشأة المدينة تبدأ من القبيلة التي << تكونت كما تكونت الأسرة، والأخوية،....فتكونت الأخوية من عدة أسرات و تكونت القبيلة من عدة أخويات وتكونت المدينة من عدة قبائل >>(1) و هكذا وقفت الجماعة العربية عند القبيلة ولم تتعدهاإلى نطاق أوسع فتنشأ المدينة، و مما يفسر ذلك إستحالة إتحاد قبائل عربية لتكوين مجتمع اكبر نظرا إلى الطابع العصبي و العدائي الذي كانت تمتاز به القبائل العربية و الحروب التي كانت تدور بينها، و لم تستطع التحالفات التي كانت تقام بين بعض القبائل ضد البعض الآخر أن تذيب هذا الطابع العصبي التفردي و تسمح بظهور عصبية أكثر شمولا تمهيدا لنشأة مدينة أو دولة، إذ غالبا ما كان ينقض الحلف لما يجد من الأحداث فإذا بالذي كان حليفا بالأمس عدو اليوم، فيحول التحالف إلى عدو الأمس، وهكذا...

4- و من جهة أخرى فإن ثمة عاملا قويا لإلتفاف الجماعة حول بعضها في مدينة، ألا و هو العامل الديني إذ << المؤكد هو أن رباط الجماعة القديمة كان هو الديانة>> (2) و هذا العنصر لم يكن متفقا عليه بين القبائل العربية جميعها، فعلى الرغم من الطابع الوثني الذي ساد ديانة العرب في الجاهلية فإنه لم تكن ثمة وحدة دينية جامعة، فالرباط الوحيدالذي كان يجمع أفراد الجماعة الواحدة، أو القبيلة، كان هو رباط الدم، فالقبيلة تنتسب إلى جد واحد و كل أفرادها أقارب، وكان ممكنا أن يعوض هذا العنصر عنصر الديانة لو أنه كان في الإمكان التوسع في العدد بالإكثار من النسل . صحيح أن العربي كان يتباهى بكثرة النسل و قوة العدد، لكن الحروب الطاحنة كانت تفتك بكثير من أبناء القبيلة مما يجعل عدد أفرادها في إنحسار مستمر أضف إلى ذلك مساهمة العربي نفسه بتقليص أفراد أسرته كوأد البنت والتنكر للنسل من الإماء و العبيد.

---

(1) .المدينة العتيقة –فوستيل دي كولانج– ترجمة عباس بيومي بك – مكتبة النهضة المصرية. ص167.

(2) نفسه.

و ظل العربي متمسكا بهذه الحياة – على شظفها – واكتفى من مظاهر الإنسانية بالمأوى الذي كان يتخذه غالبا من خيمة من الشعر يحملها حيثما حل وارتحل و حسبه منه أنه يحصل منه على << الوقاية من التقلبات الجوية والحرارية >>(1)، أما المدينة فلم يكن لها تصور في ذهنه، لم يحلم بها لأنه لم يكن يرى بديلا عن حياته تلك التي كان فخورا بها على الرغم من قساوتها، ولكن هل هذا يعني أن العربي لم يعرف المدينة قط ؟.

غني عن القول أن العرب لم يكونوا كلهم بدوا، و أن منهم من سكن الحاضرة واستقرت فيها حياته و طاب له فيها العيش فشاد ما أتاحته له ظروفه و تمتع ببعض من النعيم الذي حرم منه البدوي، وكانت مكة و يثرب، أيام الجاهلية أشهر مدن العرب في الحجاز، أما مكة فكانت قبلتهم و عاصمتهم الدينية التي يفد إليها كل عام الحجيج من كل بلاد العرب ليؤدوا شعائرهم، و أما يثرب فكانت مركزا تجاريا هاما بالنظر إلى موقعها في الطريق إلى الشام شمالا، و لم تكن تتمتع أي من المدينتين بمنفذ على الواجهةالبحرية شأن المدن التي أقامها اليونان أو الرومان، و فضلا عن سمتها التجارية كان ليثرب نشاط زراعي، وإن كان قليلا، ومن الناحية الإدارية، لم تشهد هاتان المدينتان تنظيما إداريا متطورا فقد كانتا تخضعان لحكم العشائر الذي كان بيد السادة و الأشراف، و تستمد أحكام هؤلاء من الأعراف، و يقضي حسب ما هو شائع، أو حسب ما تمليه رجاحة العقل والحكمة اللتان كانتا من شروط سيد القوم الذي يوكل إليه الأمر، وإليه يرجع عند الضرورة، فلم تعرف الدساتير و لا القوانين الصارمة التي تحكم الشعوب في البلاد الأخرى. و هذا النظام السائد في مكة و المدينة لم يكن يختلف كثيرا عما كان يسود القبيلة في الصحراء، لمكة سادتها و أشرافها و لكل قبيلة من قبائل

(1).الإنسان في المجتمع المعاصر -فاتييد- ترجمة مصطفى كامل جودة- دار المعرفة – القاهرة 1969.ص277.

البادية سادتها و أشرافها، وكانت العصبية و روابط الدم من الأسس التي يقوم عليها النظام الإجتماعي في كل منهما، و بالجملة يمكن القول أن مكة و المدينة لم تختلفا عن غيرهما من قبائل العرب المرتحلة إلا في عنصر المكان، فبينما كانتا هما تتمتعان بالإستقرار و الثبات في المكان، كان المكان بالنسبة إلى قبائل البدو عنصرا خاضعا للتغير المستمر الذي تقتضيه الحاجة الدائمة إلى الماء والكلإ، وقد تفضل المدينتان تلك القبائل بنمط المسكن الذي كان يشاد من مواد صلبة ويوفر بذلك شيئا من الرفاهية و الراحة، و هو ما لم يتمتع به ساكن البادية. و لئن اختلف في تحديد مقاييس التحضر، فإننا نعد الإستقرار في مكان واحد و العيش في مسكن من مظاهر التحضر فالإستقرار يمهد لخطوات لاحقة على درب البناء الحضاري فمنه يعقب بناء مركز للتجارة و إقامة مكان للإجتماع و التشاور وأمكنة لإقتناء الحاجات الضرورية و أمكنة للعبادة وأخرى للثقافة، وهكذا.

و لقد كان سكان مكة ويثرب بحاجة إلى عامل أقوى يقوم مقام العصبية الضيقة التي تجمعهم، عامل أقوى من عصبيتهم ذاتها يحرك كوامن القوة فيهم ويعطي المكان الدور الذي ينبغي أن يلعبه في السياق الحضاري للأمة و يغذي اللحمة القائمة بين أفراد القبيلة أو العشيرة بما يكفل لها توسيع نظامها و استغلال مفهوم "الحضارة" أو "المدينة" لإتخاذه منطلقا للإشعاع الحضاري، و هكذا كان الإسلام الذي بزغ نوره في مكة –العاصمة الدينية للعرب أيام الجاهلية، هو العامل البديل من تلك العصبية التي عجزت عن اجتياز حدودها والوصول بالمجتمع إلى ما وراءها . و ظهور الإسلام كان بمدينة، شأن كل سائر الديانات التي كان منطلقها المدينة لما تتوفر عليه إذ أنها <<أكثر ناسا و أوفر عمرانا >>(1) و لما أعرض أهل مكة عن الدعوة إلى الدخول في الدين الجديد و ضاقت المدينة بمن

---

(1).فجر الإسلام. ص275.

اعتنقه من المستضعفين كان أمره تعالى لرسوله الكريم بالهجرة إلى مدينة أخرى ألا و هي يثرب، و لعل من أسباب الهجرة من مدينة إلى مدينة أخرى أن المدن، حسب قول أحمد أمين السالف، هي منبع الدين و الفن و العلم، إضافة إلى أن رسالة عظيمة كالتي جاء بها محمد بن عبد الله -صلى الله عليه و سلم- ما كان لها لتنتشر بين الناس إلا في مدينة عامرة، و ليس ذلك ما تتيحه لها بادية خالية من السكان، و قد كانت يثرب أكثر حظا لأنها شهدت أول نظام سياسي و إداري وإقتصادي في تاريخها، ففيها قامت أول دولة للمسلمين و أنشئت لها الهياكل والأجهزة، فعرف المسجد الذي كان مكانا للدعوة و العبادة و تنظيم شؤون الدولة السياسية و العسكرية، والفصل بين الناس، و هكذا اكتست طابع " المدينة " الحضارية عاصمة الدولة الإسلامية الناشئة، وكانت نواة تكون حضارة جديدة قائمة على أسس مغايرة لتلك التي قامت عليها قبل ذلك حضارة الأغريق أو الرومان أو الفرس، وبتوفر يثرب -التي سميت فيما بعد بالمدينة لإستكمالها ملامح المدينة و شروطها فيما يبدو- على هذه الأنظمة المختلفة أمكن القول أن مفهوم المدينة المناقض لمفهوم البادية بنظامه البدائي بدأ مع تمكن الإسلام من فرض نفسه دينا جديدا و نظاما إقتصاديا وإجتماعيا و سياسيا شاملا، و الإنتقال النوعي الكبير الذي عرفته المدينة المنورة بعد قدوم المسلمين إليها وما اصطبغت به من الصبغة الجديدة ذات البعد الإسلامي المحض، كل ذلك يبيح لنا أن نسميها أول مدينة إسلامية، ومن ثم يكون بروز مصطلح << المدينة الإسلامية >> مبررا، ويستند كذلك إلى وجه المدينة و نظامها و طابع الحياة فيها الذي تغير جذريا عن ذاك السائد قبل دخول الإسلام إليها . وقد << نسبت المدينة الإسلامية إلى الإسلام، فهي بالإضافة إلى ما تتميز به من خصائص حضارية عامة، تتسم بالصفة الإسلامية باعتبار أن الإسلام منهج حياة فيها >>(1).

(1).المدينة الإسلامية -محمد عبد الستار عثمان- -عالم المعرفة- الكويت 1988. ص6.

لكن هذا لا يعني، من جهة أخرى، أن المدينة العربية بدأت بيثرب و إليها انتهت، << فالمدينة العربية ذات تاريخ طويل >>(1). و قد تكون يثرب المنعطف الحاسم الذي كان له تأثير على المدينة العربية، فيما بعد، إذ لم يغب منها البعد الإسلامي الذي رسخ في ذهن الإنسان العربي الذي حضره دينه فانتقل به من طور البداوة إلى طور الحضارة. و << المدن العربية من حيث المنشأ أنواع: فمنها ما كان قائما في مواضع شهدت أمما و حضارات... و بعضها سقطت ولم تقم له بعد سقوطه قائمة...و بعضها اندثر تحت الأتربة والرمال، وبعضها حطمتها الزلازل وعوادي الأيام. وهناك منها ما جاهدت ليبقى في شرايينها رمق الحياة>>(2) ولقد تكيف المسلمون منذ ذلك مع هذه الظاهرة الحضرية الجديدة ونمت المدن وراحت تستقطب إليها كثيرا من أهل البادية الذين كانوا يفدون إليها لأغراض إقتصادية وسياسية ، حيث كان النمط الجديد لتنظيم الأسواق و التجارة، و ما كان يؤدي المسجد من وظائف الدعوة و العلم و التثقيف، واعتبار المدينة قلب النظام الجديد بأوجهه المختلفة، كان ذلك كله مدعاة للوفود إليها، وقد تعاظمت الرغبة إلى هذا الوفود، عندما بدأت الفتوحات الإسلامية في البلاد المجاورة لشبه الجزيرة، حيث لعبت المدينة دورا هاما في تجميع المجاهدين واستقبالهم حين عودتهم من الفتح وتقسيم ما أمكن من المغانم، ثم كان لإنتقال الحكم إلى بني أمية و العباسيين من بعدهم الأثر البالغ في ترسيخ فكرة " المدينة " في ذهن الإنسان العربي، لا من حيث أنها مكان لقضاء المآرب التي لا تتيحها له البادية، فحسب، و لكن من حيث اعتبارها وجها من أوجه المدينة الإسلامية، وقد ظلت دمشق على مدى عشرات السنين العاصمة السياسية الجديدة للدولة الإسلامية و زخرت بكل مظاهرها العلمية والثقافية، إذ لم تعد << المساجد مجرد دور عبادة

(1). أزمة المدينة العربية. ص12.

(2). المرجع السابق: ص31.

فقد التحقت بها مدارس و معاهد لتبصير المسلمين بدينهم >>(1). وقد ورثت بغداد من بعد ذلك هذه الأوجه المتكاملة، و اقتضى التطور الحضاري الذي عرفه المسلمون في هذه الحقبة زيادة في وظائف المدينة و توسيعا في أدوارها المختلفة، لكنها، مع ذلك، لم تفقد طابعها العربي الإسلامي المتميز، و قد تحول إليها مركز الثقل بكل أبعاده، و تدعم بما وفد إليها من العناصر الجديدة، إى أن أهم ما كان يميز بغداد عن دمشق قبلها هو ذلك التفتح الواسع على الثقافات الأجنبية و الإقدام على الفلسفة و العلوم، و ذلك ما لم يسمح به إنغلاق الأمويين .و هذه الوظائف المختلفة التي اضطلعت بها بغداد طوال حكم العباسيين أهلها لأن تكون مدينة حقيقية و عاصمة لأكبر دولة في ذلك العهد لا يقل شأنها عما كانت عليه آثينا أو روما، و إلى جانب بغداد، أنشئت في هذه الحقبة (1323هـ - 656هـ) مدن كثيرة، أو لتقل طورت هذه المدن و ذاع صيتها، و لعل من أشهرها: الكوفة والبصرة وسر من رأى و شيزار، و اصفهان، و حلب و الموصل، وغيرها، وفي الوقت نفسه، كانت تتنامى في الغرب الإسلامي حضارة راقية احتضنت ميلادها ورعتها حتى أينعت مدن كثيرة طارت شهرتها في الآفاق و قصدها ذوو الحاجات المختلفة طلبا لما افتقدوا في بلادهم، فكانت قرطبة حاضرة للعلم والفلسفة و الفن والشعر، و كذا كانت إشبيلية و غرناطة من بعد، و مرسية، ثم القيروان وفاس وتلمسان والجزائر وتاهرت و بجاية، إلى أن << تأثرت المدينة الإسلامية بالأحداث السياسية و الإقتصادية و الثقافية التي تغيرت على خريطة العالم >>(2) فكانت نهاية بعضها نهاية أبدية، فيما ضعف البعض الآخر بفعل النزاعات والإعتداءات، فقد شهدت فيما بعد << تقلب الأحداث و مرور جحافل...الغزاة فهي بمثابة متحف للتاريخ البشري، تبرز فيها آثار أمم و أجيال عمرتها و شيدتها و غيرت خصائصها و ملامحها >>(3). وإذا كان للمدينة العربية هذا الدور الكبير في:

(1).المرجع السابق: ص33.

(2).المدينة الإسلامية. ص11.

(3).أزمة المدينة العربية. ص12.

- تلقف الرسالة الإسلامية و إرساء قواعد الدولة الجديدة في بداية العهد.
- ثم الإنتقال بالإنسان العربي من طور البداوة إلى طور الحضارة.
- و الإنتقال إلى مركز ثقل للحضارة الإسلامية و الإنسانية قاطبة.

إذا كان ذلك أبرز ما قامت به، فهل كانت مجرد مكان و مجرد ظاهرة فيزيائية دالة على تطور الإنسان العربي و رقيه؟ و في كل هذه المراحل من نموها وتطورها، ما كان صداها في الأدب العربي القديم؟ كيف تعامل الشاعر والناثر العربي مع المدينة قديما؟.

ففي الشعر، ظل الشاعر الجاهلي يرصد لمظاهر بيئته فيغرف منها متخذا من عناصرها الطبيعية الفطرية مادة أساسية لإلهامه و هكذا كان <<الأدب العربي الجاهلي نتيجة صادقة لبيئته و حياتهم الطبيعية جعلتهم يقصدون إلى أغراض معينة استلزمتها الحياة الصحراوية في البادية >>(1) و هي ظاهرة طبيعية ذلك أنه << لو نظرنا إلى الآثار الشعرية لرأينا أن المواضيع التي يتصدى لها الشاعر، غالبا، مستفادة من واقع بيئته >>(2) و كان من نتائج ذلك أن معظم الشعر العربي في الحقبة الجاهلية بدوي المولد، فالشاعر ولد في الصحراء و فيها نشأ وكيف سلوكه و أفكاره و عاداته و فق طبيعتها القاسية و مناخها الصعب وسمائها المحرقة الشحيحة، فهو لم يعرف المدينة و لا ذاق حلاوة العيش في نعيمها، بل أن نفسه توطدت على حياته تلك في البادية فكان نتاجا لها تفكيرا وثقافة كما كان نتاجا لها سلوكا و شكلا و لونا، فكان موقفه من الطبيعة و نظرته إلى الحياة نتاجا لهذه البيئة إذ أن << الموقف من الطبيعة و المكان مرتبط بنوعية التعامل مع الأرض >>(3) وقد كان للشاعر الجاهلي الذي نشأ في هذه البيئة موقف من مدينة زارها أو سمع عنها، و هو موقف المتمسك بأسلوب حياته

(1).النقد الأدبي -أحمد أمين- الطبعة الرابعة -دار الكتاب العربي- بيروت 1967.ص455.

(2).في النقد و الأدب ج1. ص78

(3).حركية الإبداع -خالدة سعيد- الطبعة الثانية -دار العودة- بيروت 1982. ص29

الراضي بوضعه، الرافض لكل أسلوب آخر سواه، وقد عبر عن هذا الإتجاه الشاعر الصعلوك الشنفرى في <<لامية العرب>> حيث حاول <<أن ينفي عنه مغرة التخنث الحضري فيحدثنا عن نفسه وهو في البيداء مصاحبا لوحوشها مسابقا لطيورها محتملا لشظف العيش فيها >> (1) والواقع أن مثل هذا النفور من المدينة والتشبث بالصحراء نجد له بعدا نفسيا، ذلك أن علاقة الإنسان بمكان مولده ونشأته غريزة فيه، فلا غرو، إذن، أن يتمسك الشاعر الجاهلي ببيئته، ولو أنه نشأ في غيرها لكان تمسكه بما نشأ فيه أشد و أقوى، وبالرغم من الإنتقال إلى طور التمدن منذ العهد الإسلامي فإن المدينة لم تشكل موضوعا ذا بال يفرض نفسه على الشاعر العربي في بدء ذلك الإنتقال، و<< ربما لم يتحدد موضوع المدينة في شعرنا القديم إلا في العصر العباسي، حيث أصبحت سمة للحياة الجديدة، ولتطور الواقع العربي الإسلامي الذي خرج من طور البداوة إلى طور التمدن، ففي العصر العباسي أكتمل النموذج المجتمعي والحضاري العربي ومن ثم اكتملت رؤية الفن والشعر للمدينة كمركز للحضارة >>(2) وفي هذا العهد كانت المدينة تلبي حاجات الشعراء المتزايدة والمختلفة، فبينما رأت فيها فئة، وعلى رأسها أبونواس، مرتعا للهوى والمجون بما توفره من ملاه و خمارات و أمكنة للتمتع بلذات الدنيا، رأتها فئة أخرى مكانا للرزق بدقها على باب القصر الذي كان مصدرا هاما لثروة كثير من الشعراء، ووجدت فيها فئة ثالثة ما يطفيء ظمأها إلى العلو والمعرفة والشهرة، بينما رأتها فئة رابعة مصدرا للآثام و الفوضى والإنحلال، و على العموم فإننا << نلاحظ موقفين متعارضين. القبول والرفض>>(3)، فقبول المدينة أو رفضها عند هؤلاء، كانت دوافعهما إما نفسية أو مادية، فالنظرة السلبية إليها كانت تنطلق مما آلت إليه أوضاعها من شعور

---

(1).الإتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث -أنيس المقدسي- الطبعة السادسة -دار العلم- بيروت 1982 ص335.

(2).أسئلة الكتابة النقدية -إبراهيم رماني- المؤسسة الجزائرية للطباعة -المجاهد الأسبوعي- 1992. ص77.

(3).نفسه.

بالغربة نتيجة توسعها و إزدحام سكانها، و إنتشار العادات و السلوكات الغريبة عن المجتمع العربي المسلم نتيجة ما أفرزه إختلاط العناصر الأجنبية بالعنصر العربي والمتمثل خاصة في تحول المدينة إلى << بؤرة للإنسحاق الإنساني>>(1) وقد أدى ذلك إلى تفسخ أخلاقي ظاهر لم يتمكن الشعراء من كتم موقفهم الرافض له، ومن أشهر من يمثل هذا الإتجاه أبو فراس الحمداني الذي يرى أن في المدينة <<الناس ذئاب تلبس الثياب >> و بشار بن برد الذي يرى الصداقة في بيئة المدينة << ثوبا منخرقا >> (2)، و ثمة ظاهرة أخرى في علاقة الشاعر العربي القديم بالمدينة، و هي التي نجدها في لون من ألوان الرثاء شاع في مرحلة الإنحدار التي شهدتها الحضارة الإسلامية في المشرق و المغرب و المتمثلة في رثاء المدن والممالك الزائلة، ولعل مرثية ابن الرومي للبصرة بعدما تعرضت لإعتداء الزنج (257هـ) ومرثية أبي البقاء الرندي لأشبيلية حين استولى عليها الأسبان سنة 645هـ، من أعظم ما حظيت به المدن الإسلامية التي تعرضت للتخريب والإحتلال من الرثاء. وبغض النظر عن أن << أحداثا وظروفا سياسية واجتماعية داخلية وخارجية (في الفترة بين 399 و923 هـ) كانت السبب في خراب كثير من المدن العربية >>(3) إلا أن الشعراء العرب الذين ارتبطوا بمدنهم قد <<عبروا بصدق عن وفائهم وعن شعورهم الحزين إزاء مدنهم المخربة وممالكهم الزائلة >>(4).

وهكذا تطورت علاقة الشاعر العربي القديم بالمدينة عبر مسيرة الشعر العربي منذ العصر الجاهلي حتى نهاية الإزدهار الحضاري الإسلامي، إذ طبعها في البدء النفور ثم الإحتراس، ثم الحميمية التي انتهت بفصولها الدارسة حين وقف الشاعر على جزء من كيلنه و امتداده الحضاري و الروحي وهو ينهار

(1).الإنسان و عالم المدينة في الشعر العربي الحديث. ص35.

(2).نفسه.

(3).رثاء المدن و الممالك الزائلة في الشعر العربي -أحمد عقون- أطروحة ماجستير، مخطوطة -جامعة قسنطينة- 1987. ص381

(4).المرجع السابق ص384

أمامه دون أن يجد حيلة لإستعادته، فاستحالت المدينة في نهاية هذه الرحلة حلما مضيعا، و صار بكاؤها بكاء لقرون طويلة من الإزدهار و الرغد و العطاء العلمي والفكري و الفني، والإنتصارات السياسية على << الغير >> الذي حز في نفسه أن تقوم لذلك البدوي الأشعث الأغبر مدينة يستقر فيها و يقيم أعظم حضارة في التاريخ، فكتم غيظه إلى حين استعاد قواه وانتقم لنفسه بتخريب ما شيد على مدى قرون من العمل و البذل واستولى على ما وجده قائما، لكن الشاعر وحده سجل كيف تحترق المدن بوحشية الإنسان و كيف تدمر صروح الحضارة والعلم والثقافة و الدعوة إلى السلام و الأخوة .و قد حمل هذا الهم أبوالبقاء الرندي في مرثيته المذكورة :

دهى الجزيرة أمر لا عزاء له   هوى له أحد وانهد ثهلان

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية   وأين شاطبة أم أين جيان

و أين قرطبة دار العلوم   من عالم قد سما فيها له شأن

قواعد كن أركان البلاد، فما   عسى البقاء إذا لم تبق أركان

و لم تغب المدينة في الكتابة النثرية التي عرفها الأدب العربي القديم على صورتها الراقية و الفنية منذ القرن الثاني للهجرة، إذ نعثر على ملامحها في قصص الجاحظ و نوادره خاصة تلك التي ضمها كتاب الحيوان، و قد استقى كثيرا منها مما كان يعانيه من طرائف و حوادث كانت مدينة البصرة و غيرها مسرحا لها وقد << كانت البصرة في عهد الجاحظ مدينة تجارية بحرية كبيرة .ومن شأن حياة المدن المشتغلةبالتجارة و المال أن تفسد فيها بعض القيم الخلقية والروحية وكانت مجتمعا لكثير من أصحاب الآراء و المذاهب و النحل، ومن بينهم الشعوبيون الذين حاولوا أن يغضوا من مثل العربي و قيمه و لاسيما الكرم...>>(1) فتصدى الجاحظ لهم ساخرا من مذهب البخل الذي قام في مجتمع البصرة.

---

(1).أبو عثمان الجاحظ –د.عبد المنعم خفاجي– –دار الكتاب اللبناني– بيروت.1982 ص309.

و في القرن الرابع الهجري، شاع فن المقامة في الأدب العربي، وعرفه الناس فنا قصصيا له مقوماته و عناصره، و كان أصحاب المقامات يرصدون للظواهر الإجتماعية المختلفة التي كانت تضيق بها المدن فيعكسونه في قالب قصصي فني فيه كثير من الطرفة و النقد معا. وأحداث معظم هذه المقامات تدور في المدن حيث يحلو للبطل أن ينجح في حيلة يدبرها للإيقاع بالحمقى ممن يكتسبوا فطنة أهل المدينة، و المتصفح لمقامات الحريري يقف على ظاهرة هامة: و هي إختيار المدينة مكانا لأحداث المقامة، و إلى هذه المدينة تنسب المقامة، و لذلك نجد فيها المدينة الصنائعية نسبة إلى صنعاء اليمن، فقد ورد على لسان الراوي << لما اقتصت غارب الإغتراب، وأنأتني المتربة عن الأتراب، طوحت بي مطايح الزمن إلى صنعاء اليمن فدخلتها خاوي الوفاض...>>(1) كما نجد المقامة الحلوانية نسبة إلى حلوان و المقامة الدمياطية نسبة إلى دمياط و المقامة الكوفية و المعرية والدمشقية و البغدادية...>>(2).

و في القرآن الكريم ورد ذكر المدينة فيما لا يقل عن سبع وعشرين آية .وقد وردت في بلفظ المفرد << المدينة >> في أربع عشرة آية، و وردت في صيغة الجمع << المدائن >> ثلاث مرات، بينما تكررت لفظة << مدين >> عشر مرات، ومما يلاحظ أن لفظ المدينة لم يرد إلا مقرونا بنبي من أنبياء الله موجود بها ففي قوله تعالى : << قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم . إن هذالمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها...>>(3) إشارة إلى موسى عليه السلام، و في قوله: << و ما كان لأهل المدينة و من حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله >>(4) و << و ممن حولكم من الأعراب منافقون و من أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم >>(5) فإن الخطاب موجه إلى

---

(1). مقامات الحريري ص4.

(2). ينظر المرجع السابق.

(3).الأعراف.123.

(4).التوبة.120.

(5).التوبة.101.

الرسول محمد عليه الصلاة والسلام الذي كان بالمدينة...كما ورد ذكر المدينة في سورة يوسف مقرونا بالنبي يوسف، وفي الحجر مقرونا بالنبي لوط وفي النمل مقرونا بصالح وهكذا في سائر الآيات.

كما نعثر على مدن بأسمائها، فقد ورد في سورة يونس و يوسف و الزخرف والبقرة ذكر الكلمة << مصر >> التي تكررت في القرآن الكريم خمس مرات، بينما ذكرت << مكة >> مرة واحدة فقط في سورة الفتح، و ذكرت سدبأ مرتين إحداهما في سورة النمل و الأخرى في سورة سبأ .و كانت المدينة في كل هذه الآيات مكانا لتبليغ الرسالة الجديدة إلى الناس و دعوتهم إلى الإيمان بالله و نبذ الشرك وعبادة الأوثان، كما نجد المدينة مصورة على أنها مصدر للآثام والشرورفي بعض الآيات ووظيفة النبي المرسل إليها هو تطهيرها وتخليص أهلها من ضلالهم.

في العصر الحديث الذي شهد، نمطا جديدا من المدينة التي لم يسبق لها مثيل في تاريخ المدنية البشرية من حيث وظائفها و دورها في حياة الإنسان المعاصر، كان موقف العربي منها يتأرجح بين قبول حذر و رفض قاطع لها، و لعل من دواعي القبول المتردد لدى الفريق الأول الرغبة في تطوير الذات ومسايرة مظاهر التمدن الإنساني الذي حملت لواءه المدينة الأوربية التي، وإن كانت امتدادا لتلك المدينة الغربية القديمة التي احتضنت حضارة اليونان ثم حضارة الروم، فإنها تختلف عنها بما أضافته إلى طابعها من العناصر الجديدة و التي منها: أنها أصبحت ميدانا للثورة الصناعية و التكنولوجية التي تعتبر من أهم ما يميز الحضارة الغربية و الإنسانية الحديثة . و لكن هذه الثورة و هذا التطور الهائل في مختلف مجالات الحياة قد خلف جملة من الآثار ولدت لدى الإنسان العربي المحافظ بطبعه على موروثه الثقافي و الحضاري و الروحي و الأخلاقي، نفورا منها فاتخذ موقفه الرافض لها، لا من حيث أنها حضارة تسهم في تطوير جوانب

كثيرة من حياة الإنسان و ترقيته، و لكن لما أفرزته مما يراه محالفا لقيمه الأخلاقية و الروحية،و هكذا << فلقد كانت مشكلة العرب مع المدينة الوافدة مشكلة خلقية عندهم التقدم الجوهري للحضارة تقدم أخلاقي،و العربي...ليس ضد المدينة بل هو كافح ضد المدنية الغربية بقدر ما هي لا تقيم للقيم الأخلاقية شدأنا كبيرا>>(1) وهذا الموقف يكاد يشبه إلى حد بعيدموقف الإنسان العربي القديم من المدينة في طور بداوته الأول . إلا أن هذا الموقف الرافض لم يكن ليستمر طويلا على الحدة نفسها التي عرف بها في أول صدام بين العرب و مظاهر المدينة الأوربية الحديثة، فعلى مستوى النظرة التفكيرية للمثقفين العرب، و فهمهم للظاهرة الحضاريةالغربية كانت << حركة الطهطاوي إلى المدينة ثورة على"الصومعة" و"الإنعزال" . بل قل ثورة من أجل الإنسان الذي يحيى من أجل الآخرين >>(2) فدعا الطهطاوي العرب إلى أن يحذوا حذو أوربا في مدنيتها ولكن دون أن ينسلخوا عن أصولهم و جذورهم الممتدة إلى حضارة عريقة وشامخة . لكن، يبدو أن هذه الدعوة لا تمثل إلا رد فعل يشوبه كثير من الإندهاش و الإنبهارمن منجزات الحضارة الأوربية زاد منهما عند الطهطاوي ما رأى عليه العرب من تخلف علمي و فكري و مدني و بغض النظر عن طبيعة هذه الدعوة فإنه يمكننا إعتبارها تطورا ملموسا في موقف الإنسان العربي -لا سيما المثقف- من الحضارة الغربية و المدنية الوافدة عليه من أوربا، بعدما كانت <<سمة التقبل العربي الأول للمدنية الأوربية في مطالع هذه النهضة...تتلخص في هذا الصراع المتوتر ما بين الأصولية السلفية و التكنولوجيا الغربية>>(3) إلا أنه لم يكتب لهذه الدعوة العموم، فقد ظل الموقفان المتناقضان من المدينة الحديثة يطبعان سلوك الإنسان العربي الذي تتجاذبه نزعتا : العودة إلى المنابع الأولى و تجديدها

(1).الإنسان وعالم المدينة في الشعر العربي الحديث -مناف منصور- ص16.

(2).المرجع السابق. ص37.

(3).المرجع السابق. ص39.

وإحيائها، أو الإقبال على الحياة الجديدة كما هي معيشة في أوربا، و قد عكس هذا التأرجح الشعراء العرب في العصر الحديث في مختلف مراحل الشعر العربي منذ عصر الإحياء و البعث إلى شعراء الحداثة و ما بعدها، و غالبا ما كان الفريق الرافض للمدنية من شعراء أية حقبة يعبر عن إحباط أمة و حضارة، وانهزام أجيال أمام الآخر الذي عرف كيف يستثمر ضعفها و يحوله إلى قوة في صفه، وهذا ينم عن معاناة نفسية داخلية بالأساس، منطلقها عقدة نقص و نكوص، و لذلك لم يتمكن الشاعر العربي الحديث من تكسير الحاجز الذي أقامه بينه و بين الأخر، بل ظل متشبثا بقوقعته التي كانت آخر ما ورث من عهد زاخر باد، حين فهم أن أساس المشكلة مع هذه المدينة الجديدة حضاري وأخلاقي أولا، ظل ذلك موقفه على الرغم من أنه كان يستفيد مما تقدمه إليه هذه المدينة من وسائل حديثة أكثر راحة و رفاهية مما لم يتح له من قبل إلا من الوسائل التقليدية، فقد أحس هذا الشاعر أنه لن ينتج ما يستعمل ولكنه يجده فيستهلكه و لذلك << تحدث شوقي عن مدينة وجدها لا عن مدينة صنعها >>(1) و لم يختلف موقف شعراء الجيل اللاحق بالرغم من بعض التقدم المدني الذي شهدته بعض البلاد العربية: فالمدينة الحديثة التي كانت وراء البحر أصبحت ماثلة بهياكلها وضجيجها وفوضاها أمام الشاعر العربي، في بيئته ذاتها التي ظل يحرص طوال الوقت على أن تبقى محافظة على عذريتها وصفائها، لكن هذه المدينة << العربية >> ذات الملامح الحديثة لم تكن لتختلف كثيرا عند الشاعر عن ذلك النموذج الأصلي الذي شكلت وفقه، و لذلك فإن الرفض ظل قائما، بل ربما زادت حدته لأن الفوضى التي كانت تشبع في مدن وراء البحر انتقلت إلى عمق الذات وحملت معها رذائلها، وهذا الشكل الجديد الذي اتخذته المدينة العربية حملت الشاعر من جديد على الهروب منها والبحث عن بديل

---

(1).المرجع السابق، ص38

لفوضاها و صخبها فوجده في الريف الذي مازال يحتفظ بفطرته الأولى <<ولقد اشتكى الرومانسيون من المدينة بظلمها و قسوتها، و تغنوا بالطبيعة، حيث البراءة والأحلام و الطفولة >>(1) ومن بين هؤلاء الشعراء الرومانسيين الذين لاذوا بالطبيعة ووجدوا فيها مرتعا لأحلامهم و مهربا واقيا من شرور المدينة جبران خليل جبران و إلياس أبو شبكة و أمين نخلة و سأكتفي هنا بإشارة خاطفة إلى صورة المدينة عند جبران خليل جبران ، فموقفه منها موقف الغريب في بيئة لم يستطع أن يألفها << أنا غريب في هذه المدينة و غريب في كل مدينة أخرى>>(2) و لعل سبب هذه الغربة ما وجد في المدينة من مظاهر الزيف إذ <<تقطن الخيانة بجانب الرياء >> و بناياتها << مغور يختبىء فيها الذل والشقاء والتعاسة >> و لم تعد سوى << قبور تعسة يتوارى فيها مكر المرأة الضعيفة وراء كحل العيون وإحمرار الشفاه و تحجب في زواياها أنانية الرجل و حيوانيته بلمعان الفضة و الذهب >>(3)، ومن أجل ذلك ترك المدينة << لأنني وجدتها شجرة مسنة فاسدة قوية >>(4) و قد وجد جبران خلاصة من هذه المدينة في الريف حيث يحلو له أن يخاطب الطبيعة مصدر النقاء و الكمال الذي تحاول المدينة أن تقضي عليه بإغرائها و زيفها، و هنا، في بيئة الطفولة و الحلم لا يجد الشاعر حواجز تصده، فله أن يتحدث إلى ما شاء، كمخاطبته الريح << أنت تحملين من أزقة المدينة أنفاس العلل و من الروابي أرواح الأزهار >>(5)، وكان هذا موقف جل الشعراء الرومانسيين في تلك الحقبة، بل واستمر شعور الشاعر العربي بالإغتراب في عالم المدينة مع شعراء الحداثة في المرحلة اللاحقة، كانت المدينة بالنسبة إلى شاعر كالسياب...

<<...وحشا من حديد، من حجار سيف الحياة فلا حياة من المساء إلى النار أين

---

(1). أسئلة الكتابة النقدية. ص81.

(2). الرواح المتمردة عن الإنسان وعالم المدينة في الشعر العربي الحديث- ص 43.

(3). المرجع السابق. ص42.

(4). المرجع السابق. ص43.

(5). المرجع السابق. ص44.

العراق؟ أو أين أصداء الغناء؟ >>(1).

و لعل مبعث صدمة السياب من المدينة أنه لم يجد فيها ذلك الوجه البريء الطفولي الذي عايشه طوال حياته في القرية، وجدها عالما من سراب وأوهام، تمتلىء بناءا و عمرانا و قصورا ودورا للزنى و سجونا، لكنها خاوية من كل قيمة إنسانية فهي << مرفوضة لأنها ليست مفروزا ريفيا >>(2)، وهذا الموقف ذاته انعكس في شعر البياتي و أدونيس، حيث يريان المدينة متوحشة فتاكة، تنعدم فيها القيم، وتمتلىء زيفا و نفاقا، و إن كان موقف الأول منهما موقف شاعر- بكل أبعاد هذه الكلمة - من عالم جديد يمثل صورة مناقضة لعالم النشأة الأولى -القرية- فإن موقف الثاني يرتكز على خلفية حضارية، فرفض المدينة عند أدونيس على صورتها هذه إنما هو رفض لواقع مجتمع و بلد وأمة تتغير بتغير المستجدات ومظاهر المدينة التي لا تنتجها بقدر ما تتلقفها معصوبة العينين، ومن هذا الإدراك العميق للعلاقة بين المدينة و بعدها الحضاري، تتخذ المدينة أشكالا عند السياب، فهي ذات شعرية و حضارية و تاريخية و إنسانية تارة، و هي إمرأة مومس تستسلم لكل قادم تارة أخرى، لكنها ليست أبدا تلك المدينة الحلم التي قضى أدونيس زمنا في البحث عنها، و هو بحث عن مدينة ينبغي أن توجد على النحو الذي تشكله لها مخيلته المبنية على أسس ثقافية و فكرية و حضارية معينة، لكن هل وجد هؤلاء الشعراء مدينتهم؟ هل أفلح موقف الرفض هذا في وضع حد لزحف المدينة واستيلائها كل تلك البراءة و العذرية اللتين يحملهما كل ذي منبت ريفي؟ إن وعي الشاعر العربي يظل أبدا معلقا بالبادية، بالقرية، بالريف، بالأصل- الصحراء، و من هنا يتضح أن موقف شعراء العرب في الزمن الحاضر

---

(1).من قصيدة -وصية من محتضر- الديوان. ص281.

(2).الإنسان وعالم المدينة في الشعر العربي الحديث. ص59.

لا يختلف عن أول شاعر في الزمن القديم، ألا يكون موقف السياب أو أدونيس هذا من المدينة هو ذاته موقف الشنفرى؟ و إذا كان الأمر كذلك فإنه يحق لنا أن نتساءل : ما هي طبيعة الإنسان العربي؟ ما هو هذا السر الكامن وراء تشبثه بالبيئة الريفية؟ هل يمكن القول أنه شهد تطورا في فكره و وجدانه ؟.

و في الرواية العربية تشكل المدينة حيزا كبيرا للأحداث، ولأن الروائي يمتلك فرصا أكبر من الشاعر لتحركه في مجال فني أرحب و أوسع من مجال القصيدة، فإنه استطاع أن يكشف عن كثير من التناقضات التي يمتلىء بها عالم المدينة، فيعرى زيفها، و يعبر عن ضياع الإنسان فيها و غربته، و صراعه مع هذا العالم الجديد الذي يجد نفسه رهينه، و تصارع الطبقات الإجتماعية، ومستويات معيشتها المتفاوتة، و قد استطاعت الرواية العربية التي اقتحمت عالم المدينة في فترة مبكرة من ظهورها، أن تسجل مختلف مراحل التطور التي عرفتها بعض المجتمعات العربية منذالعقد الثالث من هذا القرن، و قد وجد فيها الروائيون مجالا خصبا لتصوير تلك المعاناة التي حملها الشعراء على نحو من التفصيل والتحليل، ويتبلور موقف الروائيين العرب من المدينة الأولى – مدينة الآخر، حين أتيح للروائي أن يراها فتنطبع في ذهنه على تلك الشاكلة التي انطبعت بها في ذهن الطهطاوي من قبل، فتغدو << باريس >> بلدا للجن و الملائكة، و مثالا يدعو طه حسين العرب و المصريين إلى أن يحذو حذوه، و تعكس رواية <<عصفور من الشرق>> لتوفيق الحكيم هذه الدهشة، لكن مع شيء من التعلق بالروح الشرقية التي ينبغي أن تشكل الجوهر الثابت في كل عملية انتقال نحو التمدن الغربي وتمارس بحضارته، كان ذلك في فترة لم تنم فيها المدينة العربية على القدر الذي نمت المدينة الأوربية، و مع نضج الرواية العربية في الثلاثينيات من هذا القرن وتنامي المدنية العربية في مصر والشام خاصة، و احتكاك المثقفين العرب ببيئة المدينة و وقوفهم على ما تزخر به من تناقضات، مع ذلك كله أصبحت

المدينةمكانا هاما لإحداث كثير من النتاج الروائي العربي الذي مثله كما و نوعا الكاتب المصري نجيب محفوظ، و قد كانت القاهرة كثيرة الحضور، دائمة في روايات نجيب محفوظ، حتى لأنها حضرت فيها بأحيائها الشعبية و التاريخية والبرجوازية، و بآثارها و مقاهيها و دورها << و رغم أن عددا كبيرا من أشخاص محفوظ هم من أصل ريفي أمثال رؤوف علوان و نور وعثمان خليل وعمر الحمزاوي، فإن الأحداث تدور كلها في المدينة باستثناء الأحداث التي وقعت في نهاية << الشحاذ >> و هذه المدينة هي القاهرة مع ظهور وجيز للأسكندرية في << الشحاذ >> و << الطريق >>، وهي ظاهرة ثابتة في أدب نجيب محفوظ الذي يعتبر بحق أديب القاهرة أو مؤرخها الفني >>(1).

و منذ الخمسينيات لم تعد المدينة مجرد مكان لأحداث، بل إنها تحولت إلى <<موضوع >> خاصة مع تنامي العوامل الداخلية و الخارجية التي كان لها أكبر تأثير على المدينة العربية في تلك الحقبة، فمن الناحية الإجتماعية عرفت هجرات هائلة من الأرياف نحو المدن، وقد نتج عن ذلك مظاهر كثيرة و مشكلات نفسية واجتماعية << فعندما يفشل القادم إلى المدينة في توفير المسكن الملائم، فإنه يجد نفسه في النهاية مقذوفا بين أحيائها المتداعية وعلى أطرافها وعمرانها.

و يشكل النقص الدائم في المساكن في المدينة العربية إحدى جوانب الأزمات البيئية الملحة...>>(2) كما تقل فرص العمل مما يجبر الكثير على القيام بأعمال طفيلية و أخرى لا تقبلها بنية المجتمع العربي الإسلامي المحافظ كالتجارة بالأعراض أو الأعضاء البشرية، و السرقة والإختلاس، و كل ذلك استغله الروائي العربي في المدينة و صوره على أنه ظاهرة اجتماعية و مرض فتاك، و من ناحية أخرى أصبحت المدينة ملتقى التيارات الفكرية و الفلسفات العالمية الواردة

---

(1).دراسات في روايات نجيب محفوظ الذهنية -مصطفى التواتي- -الدار التونسية للنشر- -المؤسسة الوطنية للكتاب- 1986. ص85.

(2). أزمة المدينة العربية، ص12.

إليها من جهات مختلفة من العالم، و قد شكل هذا الإختلاف صراعا فكريا توازى مع الصراع الإجتماعي الطبقي الذي ساد المجتمع العربي في المدينة، ولعل هذا ما عمل على تطوير تصور الروائيين العرب للمدينة و الإنتقال بها من مجرد مكان إلى موضوع خصب لا يقل في أهميته عن تلك الموضوعات الفلسفية التي شغلت الفكر الإنساني على امتداد قرون من الزمن. و<< فلسفة المدينة بهذا>> ليست إلا وجها من ثنائية الرفض والقبول التي تطبع موقف الإنسان العربي من المدينة منذ القدم، واستمرارية هذا الموقف على هذا النحو يقف وراءه خلفية سيكولوجية هامة تصنع الحاجز الكبير بين المثقف العربي والمدينة، ولا ندري بعد: بم هو مشروط تحطم هذا الحاجز؟ أم أن ذلك من أسس بنية العقل العربي؟ وعلى العموم فإن المدينة ظلت في وجدان الشاعر والكاتب العربيين على حد تعبير شبنجلر <<حشدا يدمر كل شيء وفي النهاية تغرق المدينة موتا في آثامها>> لأن <<مولد المدينة يحمل في نفس الوقت علامة موتها >>(1).

(1). علم الإجتماع الحضري .ص103-104.

الفصل الأول

ملامح المدينة في الرواية الجزائرية العربية

لم تكن المدينة – حيزا و موضوعا – مما يشغل كثيرا بال الكاتب عبد الحميد بن هدوقة قبل روايته << بان الصبح >> ففي روايتيه <<ريح الجنوب>> و<<نهاية الأمس >> شكل الريف الحيز الواسع لأحداث الروايتين، وفيه برز ذلك << الصراع العنيد بين مخلفات الماضي و مستجدات الحاضر بين قيم عتيقة وقيم جديدة، بين أنماط تقليدية ريفية وأنماط حياتية عصرية>>(1) وتصور الرواية الأولى جانبا من المعضلات التي شهدها الريف الجزائري في فترة ما بعد الإستقلال حين تمكنت فئة من البرجوازية الفلاحية التي خلفت << الإقطاعيين >> الفرنسيين من الإستحواذ على الأراضي و التمسك بها و الحرص عليها بما تملك من وسائل، وفي أثناء ذلك يبرز حلم الفئات المحرومة المنسية و محاولتها إجتياز الخطوط الحمراء التي رسمها السادة حدودا فاصلة بين طبقتين، و تبرز أيضا محاولة تكسير هذا الواقع من قبل جيل مثقف إحتك بالمدينة، و إن كان ريفي المنبت، وعمل بما أتيح له أن يتعلم، على مقاومة ما يريد أن يفرضه أرباب الأراضي والوقوف في وجوههم –ولو كانوا ذوي قربى–، والوجه الآخر لهذه المقاومة والرفض الذي تحمل لواءه شخصية << نفسية>> يبرز واقعا آخر مزريا، هو واقع المرأة ومعاناتها في الريف حيث لا زال الإنسان هناك يحكم بمنطق العادات التي لم تعد تتماشى ومنطق الوعي الجديد المتمخض عن التفتح على عالم المدينة الزاخر بالحياة << العصرية >>، وهكذا تفلح المدينة في ما لم يفلح فيه الريف، تتحطم أحلام البورجوازية الفلاحية أمام إصرار المدينة على مقاومة إرث الماضي، سليل زمن الإستعمار والعبودية؟ ولئن كانت حركة التغيير داخلية في هذه الرواية، بمعنى أن << نفيسة >> جزء من مجتمع القرية فإننا نجد حركة من نوع آخر في الرواية الثانية << نهاية الأمس >>، إذ يأتي

---

(1).مدخل إلى عالم الرواية الجزائرية –شايف عكاشة– ديوان المطبوعات الجامعية –الجزائر– 1990. ص9

التغيير الذي يطمح إليه الكاتب من خارج القرية، مـن البشـير، المعلـم الـذي يكلـف بالعمل في قرية نائية، يأتيها حـاملا معـه حلـم تغييرهـا، ويصـر، علـى الرغـم ممـا يلاحقه من متاعب، على استكمال حلمه و تبديـل القريـة وجهـا جديدا يـزرع قيمـة العمل أساسا أول لكل خطوة نحو الأمام، و الريف في هـذه الروايـة يغطـي حيزا كبيرا منها فهو إن لم يغطها كلها، فإنه يبقى صورة أخرى لتخلف الذهنيات ورفض كل وافد غريب جديد على هذه البيئة، التـي لـم تسـتطع أن تفتحهـا الأفكـار القادمـة إليها، وأصرت على إنغلاقها، و هو وجه آخر من وجوه المقاومـة. إن البشـير فـي الرواية لا يقاوم إنما يحطم ما وجده قائما من أفكار وعادات، وهو في هذه الحركـة يتقاطع في جوانب مع سلوك << نفيسة >> في روايـة << ريح الجنوب>> لكن آثار التعلق بالمدينة وتأثيرها على أفكار << البشير>> وسلوكه، لم تكن أوضح مما نجده في سلوك << نفيسة >> وأفكارها. وحتى إن أفلحت المدينة في التأثير على واقع الريف ولو برفضه على صورته التي عاشتها <<نفيسة>>، فإن علاقتها به تبقى بعيدة، وبالأحرى فإن مسافة التمـــاس بيـن الكـاتب والمدينـة تظـل بعيدة، فالكاتب لم يلج بعد هذا العالم المنغلق والمفتوح في الوقت نفسه على أسـرار كثيرة تقف وراء تلك الأحلام التـي تهيـج بهـا عقـول الريفييـن، وتبقـى المدينـة فـي هاتين الروايتين طيفا يلوح من بعيد، كخلفية لصورة تجسد منظرا ما.

I حضور المدينة في الرواية الجزائرية:

1 – ملامح المدينة عند ابن هدوقة:

وتتقلص مسافة التماس في رواية << بان الصبح >> (1) لتصـير المدينـة وحدهـا مسرح الأحـداث، و تتحـدد ملامـح المدينـة فـي هـذه الروايـة مـن خــلال الإشارات الكثيرة إلى أحيائها و شوارعها وساحاتها، حيث تغني هذه الأجزاء عـن

(1) بان الصبح –عبد الحميد بن هدوقة– المؤسسة الوطنية للكتاب –الطبعة الثانية– 1984

ذكر اسم المدينة << وقفت دليلة في مفترق الطرق بين << حسد ين داي>> و<<القبة >>(1) << وكانا حينئذ قد وصلا إلى الجسر الرابط بين حيدرة والجهة المطلة على البحر من المدينة >>(2) << في الوقت الذي كانت دليلة متوجهة إلى الكلية، تفكر فيما دار بينها و بين الرجل من كلام، كان أبوها الشيخ علاوة واقفا بساحة الشهداء ينتظر الحافلة >>(3)، << نزلت إلى القصبة لتتفقد الغرفة التي اكترتها، و لتتعرف أكثرعلى الجو الذي ستحيا فيه عما قريب. كانت سالكة نهجا ضيقا من باحة جامع كتشاوة إلى اعالي هذه المدينة القديمة الغامضة>>(4) وهذه الأمكنة الواردة في هذه المواضع من اللرواية، وأمكنة أخرى وردت في غيرها تشير إلى مدينة الجزائر العاصمة، مع ظهوروجيز لمدينة تيزي وزو << ثم بعد سلوك بضعة أنهج في مدينة تيزي وزو تقف السيارة أمام بناية>>(5)، هي المدينة التي تحتضن أحداث الرواية التي تصنعها شخصيات تناقضت إتجاهاتها وأفكارها و تباينت مستوياتها الإجتماعية وسلوكاتها ومواقفها، وأحلامها في بحر هذه المدينة الكبيرة المزدانة بالمظاهر المختلفة تماما عن مظاهر القرية الصغيرة أو الريف.. لكن ابن هدوقة لا يقدم لنا مدينة الجزائر على أنها مجرد مدينة ومكان لأحداث زاخر بالأزقة والشوارع و الأحياء والبنايات، إنما يقدمها لنا واقعا اجتماعيا وسياسيا مرا، حياة صعبة يشتد فيها المراس ويضيع من لا يمتلك قدرا هائلا من الصمود والمقاومة، وتلك مظاهر المدينة المعاصرة حيث يبدو الفرد بقيمه الريفية ومثاليته ذرة تائهة في عاصفة هوجاء، فمدينة التناقضات هذه، لا تعترف بالأعذار، فمن الناحية الإجتماعية يقدم لنا الكاتب مدينة الفوضى والإكتظاظ السكاني نتيجة:

1- كثرة الوافدين إليها من الريف.

---

(1) بان الصبح. ص10

(2).المصدر السابق. ص14

(3).المصدر السابق. ص19

(4).المصدر السابق. ص295

(5).المصدر السابق. ص319

2- النمو الديمغرافي الهائل.

<< فالشقق و الفيلات لا تتسع لإيواء كل أفراد سكانها إيواءا معقولا. ذلك أن معظم السكان من النازحين إلى المدينة في سنوات الإستقلال الأولى >>(1).

وقد جرت هذه الوضعية المدينة إلى حالة صعبة من الإزدحام في الشوارع والمساكن والأحياء والمحطات والحافلات << الحافلة تمخض الناس مخضا لا تشفق على كبير ولا ترفق بعاجز. الأقدام تدوس الأقدام و الأجسام تضغط على الأجسام . الركاب يترنحون كالسكارى>> (2) << ثم أن النهج لا يعمره ساكنوه فقط إنه ككل الأحياء الأخرى تحرسه عمارات مجاورة، تقيم بين طياتها مئات الشقق . أين يذهب أطفال هذه العمارات إذا لم يكن إلى الأنهج المجاورة >>(3). وقد دفعت هذه الحالة من الضيق والإكتظاظ والإزدحام إلى التصرف في الوجه العمراني لبعض المساكن، مما أثر على الذوق والمسحة الجمالية التي تطبع مدينة الجزائر العاصمة، وتعتبر << دار الشيخ علاوة نفسها خير دليل على هذا الواقع، فهو عندما سكن هنا بأسرته كانت في فيلا أرضية ثم كبر الأبناء. فأخذوا يستقلون بالغرف فبنى الشيخ علاوة دورا إضافيا ولو على حساب الذوق المعماري. ثم لما ولد لبعض أولاده، بنى دورا ثانيا وهو يفكر في دور ثالث..>>(4).

أما على مستوى العلاقات الإجتماعية فيرسم لنا الكاتب مجتمعا متفككا من خلال أسرة << الشيخ علاوة >> حيث الروابط الأسرية هشة نتيجة تحكم الرأي الواحد وانتشار أحادية الرؤية والتسلط و تحكم رب الأسرة في سلوك الأبناء وأعمالهم، وقد قاد ذلك إلى ضغط عنيف انفجر في صدر << دليلة >> الرافضة دائما لهذا النوع من العلاقات الذي لا يقام على أساس من حرية التصرف

(1).المصدر السابق. ص114

(2).المصدر السابق. ص26

(3).المصدر السابق. ص115

(4).المصدر السابق. ص114

والإختيار – كما تراها –، وقد غلب على هذه العلاقات طابع المحافظة والتقليد، فالشيخ علاوة يسعى إلى أن تظل صورته في أعين المجتمع الذي يعرفه ويحيط به تلك الصورة الصلبة لرجل وقور محافظ على تقاليده الريفية، فخور باستسلام الكل له وطاعته فيما يأمر، وهو شكل آخر من أشكال الضغط الذي ترفضه روح دليلة المشبعة بمباديء التحرر والإنعتاق، وقد حاولت مقاومة ذلك سرا وعلنا، كانت تعلن رفضها قولا، وتجسده فعلا من خلال علاقاتها بكريمو ابن عبد الجليل، وانتهى بها هذا الرفض إلى موقف لم تكن تتوقعه. وتحاول الرواية من هذا أيضا التلميح إلى وضعية المرأة من خلال نماذج مختلفة لشخصياتها النسوية، ويحصل في آخر الأمر أن المرأة في هذه المدينةِ ضحية الوضع الإجتماعي القائم، تواجه معضلات جمة في البيت وفي الشارع، ومن خلال علاقاتها مع أطراف المجتمع، وللمدينة بما تحمل من ضغوطها وتناقضاتها تأثير كبير على تكوين شخصية المرأة وسلوكها، فهي واقعة بين ضغط الأسرة من جهة الحريصة على قيمها وضغط المجتمع الذي يبدي موقفا حذرا ورافضا تجاه ما يطلق عليه << تحرر المرأة>>. وقد أسهم في هذا الضغط حتى بعض من يتشدق بالدفاع عن هذا المبدأ، إذ أن تورط كريمو وكونه المسؤول عما وصلت إليه حالة <<دليلة>> لخير مثال على ذلك النفاق الذي يبديه دعاة <<تحرر المرأة >> من الرجال .ذلك أنهم في نهاية المطاف لا تتعدى نظرتهم إليها حدود الجسد والمتعة دون التفكير في مصيرها بعد ذلك وصورتها في نظر مجتمع لا يلتمس عذرا لمخطيء.. ويعزز الكاتب صورة المرأة –الضحية هذه من خلال ما وقع لنعيمة التي راودها عن نفسها ابن عمها << عمر >> ثم اتهمها بما أزمع هو على الإقدام عليه حين خاف أن يكشف أمره فيفضح أمام زوجته و أبيه الذي كان يُرى فيه مثال

الإستقامة والرجولة والشهامة، وتذهب <<نعيمة >> ابنة الريف ضحية هذه التهمة مما يضطرها إلى مغادرة المدينة الكبيرة الجزائر والعودة إلى قريتها، لتنتزع براءتها من تهمة الزنى و الحمل التي رميت بها خطأ من مدينة تيزي وزو حيث الطبيب الذي شهد على براءتها .. وتبقى المدينة مصدرا للشرور والزيف في علاقات الناس بعضهم ببعض << وعلى المستوى الشخصي نلاحظ أن علاقات بين الأفراد في المناطق الحضارية تميل إلى أن تكون ثانوية، وانقسامسة ونفعية أكثر من كونها أولية وتكاملية وعاطفية على نحو ما هو سائد في البناء الإجتماعي التقليدي>>(1).

و من زاوية أخرى تصور الرواية التباين الإجتماعي في مستوى المعيشة والحياة في أوساط مختلفة من مجتمع مدينة الجزائر في تلك الحقبة، فإذا كانت البورجوازية قد تمكنت من ترسيخ وجودها في هذا المجتمع وعملت على تكبير صورتها في نظر الآخرين بما تملك من وسائل التفوق المادي والمعنوي -تظهر وراءها بورجوازية صغيرة تحذو حذوها و تتطلع إلى بلوغ مكانتها، وتمثل البورجوازية الأولى أسرة ابن عبد الجليل الثرية بينما تمثل تلك البورجوازية الصاعدة التواقة أسرة الشيخ علاوة التي تحاول التخلص من رواسب الماضي والذهنية الريفية التي جاءت بها، ولإنعدام التكافؤ بين الأسرتين فإن مرحلة الصراع بين الفئتين لما تحن، ولذلك فالكاتب لا يرصد في الرواية لصراع طبقي ظاهر لعدم إكمال الطرف الطموح لكامل عدته وأسلحته بعد. وفي خضم هذا الواقع الإجتماعي تبرز بعض المواقف السياسية التي توحي بطبيعة المرحلة التي عاشها مجتمع مدينة الجزائر آنذاك. فنتيجة للخطاب السياسي المشحون بالإيديولوجية والشعارات التي تفتح في أذهان الشباب أبوابا للحلم، ظهرت على

---

(1). دراسات في علم الإجتماع الريفي والحضري -مجموعة من الأساتذة عنهم د.محمد الجوهري-د.محمد علي محمد -الطبعة الثالثة- دار الكتاب للتوزيع -القاهرة 1979- ص107

مستوى الفيئات الإجتماعية الدنيا بوادر لتمثل هذا الخطاب و الدعوة باسم تلك الشعارات ومثل هذه الفئة رضا أحد أبناء الشيخ علاوة الذي بدأ أكثر من في البيت استيعابا لإيديولوجيا السلطة وتشجيعا للخطوات التي كانت تزمع القيام بها في أوساط المجتمع، وقد ظهر ذلك في تحليله للواقع المحيط به انطلاقا من البيت، واقع المجتمع الذي يعيش فيه، واستطاع بفضل هذه الأفكار أن يكسب في صفه ابنة عمه << نعيمة >> ويصطحبها لحضور الإجتماع الذي عقد بإحدى مدارس الحي لإثراء الميثاق الوطني. وفي مقابل هذا التمثل والوعي السياسي يقف موقف آخر مضاد يتبناه الشيخ علاوة ذاته، لكنه لا يواجه به ابنه رضا، إنما يبديه في الإجتماع الذي انعقد في موضع آخر في الموضوع نفسه، ويواجه به شابا <<يرد على من زعم أن لا تعارض بين الإسلام والإشتراكية، قال: هل نتأخر بالإشتراكية أربعة عشر قرنا إلى الوراء أو نتقدم بالإسلام أربعة عشر قرنا إلى الأمام>>(1).

<< كاد الشيخ علاوة ينفجر وهو يسمع هذا المنطق الغريب كانت هي الكلمة التي أفاضت الكأس فخرج وهو يتمثل في حزن في بيت من الشعر القديم للغزالي>>(1) وقد أفرز هذا التصادم في الرأي السياسي: رأيا متحمسا للميثاق مدافعا عنه، ورأيا رافضا له داعيا إلى التشبث بالجذور، أفرز واقعا آخر من التفكك والمواجهة بين جيلين في المدينة: جيل قديم آيل إلى الزوال وجيل صاعد يبحث له عن مكان ما وموضع مناسب للتغير الفكري و الإجتماعي الذي حدث في ظل المرحلة السياسية السائدة وقتها.

(1). بان الصبح: ص20.

و في رواية << بان الصبح >> لم يغب العمق التاريخي لمدينة الجزائر، فهي مدينة << صمدت للغزو وعاشت مختلف الحضارات والتجارب الإنسانية فأخذت وأعطت وبقيت شامخة عظيمة>>(2) لكن الذي لا يزال ينكر هذا البعد للمدينة، هو ذلك الجيل الآيل إلى الزوال الذي يعمل الجيل الصاعد علىإسقاطه، وكأنما تاريخ المدينة قد ينتهي في ذاكرة ذلك الجيل لأن المدينة لا تحضر في غير ذهن الشيخ علاوة، إلا بصورتها البادية في الحاضر، مدينة كبيرة بشوارع وبنايات وبحر وسيارات وأدخنة في النهار، و مدينة بأضواء كثيرة في الليل، لكن هذا الجيل الصاعد لا يذكر شيئا من تاريخ المدينة، لا دليلة ولا رضا ولاعمر ولا نصيرة يتحدثون عن هذا البعد المهم في تاريخ المدينة لأنهم في حقيقة الأمر لا يعيشون في المدينة بوعيهم كاملا، وإنما يعيشون بما تقتضي ظروفهم فيها...فإدراك أبعاد المكان الذي نحيا فيه يعني البحث عن الحياة بوعي، وهم لا يسعون إلى تمثيل هذا الوعي على النحو الذي يجعل حياتهم في المدينة ذات معنى، ولعلها قطيعة مع الزمن والتاريخ، ولعله جيل قطيعة، لا يهمه من الحياة إلا ما يجد أمامه.

وبالإضافة إلى هذه القضايا الإجتماعية الهامة التي تثيرها الرواية في حيز واسع ومعقد كمدينة الجزائر، لم تغب جوانب أخرى كالمسألة الثقافية والعادات والتقاليد التي لا تزال بعض الأسر العريقة تتشبث بها على الرغم من زحف الطابع المدني العصري الوافد إلى المدينة من وراء البحر، والموروث من زمن الإستعمار.

وفي روايته الأخيرة <<غدا يوم جديد>> (2) تظهر المدينة بوجوه متعددة تستمد ملامحها من صورتين مختلفتين أولاهما للحاضر والأخرى للماضي.

---

(1).المصدر السابق: ص27.

(2).غدا يوم جديد –عبد الحميد بن هدوقة– منشورات الأندلس –الجزائر– 1992

وعنصر الزمان مهم جدا في الرواية من خلال علاقتها بالمدينة. وعبد الحميد بن هدوقة يحبذ أن يعين المدينة التي تحتضن أحداث روايته بإسمها، لكنه لا يخرج هذه المرة أيضا عن إطار مدينة الجزائر، مع ظهور وجيز أيضا لمدينة أخرى من الشرق وهي قسنطينة. لكن صورة المدينة حاضرا لا تختلف عن تلك التي رسمها في روايته السابقة << بان الصبح >> من حيث ما يتعرض إليه من مشكلات الإنسان في المدينة، ويبدو أن التحول الإجتماعي للمدينة لم يكن على قدر عظيم من الأهمية بحيث يفضي إلى تغيير بعض من ملامحها والتخفيف من بعض معضلات الإنسان فيها، << الذي يغار لا يركب القطار ولا يسكن المدينة. المدينة كلها رجال، كل شيء ملتصق ببعضه في المدينة، الناس فيها زحام دائم كيوم القيامة أو كالطواف حول <<الكعبة>>(1)، فلا تزال المدينة بعد أكثر من عشر سنوات على حالتها تلك، وربما زاد ازدحام الناس فيها لإزدياد أعدادهم وقلة فرص السكن والعمل، وأهمية الزمن في الرواية تكمن في أنها ترصد لصورة المدينة في الماضي حيث كانت مدينة أوربية إذ << كانت مدينة الجزائر غداة الإستقلال تبدو وكأنما من نوع مدينة استعمارية >>(2) وكانت في ذهن من يقيم بعيدا عنها من أهل الأرياف والقرى حلما صعب المنال، لا يحققه إلا ذو حظ عظيم، وقد عشش هذا الحلم على وجه الخصوص في أذهان فتيات القرية فكن يترقبن فارسا ما يحملهن إليها، و كانت << مسعودة >> من ذوات الحظ القليلات اللائي كتب لهن أن يرحلن إلى مدينة الجزائر << زوج أمي أرغم قدورا على خطبتي، وأرغم أمي على الموافقة، أنا فرحت، حلمي كان إسمه حينئذ المدينة>>(3) وقد انفتحت لها أبواب السعادة حين وطأت المدينة ورأتها عن قرب، لكن الحالم بالمدينة سرعان ما يصطدم بزيفها حين يقف على حقيقة العيش

(1). المصدر السابق: ص48.

(2). المخطط التوجيهي العام لمدينة الجزائر -رئاسة مجلس الوزراء- كوميدور. ص9.

(3). غدا يوم جديد: ص48.

فيها، فلم يكن للجزائريين آنذاك من فرص الحياة القدر المتكافىء مع ما كان للأوربيين، وكانت هذه الفوارق تبدأ من المسكن ذاته، فبينما كان للأوربيين أحياء لا يسمح للعرب بأن يشاركوهم فيها، نجد هؤلاء وقد انزووا في أحياء قديمة فقيرة تفتقد إلى كثير من ظروف الحياة المعاصرة التي يتمتع بها الأوربيون وحدهم، والمدينة إلى ذلك، كانت تمتلىءبالمظاهر الأوربية من عادات ولغة وثقافة وعمران غيرت وجه المدينة القديم، ولعل هذا مما حمل على إصرار البعض على النفور منها واعتبارها -في ذلك الوقت- مكانا للفساد والإنحلال، فأم مسعودة تحذر ابنتها من المدينة << إياك أن يفترسك الرجال في المدينة >>(1)، وهي في ذهن الحاج أحمد معول لتهديم كل القيم النظيفة التي نشأ عليها جيله وأبناء ملته <<في المدينة لا يفصل بين الحلال والحرام إلا الدين والضمير، والناس باعوا دينهم وباعوا ضمائرهم، باعوها لأمهم فرنسا حتى صار الحلال والحرام زوجين شرعيين أو جارين ..بجانب كل مسجد كنيسة بجانب الحارة خمارة بجانب المقبرة ثكنة، بجانب المدرسة دار للدعارة أو للتجارة...>>(2) وسرعان ما يستفيق الحالم من حلمه ليفتح عينيه بعد تجربة قاسية على الحقيقة التي يدركها حين كان شابا يهفو قلبه إلى المدينة، فإذا بالحلم كابوس، فمسعودة ذاتها التي كانت ترى في المدينة خلاصا لها من حياة القرية الشقية تقف أخيرا بعد أن صارت عجوزا على زيف المدينة وتعترف بأن << المدينة التي حلمت بها لم تكن سوى زيف. ما اخترعه أهلها لم يسعدهم إنما زاد في شقائهم وضعوا الأغلال في أعناقهم وسموها قوانين، قتلوا الأطفال قبل أن يولدوا بإسم التوازن السكاني... المدينة ليست حلما، إنها كابوس، أضواؤها كلها اصطناعية زائفة، كل ما فيها مجند لإغتيال الأحلام>>(3).

---

(1).المصدر السابق: ص48.

(2).نفسه.

(3).غدا يوم جديد: ص206.

للتقنية المستعملة في استحضار الصور من الماضي وربطها بالحاضر والتداخل الزمني والحدثي أكبر تأثير على << إهمال >> المكان دورا فاعلا في تقييد حركات الشخصيات وتأطير الأحداث.

والأهم من ذلك في هذه الرواية حضور الوعي بالزمن، واتخاذه وسيلة ناجعة للكشف عن حركية الزمن التي لم يتبعها تحول كبير في حياة الإنسان الجزائري في مدينة الجزائر وهذا ما عبر عنه الشيخ علاوة في رواية <<حبان الصبح>> من خلال التساؤلات التي كان يثيرها بينه وبين نفسه: <<هل الجزائر هي التي تغيرت أم الزمان؟ أو هو؟ الشيخ علاوة لا يتغير، كل المتغيرات التي عاشها لم تؤثر عليه... المدينة لم تتغير... إن الذي تغير إذن هو الزمان كان يجري والشيخ علاوة واقف ينظر إليه >>(1).

2 -ملامح المدينة عند الطاهر وطار:

وفي رواية << الزلزال >> (2) للطاهر وطار يكون لمدينة قسنطينة وجود قوي، إذ تشكل غاية الكاتب وغاية شخصيته الرئيسية: << عبد المجيد بوالأرواح>> فهي غاية الكاتب لأنها أول رواية له يدير أحداثها في المدينة فيلجها ولوج المكتشف المتقصي لدروبها وشوارعها وجسورها، وغاية <<ب والأرواح>> لأنه يعود إليها بعد غياب طويل عسى أن يجد فيها ورثة من أقاربه يكتب لهم أسهما من أرضه التي تزمع الحكومة أخذها منه و توزيعها على الفلاحين، ومدينة قسنطينة في هذه الرواية مصورة بظاهرها المادي من مباني ومقاه ومطاعم وشوارع وساحات و مساجد وبباطنها حيث يكون للتاريخ والماضي دور شاهد على التغير الذي أصاب ملامحها وملامح الناس وعاداتهم من منظور عبد المجيد بوالأرواح. و<< من خلال تتبعنا للأحداث نشعر وكأننا نتجول في شوارع قسنطينة المزدحمة بالمشاة والسيارات والعربات المتجولة والبنايات التي تتدرج

(1)حبان الصبح: ص27.

(2).الزلزال -الطاهر وطار- الطبعة الثالثة -الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر- 1980.

واحدة تلو الأخرى من مطاعم و مساجد و مقاه وحوانيت المواد الغذائية وحوانيت الحلويات والشواء والخضر وغيرها...>>(1).

و قسنطينة، كما يتبين من تاريخها، مدينة عريقة، تعاقبت عليها مختلف الحضارات والأمم التي هيء لها أن تقوم في شمال إفريقية منذ القديم، وقد وصفها الرحالة العرب والأوربيون في كتبهم و قد ذكرها ياقوت الحموي في معجمه <<وهي قلعة كبيرة جدا حصينة عالية لا يصلها الطير إلا بجهد، وهي من حدود أفريقية مما يلي المغرب، لها طريق وإتصال بآكام متناسقة جنوبيها تمتد منخفضة حتى تساوى الأرض وحولها مزارع كثيرة..>>(2).

وذكرها أيضا ابن سعيد في قوله: <<و لها نهر في خندقها العظيم الشرقي يسمع له دوي هائل دائر على المدينة في قعر الخندق مثل ذؤابة النجم لبعد المسافة>>(3)، ومن الأوربيين الذين تحدثوا عن قسنطينة ووصفوها وصفا دقيقا الألماني فندلين شلوصل الذي وفد ضمن الجيوش الفرنسية التي قدمت إلى الجزائر عقب احتلال فرنسا لمدينة الجزائر منذ عام 1830م، ثم وقع أسيرا وحمل إلى قسنطينة أيام أحمد باي، فيصفها في كتابه الذي وضعه بعد عودته إلى بلاده بقوله << تقع مدينة قسنطينة....فوق صخور وعرة، تحيط بها ثلاثة أرباعها، وفي سفح هذه الصخور يسيل نهر عرضه حوالي 150قدما وعمقه ثلاثة أقدام.... ولها أربعة أبواب، وهي باب القنطرة الذي يقع في الشرق ولكنه يتجه نحو الجنوب الغربي ويؤدي إليه فوق هذه الصخور جسر حجري قوي يقع فوق ثلاثة أقواس، يقال أن الأسبان قد بنوه قبل مدة طويلة، أما الأبواب الثلاثة الأخرى فتقع في الجنوب الغربي في صف واحد..>>(4).

ويبدو من خلال هذه الأوصاف أن مدينة قسنطينة التي تصورها الرواية لا

---

(1).البحث عن النقد الأدبي الجديد -محمد ساري- دار الحداثة -بيروت-1984. ص171-172.

(2).المدن المغربية -إسماعيل العربي- المؤسسة الوطنية للكتاب 1984. ص193

(3). نفسه.

(4).قسنطينة أيام أحمد باي -فندلين شلوصل- ترجمة -الدكتور أبي العيد دودو- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع -الجزائر- بدون تاريخ.ص73.

تزال تحتفظ بكثير من خاصياتها الجغرافية التي كانت عليها منذ قرون مع فارق في الملامح العامة التي تطبع بها اليوم، و لعلها اكتسبت هذه الملامح من عهدين هما : عهد الأتراك ثم عهد الفرنسيين، لكن ماهي حدود المدينة بهذا الوجود الفيزيائي المكاني داخل محمل روائي كالزلزال؟ وإلى أي مدى يقدم لنا وطار مدينة حية بساكنيها أم منطوية على ماض سحيق؟.

يرتبط وجود الكاتب و من خلاله عبد المجيدبوالأرواح بزمن مابعد الإستقلال وبالذات في الفترة التي صدر فيها قانون الثورة الزراعية، و من ناحية الخلفية السياسية لكتابة هذه الرواية، يمكن اعتبار صدور هذا القانون و ما يمكن أن يعقبه من انتقال على المستوى الإجتماعي، من أهم العوامل التي دفعت بوطار إلى <<دخول>> عالم المدينة الذي لم تطرقه الرواية الجزائرية بالعربية قبل ذلك، << فقد كان بالمناسبة << زلزال>> الطاهر وطار << منشورا>> سياسيا في صالح الثورة الزراعية >>(1). وما يلفت الإنتباه في هذه الرواية هيمنة مدينة قسنطينة على صفحاتها بشوارعه وجسورها السبعة و واديها وجوامعها وأناسها المزدحمين في أسواقها ودورها وروائحها المتميزة وأصواتها المختلفة، وملامح الوجوه الغريبة، معظمها، عن المدينة، وقد يخيل للقارىء في هذا الخضم أنه يعيش مع الكاتب من خلال تنقلات بوالأرواح عبر أجواء المدينة وتغمره روائحها الزكية والنتنة المنبعثة من كل مكان فيها. ووطار في <<الزلزال>> يورد الشوارع والمساجد والساحات بأسمائها التي عرفت بها في تلك الفترة، ويبدو أن <<أهمية الطرقات في قسنطينة أعظم من أهمية المباني >>(2) لأنها متنفس السكان الوحيد الذي يبعدهم نهارا عن ضيق مساكنهم و اكتظاظ غرفها الضيقة بالأفراد << ماذا يكون مصيرهم لو لم تكن المدينة مخربة بهذه الطرقات

---

(1).إتجاهات الرواية العربية في الجزائر –واسيني الأعرج- المؤسسة الوطنية للكتاب –الجزائر- 1986. ص99.

(2).الزلزال: ص69.

وإن كانت في معظمها ضيقة ملتوية؟ >>(1). والأسماء التي تحملها شوارع مدينة قسنطينة، بعد الإستقلال، ذات أبعاد وطنية وقومية، إذ نجد شارع العربي بن مهيدي الصاعد من الساحة الصغيرة المقابلة لجسر باب القنطرة، وشارعا آخر يخلد إحدى الذكريات الوطنية للشعب الجزائري وهو الذي أطلق عليه نهج 19 ماي 1956م، الذي يتفرع منه شارع فلسطين صاعدا إلى فوق كما تتردد أسماء بعض المقاهي، خاصة مقهى البهجة الذي كان فيما مضى مكانا يجتمع فيه المثقفون من كل فج دون أن يحس أحدهم بالغربة، وتحضر الأسواق العامرة بالبضائع المختلفة والبنايات التي ميز منها بناية مخزن الحبوب والثانوية والمستشفى والبريد والثكنة التي تقوم في القصبة القديمة و قصر العدالة الذي يعلن لأهل المدينة أن ثمة من يحكمها رغم ما يسودها من فوضى الناس وازدحامهم. وتحضر حضورا مكثفا و دائما جسور قسنطينة حتى ليتخذ الكاتب من أسمائها عناوين لفصول الرواية، فباب القنطرة العريق الذي منه المدخل والمخرج ناحية الشرق هو المكان الأول الذي يلفت نظر بوالأرواح بعد أن أوقف سيارته <<وانطلق بصره مع الجسر، واستعاد شيئا من الإطمئنان... هذا الجسر أفضل من جسور قسنطينة السبعة، عريض وقصير سرعان ما ينسي الإنسان الهوة التي بينه و بين الوادي >>(2)، و هذه العراقة التي اكتسبها منذ عهد الأسبان -كما يذكر شلوصل- وزكاها تمثال القديسة جان دارك، و ما يمتد تحتها من الهوة السحيقة التي- تبعد بامتداده وصلابته- الناس عنها، كل ذلك كان مدعاة إلى أن ينال لقب <<إله قسنطينة >>(3). وجسور قسنطينة لا تقام كغيرها من الجسور العادية، ذلك أن الموقع العجيب لهذه المدينة، كونها واقعة على صخرة

(1). المصدر السابق: ص70.

(2). الزلزال: ص10.

(3). المصدر السابق: ص11.

كبيرة معلقة في الهواء، يجعل اتصالها بالطرف الآخر من الأرض الذي يلي الوادي بالجسور أمرا في غاية الغرابة، فالجسر الذي يفصل بين هذين الجزئين ويعبر الوادي ليس مبنيا على الأرض إنما هو<< معلق بالحبال الفولاذية>>(1) وهذا الموقع، على صعوبته و غرابته، يمده بكثير من الصمود لأنه ليس إلا شكلا من أشكال صراع الإنسان مع الطبيعة وتفوقه على قساوتها ولذلك فإنه << سيظل الجسر ولو بقي بدون واد يمر تحته، ولو ذهبت قواعده، إنه شحنة من إصرار الإنسان على التحدي والمكابرة، بل إنه رمز لطموح الإنسان إلى المساهمة في الخلق>>(2).

و تحت هذه الجسور العظيمة يمر الوادي ذلك << الأخدود العظيم الذي يفصل بين ضفتي النهر و يقف حاجزا بين المدينة و بين جزء كبير منها >>(3). ويستكمل الوادي ذلك البعد الأسطوري الذي أحيط به موقع المدينة وشكلها، وكأنه ثعبان يخاصر مادة صلبة يتلوى حول بناياتها، لكنه مع ذلك منسي لكونه يجري هناك تحت في هوة سحيقة لا تصله أرجل الناس، و لكون هؤلاء منشغلين عنه بفوضاهم ومآربهم، لكن هذا الوجود الصامت لوادي الرمال لا ينفي أبدا حضوره، فهو قائم كجزء من أجزاء المدينة المنشغلة بنفسها، و تكتسب مدينة قسنطينة طابعها المتميز أيضا من مساجدها التي يمر بها بوالأرواح أو يذكرها أو يحل ببعضها، ومنها ما يزال قائما يؤدي وظيفته الأصلية كما تركه من قبل، إلا أن منها ما حول عن دوره، وهو مما أثار دهشة بوالأرواح من ضمن ما أثاره من تغيير وجه المدينة إلى هذه الصورة السديئة <<آه، هذا جامع سيدي قموش.. لا حول ولاقوة إلا بالله إنا لله وإليه راجعون. الجامع احتل. أضحى مقرا لطبيب الأمراض الصدرية>>(4) وحياة قسنطينة -كما يكتشفها عبد المجيد بعد غيبته

---

(1). المصدر السابق: ص14.

(2). المصدر السابق: ص127.

(3). المصدر السابق: ص14.

(4). المصدر السابق: ص34.

الطويلة عنها- يطبعها الإزدحام و الفوضى عبر أزقتها الضيقة وأسواقها وساحاتها << لم أصل بالسيارة إلى هنا إلا بعد أن كدت أن أهجرها وسط الشارع، خشية أن يغمروها كالذباب، كأنهم في يوم الحشر>>(1)، ويبدو أن المدينة لم يكن باستطاعتها استيعاب تلك الأعداد الهائلة من البشر الذين وفدوا إليها من القرى والأرياف وبعض المدن الصغيرة بالشرق الجزائري، من أجل ذلك صب عبد المجيد بوالأرواح نقمته عليهم و عليها وضم صوته إلى صوت رجل آخر أظهر ضجره من هذا الإزدحام فراح يصرخ و يحتج << ضاقت المدينة، ياربي سيدي، ضاقت .خمسمائة ألف ساكن عوض مائة وخمسين ألفا في عهد الإستعمار. نصف مليون ياربي سيدي .نصف مليون برمته، بطمه و طميمه، فوق هذه الصخرة تركوا قراهم وبواديهم واقتحموا المدينة يملؤونها حتى لم يبق فيها متنفس حتى الهواء امتصوه . ولم يتركوا في الجو إلا رائحة آباطهم >>(2)، ولعل هذا مما أوحى إليه أن زلزالا موشك أن يدمر المدينة ويقلب سافلها عاليها ويسحق هؤلاء الناس المندفعين عبر شوارعها في غير هدى.

و مدينة قسنطينة لا تبدو لعبد المجيد بوالأرواح على صورتها القديمة فقد أصابها كثير من التغير، فليست هي بوجهها ذاك الذي عرفه خلال فترة الإستعمار، قبل الثورة، حين كان يلفها هدوء لافت للإنتباه، ولا تزدحم بما تزدحم به اليوم من الناس، كانت لها عادات ما يلتزمها أهلها و لم تكن غاصة بالسكان. فهي الآن قد << انقلبت رأسا على عقب >>(3) و ما يميز مدينة قسنطينة روائحها الكثيرة المختلفة المنبعثة من كل مكان و لذلك يرى بوالأرواح أن حاسة الشم أقوى حاسة في هذه المدينة، إذ تقتحم أنف المتجول روائح المأكولات المنبعثة

---

(1).المصدر السابق: ص11.

(2).المصدر السابق: ص14.

(3).المصدر السابق: ص12.

من المطاعم والمشاوي، وروائح البول النتنة، ويقترن بحاسة الشم والروائح في قسنطينة الأصوات المتميزة والملامح التي يفرق بوالأرواح بين أصيلها ودخيلها، ومن هنا تبدو مدينة قسنطينة في الرواية << مدينة الدواس>> زائرها يعتمد على أنفه وأذنه وعينه ليعيش أجواءها الشعبية التي لم تحل لبوالأرواح الذي كان يرجو نهاية المدينة، لكنها بالنسبة إليه مدينة انتهت <<فقسنطينة الحقيقية انتهت، أقول زلزلت زلزالها، لم يبق من أهلها أحد كما كان>>(1).

3- ملامح المدينة عند مرزاق بقطاش:

ويعد مرزاق بقطاش في ثنائيته: << طيور في الظهيرة>>(2) و<<البزاة>>(3) أهم من اهتم بالمدينة من الروائيين الجزائريين واتخذ منها مسرحا لأحداث وقعت إبان ثورة التحرير، ويعود ذلك الإهتمام إلى كون بقطاش من أبناء المدينة، فهو من مواليد مدينة الجزائر العاصمة وفيها نشأو تعلم، بينما نجد الكتاب الآخرين << من منبت ريفي، أو من قرى صغيرة، تئن تحت ضغط الرؤية الريفية للحياة >>(4). ولعل منشأه ذاك ما جعل اهتمامه لا يخرج عن دائرة ماجرى في المدينة خلال سنوات الثورة الأولى، فقد عاشها عن كثب وعاش واقع الجزائريين في مدينتهم التي يحكمها أجانب ويتحكمون في مصائرهم وحركاتهم وأقوالهم. غير أن اللافت للنظر في هذه الثنائية أن المدينة ليست غاية كبرى يصبو الكاتب إلى تصويرها موضوعا يطفو بتفاصيله و جزئياته على أحداث الرواية كما وجدنا ذلك عند ابن هدوقة و وطار من قبل، بل هي مجرد فضاء روائي تتحرك عبره شخصيات الرواية، و ليس مهما عند بقطاش، وهو ابن المدينة، أن يسعى إلى اكتشافها أو كشفها لمن يجهلها، إنه يصور واقعا أغلب الظن أنه عاشه صغيرا ذلك أن << مراد الشخصية الأساسية لرواية: <<طيور في الظهيرة >> لايختلف عن مرزاق في قضية السن وقد يتفق معه في الأحلام

---

(1). المصدر السابق: ص28.

(2). طيور في الظهيرة -مرزاق بقطاش- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع -1981.

(3). البزاة -مرزاق بقطاش- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع -1983.

(4). طيور في الظهيرة -مقدمة الطاهر وطار- ص8.

والمطامح والإحساس>>(1). ويرى الدكتور مصايف -رحمه الله- أن الرواية ليست رواية مدينة ذلك أن أحداثها كما يرى يدور في غابة وحي، والمدينة هي أوسع من ذلك، وهي لا تتحدث عن المدينة قدر تحدثها عن أطفال المدينة، ولذلك يرفض أن نسميها << رواية مدينة >>، وهو ما يشير إليه الأستاذ محمد زتيلي دون أن ينفي أو يؤكد الطابع المديني للرواية في قوله: << أما طيور في الظهيرة، رواية مرزاق بقطاش، فهي قصة حي من أحياء العاصمة، تصور حياة الأطفال اليومية في بداية الثورة التحريرية... وقد حرك الكاتب الأطفال في رقعتين محدودتين هما: الحي والغابة >>(2)، ولئن كان اهتمام بقطاش بوصف الحياة اليومية لأطفال الحي، وتحريكهم بين نقطتين هما الحي والغابة هو ما حمل كلا من المرحوم محمد مصايف والأستاذ زتيلي إلى ما ذهبا إليه، فإن ثمة موضوعا آخر في الرواية قلل من إمكانية اصطباغهابالصبغة المدنية لدى آخرين، ألا وهو موضوع " الثورة " التي ارتبطت بالريف الجزائري في بداية عهدها أكثر من إرتباطها بالمدينة و في هذا السياق يرى الدكتور شايف عكاشة: <<أن طيور في الظهيرة نفسها قد ألبست المدينة الثائرة ثوب الريف. و لعل ما يؤكد هذا أن بقطاش نفسه لجأفي هذه الرواية إلى الغابة ليحتمي بها...إن اهتمام بقطاش بثورة المدينة لا يعني أنه كان يريد أن يدخل لهيب الثورة إلى المدينة>>(3).

وإذا كان هذا هو موقع رواية << طيور في الظهيرة >> فإن الرواية الثانية << البزاة >> قد نالت فيها المدينة قدرا من الإهتمام بتوسع رقعة الحركة فيها وظهور عناصر جديدة ظلت في الرواية الأولى غائبة أوهامشية في كثير من الأحيان دون أن يعني ذلك غياب العناصر الأولى لا سيما << الحي>>، وما

---

(1).الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والإلتزام -محمد مصايف- الدار العربية للكتاب -الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- 1983. ص272.

(2).مقدمة في الرواية الجزائرية المكتوبة بالعربية -محمد زتيلي- الثقافة والثورة- عدد 5سنة 1980- ص16-17.

(3).مدخل إلى عالم الرواية الجزائرية. ص61-63.

يلفت النظر أن بقطاش في <<البزاة>> يتحدث عن ملامح من مدينة الجزائر فهي مدينة صاخبة يؤثر القادم إليها من الريف المحافظة على عاداته و عقليته <<حلقد جاءت الجدة من الريف وحافظت على العقلية التي نشأت عليها .لكن الحياة في هذه المدينة الصافية تقتل كرامة المرأة >>(1). والحي الذي ظل محافظا على وتيرته اليومية التي كثيرا ما يطبعها الملل الناتج من رتابة الحياة فيه، بدأت تدب فيه روح التغيير، << وضعية الحي بأكمله تغيرت تماما منذ الإحتفال بالذكرى الثانية لأول نوفمبر. فالدوريات العسكرية صارت تطوف به أكثر فأكثر، وتتحرش بساكنيه دونما سبب ظاهر>>(2)، ولعل ما ساعد على هذا التغير اشتدادحرارة الثورة في المدينة الذي استدعى استقدام مزيد من الفرق والدوريات العسكرية التي كانت تمشط الحي، وتجوبه كل يوم بشاحناتها وجنودها الأوربيين والسينيغاليين الذين استعانت بهم فرنسا << لقد جاء العساكر ذوو القبعات الحمراء واستقروا.في فيلا يمتلكها تاجر معروف في الحي لم يجدوا أية صعوبة في احتلالها أو طرد أهلها بعد أن وقع ذلك التاجر في قبضة المظليين>>(3)، ويتنامى في ظل هذا التحرك الجديد الذي أصبح يسير وفقه الحي، وعي بالثورة حتى في أوساط أولئك الأطفال الذين لم يكن لهم من شيء يؤدونه قبل ذلك سوى اللهو في الغابة وبين أزقة الحي، فالمجاهدون، بعد أن كانوا حلما يراود الأطفال، يحلمون برؤيتهم ويرسمون لهم صورا و يحملونهم أوصافا صاروا حقيقة ماثلة أمام أعينهم من جراء ما لمسوا من أعمالهم البطولية، وصاحب هذا الوعي بالثورة وعي بالتاريخ والإمتداد الحضاري الذي ساهمت في بلورته المدرسة العربية التي أنشئت في أعلى الحي لتستقبل الأطفال الجزائريين وتلقنهم لغتهم ودينهم وتاريخهم، ومنها ينطلق موقف الرفض والإصرار على مقاومة أساليب << الفرنسة>> و<<التغريب >> التي سعت إليها فرنسا، كفرض رفع العلم الفرنسي في ساحة

(1).البزاة: ص20.

(2).المصدر السابق: ص15.

(3).نفسه.

المدرسة العربية وإجبار التلاميذ على ترديد أناشيدها، والتهديد المتواصل بغلقها وسجن معلميها وتعذيبهم، والمدرسة هنا عنصر جديد كان لابد منه في ظل تنامي روح الرفض والوعي لدى أولئك الأطفال، فهي بالتالي استكمال لعملية أفرزها الواقع الجديد الذي صنعه وصول الثورة إلى المدينة، و الحي جزء من هذه المدينة، وبالمقابل تتنامى أساليب القمع و الردع فيبرز ضدا لهذا العنصر <<الأحيائي والتوعوي >> عنصر يعزز الإتجاه الكولونيالي نحو إبقاء الحال على ما هو عليه، يتمثل في الثكنة <<إنها ثكنة مخيفة حقا فكل من دخلها وخرج منها سالما تحدث عن الرهبة التي تبعثها في النفس >>(1)، ويجسد هذان العنصران، بحق، من خلال وظيفة كل منهما المضادة لوظيفة الآخر <<الصراع بين الصليب والهلال >>(2). وبجانب هذا الصراع المتأجحة ناره تعكس الرواية صورة من تناقض الحياة في المدينة والتفاوت في مستوى المعيشة بين الأوربيين والجزائريين، إذ أن هناك وضعا إجتماعيا مختلا ترجح كفته عائلات الأوربيين الميسورة التي يقيم بعضها في فيلات خاصة و يمتلك أراضي وبساتين وثروات هائلة، بينما تمثل الكفة الأخرى أغلبية من السكان يقطن بيوتا بسيطة ومنها من يسكن في كوخ من القصدير <<الكوخ أمامه جامد...و خيل إليه أنه داخل مقبرة خالية من الزوار >>(3)، والكوخ المقصود هنا هو كوخ محمد الصغير صديق مراد القائم معزولا فوق ربوة تشرف على قصر << لوجذ در>> وبساتينه، وبين الكوخ وهذه الملكية مسافة الإنحدار من الربوة، فأي تناقض بين عالمين هذا؟.

---

(1).البزاة: ص83.

(2).مدخل إلى علم الرواية الجزائرية: ص63.

(3).البزاة: ص87.

ولقد كان تسلط الأوربيين على الحي والمدينة كبيرا بحيث حرم الكثير مما كان مباحا من قبل، فالغابة لم تعد مكانا للهو بعد أن سيجت بالأسلاك الشائكة وأصبح ممنوعا دخولها، و الحي كثرت فيه دوريات التفتيش، وبعض الشوارع والممرات منع المرور عبرها، كل شيء صار محرما في هذه المدينة، << أما القصبة مكانت محرمة عليه،... وكان والد مراد يبذل جهده ليتفادى المرور عبر القصبة، لقد استوقفوه عدة مرات.... وخيل لمراد أن الأحياء سوف تصير محرمة على المواطنين كلهم ولعل السلطات تتعمد ذلك >>(1).

ويعتبر البحر في << البزاة >> من العناصر الجديدة الهامة في الرواية، وقد كانت الإشارة إليه في أكثر من موضع، و هو مصدر لكثير مما أصاب الجزائر من الخير والشر، وذلك ما يمثل عليه في ذهن مراد، فهو يأتي إليه ليرقب عودة أبيه البحار، لكن ما لفت انتباهه هذه المرة << هو كثرة البواخر الوافدة على الميناء والعدد الهائل من الجنود الذين ينزلون منها .لقد امتلأت الأرصفة بالعساكر، وهاهي ذي الشاحنات الفارغة تتوافد على الميناء لتنقلهم إلى الثكنات>>(2) وكان لابد لمراد أن يقتحم عالم البحر بنفسه ليراه عن كثب بعد أن ضاقت به المدينة وصار كل شيء فيها محرما وكأنما لم يعد من ملجإ أمامه إلا أن يفر صحبة أبيه عبر زورق إلى البحر، بعيدا، ربما، عن تحركات العساكر، ومن البحر يكتشف وجها آخر للمدينة فالميناء من البحر ليس هو ذاك الميناء كما كان يراه من اليابسة، أما مدينة الجزائر فكانت تبدو << متجمعة حول نفسها كأنها كتلة حجرية بيضاء لا حياة فيها >>(3)، و هذا الوصف قريب من وصف فندلين شلوصل وهو يراها من البحر لأول مرة << كانت تبدو على البعد شبيهة بجبل أجرد>>(4).

---

(1).البزاة: ص166.

(2).المصدر السابق: ص11-12.

(3).المصدر السابق: ص 157.

(4).قسنطينة أيام أحمد باي: ص10.

وهكذا، يبدو أن رواية << البزاة >> أتاحت للمدينة فرصا أكبر للظهور مما أتاحتها رواية << طيور في الظهيرة >> بفضل ما جد فيها من أمكنة وتطور في دائرة التحرك التي توسعت إلى القصبة، و السوق و الميناء و مقهى الأميرالية والبحر، وإذا كانت هذه هي حدود الحركة فإنه حسبنا اعتبار << البزاة >> رواية مدينة، إذ العبرة ليست بزخر الرواية بأسماء الشوارع والأحياء والأزقة، لكن بسبر أغوار نفس الإنسان فيها و تصوير معاناته و حياته، وإخال مرزاقا قد وصل في روايته إلى ذلك .و المدينة في النهاية << ليست مجرد ابنية أو شوارع أو ميادين أو معدات للحياة اليومية توفر الوقت و المجهود، بل إنها نوع من الحياة جديد على البشرية يجب أن نهيء له الأساس المعنوي و ما يتضمنه من تنظيم إجتماعي لابد أن يصل مرتبة التضامن و التماسك >>(1).

4- ملامح المدينة عند الأعرج واسيني:

أما الروائي الأعرج واسيني فيمثل حالة خاصة في تعامله مع موضوعة <<المدينة >> من خلال بعض أعماله الروائية، و حري بنا أن نتذكر أنه أيضا <<من منبت ريفي >> لكن الريف لم يشكل موضوعا أساسيا في أي من رواياته، وإذا كانت بلدة << مسيردة >> تتكرر في مواضع كثيرة فإن إهتمامه بها لم يبلغ حد اتخاذها بعدا أساسيا الهدف منه تصوير واقع مناقض لواقع المدينة مثلما نجد ذلك عند عبد الحميد بن هدوقة في روايتيه الأولين، و لعل الإنتقال المبكر في حياة الأعرج واسيني من حياة البلدة الصغيرة ذات النمط و التقاليد الريفية والإنفتاح على عالم المدينة أفسح في ذهنه مجالا كبيرا لهذا العالم، وارتبط به ارتباطا متميزا، لا تنتج منه علاقة متميزة أيضا بالمدينة، فهو لم يقبل عليها إقبال المندهش لبناياتها و شوارعها و أضوائها و رقة أهلها، إنما أقبل عليها إقبال من يجسها و يبحث في أعماقها عما ينطوي عليه ظاهرها، فإذا به يكتشف وجهها

---

(1).علم الإجتماع الحضري: ص105.

الآخر، الوجه الحقيقي الذي يختفي تحت بهرجها و بريقها الخادع، ثم تحولت المدينة عنده موقفا من أوضاع اجتماعية وسياسية عامة، فهي ليست إلا إفرازا لعلاقات غير مؤسسة، غير مبنيةعلى نحو من الوضوح و الصراحة، وسأحاول في هذا الموضع أن أعرض لملامح المدينة عند الأعرج واسيني من خلال روايتين له أحسبهما امتدادا واحدا لهاجس واحد و هموم واحدة هما روايتا: <<وقائع من أوجاع رجل غامر صوب البحر>>(1) ورواية <<مصرع أحلام مريم الوديعة>>(2).

ففي الرواية الأولى -بجزأيها- يقدم لنا الأعرج واسيني نموذجين من المدن: مدينة في الوطن ومدينة في المنفى، والحركة في الرواية هي هروب من الأولى وحلم بالثانية والمسافة بينهما شاقة، بحر بين الوطن والمنفى. ففي مدينة الوطن يقهر الإنسان و يضطهد لمواقفه السياسية المعارضة للسلطة لذلك تبدو ملامحها داكنة، لا تظهر بأجزائها الخارجية إلا صورة قاتمة تنبع من مكان واحد منها وهو زنزانة بالسجن، فالمدينة في هذه الرواية لا تتحدد إلا من وطأة عذاب السجن وتجربة السياسة التي تنتهي إلى الإخفاق، ولذلك لم يهتم الكاتب بإبراز عالم المدينة بقدر اهتمامه بمكانين فيها هما : السجن و المحكمة، لقد وقع عاشور الماندرينا تحت التعذيب طويلا وعانى من ويلات السجن و الزنزانة، التي <<تتراقب أنفاس عباد الله>>(3) حيث لاتكون الحركة في مجال ضيق تحده أربعة جدران باردة، وحيث << الروائح الكريهة و مخلوقات كريهة تشبه الحشرات >>(4)، وكان قبل ذلك شهد كيف يظلم الإنسان في مكان قيل أنه محكمة، حيث تلصق به تهمة تنظيم إنقلاب ضد النظام، و يساق إلى الزنزانة، <<حتى الحيطان تصرخ بالقوانين

(1).وقائع من أوجاع رجل غامر صوب البحر -الأعرج واسيني- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع -الجزائر-1983.
(2).مصرعأحلام مريم الوديعة عن دار الحداثة -الطبعة الأولى- بيروت.1984.
(3).وقائع من أوجاع رجل غامر صوب البحر -الأعرج واسيني- ص27.
(4).المصدر السابق: ص80.

الجاهزة وفي المحكمة رأى عاشور الحيطان... المعدة في المخابر الأمريكية لخدمة مصلحة <<الكمشة>>(1). وإذا كانت المحكمة، رمز العدالة والنظام في المدينة والوطن وسيلة في يد السلطة لتكسير الرافضين والزج بهم في غياهب السجون حيث ينتظرهم ألوان شتى من العذاب، فإن ذلك مدعاة إلى تلوث المدينة كلها بالظلم والقهر والأوساخ، فتلبس المدينة حرما سياسيا لم تكن لها يد فيه، ولذلك تتحول في منظور هؤلاء المسجونين ظلما لمواقفهم المعارضة مدينة بكل عفونتها، تقتل أنبياءها، وهي مطعونة بخيانة من نصبوا أنفسهم مدافعين عن الحقوق والعدالة، أكلها الدود ولم يبق لها إلا مصير واحد: أن يتفجربركانها النائم منذ عهد ويدع << النار تلتهب في كل مكان>>(2). لكن ثورةالبركان التي كانت شوارع المدينة والمصنع الذي انطلقت منه، سرعان ما يخمدها الرصاص وتنتهي بين الجدران الأربعة الباردة، فلا يكون من حل بعدئذ إلا التفكير في المدينة الحلم، هناك وراء البحر، إلى المنفى الذي قد يفتح بابا للحرية ظل موصدا في مدينة الوطن، وتظهر << باريس>> أول الأمر بديلا مؤقتا لمدينة القهر والقمع في الوطن، ملاذا آمنا إلى حد بعيد، يجد فيها الفار إليها شيئا من الطمأنينة المفقودة وتوفر فرصاأكبر للتعلم و العمل وممارسة بعض ما كان ممنوعا في مدينة الوطن... لكن ذلك لا يطول لأنها لم تستطع أن تكون بديلا حقيقيا للوطن، والإنسان، مهما كانت حال الوطن، محكوم عليه بأن يظل قلبه معلقا به، ومن هنا كان الضجر من باريس التي أوشكت أن تشيخ << كذت ألمحها باريس.. من

(1). السابق: ص29.

(2). السابق: ص89.

خلال نقطة صغيرة في الزجاج لم يصلها الضباب، ظهرت لي على وجهها الحقيقي، عجوزا...عجوزا في أيامها الأخيرة>>(1). ومع ذلك فقد منحته المدينة لحظات افتقدها في وطنه الذي ظل مسكونا به << أنا احبك يا وطنا ينبحني ويقذف في وجهي بكل حماقاته>>(2).

وما هو جدير بالملاحظة في هذه الرواية ظاهرة القلق والهروب المستمر من المدينة التي تطبع سلوك الشخصية، فما تكاد تفر من مدينة الوطن بحثا عن مدينة للطمأنينة حتى يعاودها الحنين إلى الوطن ويتحول الحلم إلى منفى ثان، وتظل المدينة في كلتا الحالتين مبعثا للقلق ومصدرا للظلم وهيمنة الأغنياء، وتبقى رحلة الأعرج واسيني متواصلة للبحث عن مدينة الإستقرار التي لم يجدها بعد.

وفي رواية << مصرع أحلام مريم الوديعة >> تتكرر المدينة بشكل لافت للنظر، إذ لا تكاد تمر بقارىء هذه الرواية صفحة دون أن يعثر عليها، الأعرج واسيني لم يتخلص من موقفه الذي أبداه في الرواية السابقة حيال المدينة، ولذلك نجده يكرر الهم نفسه، ويرسم لنا ملامح لمدينة غير مرغوب فيها، كبيرة، تعج بالضجيج و الفوضى، تعيش مجردة من كل قيم الإنسان، والإنسان فيها ضائع في فلوات الفراغ يبحث عما يضمد جرحه، المدينة التي ينطلق منها الأعرج واسيني في هذه الرواية لا تختلف عن تلك التي فر إليها في الرواية الأولى، وقد لاحظنا أن باريس ضاقت به كما ضاقت به مدينة الوطن، فهو هنا ينطلق من هذا الضيق الذي يشعر به في مدينة <<موصدة القلب، تضم إلى قلبها أشياءها الثميذة قبل أن تنزع من جذورها>>(3)، و لعل هذه المدينة لا تكون إلا باريس ذاتها أو مدينة

(1). السابق: ص270.

(2). السابق: ص277.

(3). مصرع أحلام مريم الوديعة: ص13.

أخرى تشبهها اختارها منفاه الإضطراري و مهربه من عذابات الوطن، ومن القرائن التي تحدد المدينة ما ورد في الرواية من إشارات إلى أمكنة بباريس وأسماء لفنادق و منتزهات <<كان المساء برذاذه باردا جدا. و مع ذلك خرجنا، وجرنا إلى الجسر الذي ينام على ظهر المدينة و على أمواه نوتردام الباريسية بأضوائه البنفسجية الجميلة>>(1)، <<في الطريق الواسع الذي كان قد بدأ يسحبنا نحو فندق <<السان سيفيران>> في دوحة <<سان ميشال>> كنا قد صرنا ثملين>>(2) وتبدو المدينة كبيرة لكنها لا تخلو من مظاهر ومشاهد تبعث على الشعور بالغربة و الأكتئاب و الحنين إلى الوطن ثانية، إنها مدينة معطلة عن التفكير، هجرتها الفرحة، تسرق الحبيبة، متخمة تحمل أوجها متعددة توحي بتناقضاتها الصارخة تمتلىء شقاوة، و تنام بعد نهارها الصاخب وضجيجها باكرا على أحداث الحرب، تستقبل الوافدين إليها، أولئك الذين يجوبون أزقتها وشوارعها قلقين، بلا ابتسامات، يأتيها من يفقد الطمأنينة في وطنه ونفسه فيجدها موصدة متعبة تبعث على الحزن، والأحلام بها نائمة، مقفرة، نائمة على جروحها، تبدو مهجورة رغم كثرة الإزدحام و الحركة لأنها فقدت اتزانها مع الحياة، وفي النهاية يكتشف الحالم بها من قبل أنها هرمت وأن مداخلها مغلقة وشوارعها سوداء... هذه مدينة الحلم التي كانت متنفسا مأمولا للحرية و الرأي تنتهي إلى هذه الصورة، فلا يجداليائس منها إلا مطارها الذي ينقله إلى بلدته الصغيرة النائمة هناك في أحضان الوطن، فتلبس مدينة الوطن الحلم ثانية، وهكذا يتأرجح الأعرج واسيني بين مدينة يطرده كل ما فيها و مدينة تجذبه إليها تحت وطأة المعاناة والعذاب الجسدي والنفسي، ومن المنفى تبدو وهران مدينة الذكرى والحلم <<صدقني أيها الوطن... أن لا شيء أجلب للألم مثل حبك، ما عبدت فيك ليل وهران إلا لأني أقدس سواد شعرك >>(3).

---

(1).السابق: ص72.

(2).السابق: ص73.

(3).السابق: ص6.

و بالرغم من هذا الحضور المكثف للمدينة في الرواية فإن الكاتب لا يعني بتفاصيلها الخارجية عنايته بمعاناته فيها، و لذلك لا تتحدد ملامح<< وهران>> في الرواية إلا من خلال الذاكرة وفي موضعين إثنين، -علىأكثر تقدير- وردت الإشارة إليها في أولهما باسمها، ووردت في الثاني مضمنة في أحد رموزها الذي اقترن بمكان: وهو نزل سيدي الهواري، لكننا لا نعثر على المدينة بأحيائها الشعبية وأزقتها الضيقة ومناظرها البحرية و بناياتها المتميزة مثلما ترصد ذلك عين الزائر، ويبدو أن الهاجس النفسي في الرواية أقوى من المكان، فالمدينة بذلك ليست إلا وعاءا يسكب فيه الكاتب معاناته التي يراها تنطلق منها ولا بد أنها ستعود إليها لتموت فيه...غير أن علاقة الأعرج واسيني بالمدينة من خلال هاتين الروايتين تبقى قوية كونها مصدرا للعذاب والأحلام المنكسرة التي هي منطلق التجربة الإبداعية لديه، و ليس مهما لديه فضاء المدينة بجزئياته وتفاصيله كما أنه ليس مهما عنده تحديد مدينة بعينها، فكل مدينة عنده يبدو أن الأمر فيها <<مضحك أن لا تجد في مدينة عرضها يساوي بلدا بذاته، مكانا تمارس فيه فرحك بعيدا عن الأشياء التي يقتلك تحجرها وثقلها >>(1).

و مما نستخلصه من قراءتنا لهاتين الروايتين بالنظر إلى الروايات التي سلفت:

1- أن الأعرج واسيني يحدد مدينته انطلاقا من هموم داخلية، فتلبس المدينة همومه كلها حتى لتصير وجها من أوجه معاناته وعذاباته .

2- يخوض الأعرج واسيني في البحث المتواصل عن مدينة للفرح والطمأنينة ويهرب باستمرار من مدينة تقمع أحلامه و يسوس الناس فيها من يسومونهم سوء العذاب.

3- هذا البحث المتواصل يفضي إلى العدم : فهو لا يجد أبدا هذه المدينة فيحن إلى البلدة التي يشده إليها الحنين إلى طفولته وبيته الأول.

---

(1). السابق: ص143.

4- هناك تقابل بين مدينة المعاناة ومدينة الحلم : إذ نجد كل مكان في تلك يقابله مكان في هذه : المدينة / باريس - الوادي / السين - المقهى / الحانة / المنفى / الوطن...

5- ملامح المدينة عند رشيد بوجدرة:

وصورة المدينة عند رشيد بوجدرة تختلف قليلا عنها عند ابن هدوقة أو وطار أو الأعرج واسيني في رواياتهم المشار إليها سابقا، و في الروايات الثلاث التي اختيرت نماذج للدراسة وهي: التفكك، ليليات إمرأة آرق، فوضى الأشياء، يقدم لنا الكاتب صورة وموقفا من مدينة لا يذكر اسمها، لكنه يحدد معالمها وملامحها العامة من خلال الإشارة إلى بعض الأمكنة فيها أو ما يحددها من تلميحات تاريخية وعمرانية وجغرافية، و تفادي تحديد المدينة بإسمها لا ينفي تعينها في ذهن القارىء الذي، ترتبط بخياله صورتها و هو يتتبع ملامحها. ويلاحظ أن المدينة في الروايات الثلاث واحدة إذ تدور أحداث كل منها في مدينة الجزائر التي نحددها من خلال بعض الإشارات: كالبريد المركزي و القصبة والميناء و ضريح سيدي عبد الرحمان.

ففي رواية << التفكك >>(1) تبدأ العلاقة بالمدينة نفعية في الأساس وحديثة، فشخصية الطاهر الغمري لم تولد في المدينة و لم تنشأ بها، إنما جاءتها هروبا من ماض صار لعنة و خوفا من حاضر يعيش فيه ضائعا بلا هوية ولا قيمة <<ودارت المدينة نفسها تلك التي لا يسكنها إلا منذ فترة قصديرة>>(2). وغاية الطاهر الغمري في المدينة إلتماس مأوى فيها حيث تسمح له كثافة الناس وإزدحام السكان بإخفاء نفسه بعيدا عن تلك اللعنة التي تطارده و عمل يقتات منه. لكنه لا يقتحم المدينة ولا يسكن في قلبها بل يكتفي بقبومن القصدير على ربوة من روابيها المشرفة عليها، ويعيش به منعزلا عن عالم المدينة التي << تبهره وتقطع أمعاءه>>(3) وفي بيته القصديري يحلو له أن يمارس أعماله السرية

(1). التفكك -رشيد بوجدرة- الطبعة الثالثة -المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر 1984.
(2). التفكك: ص9.
(3). السابق: ص115.

بحريـة مطلقـة، يتـأمل الصـورة القديمـة أو يلاعـب الحشـرات أو يكتـب مذكراتـه ويسترجع في صمت ماضيه، و هو لا يغادر بيته إلا متجها إلى عمله في الميناء إذ يعتني هناك ببعض بقرات يطعمهن و ينظفهن و لا يـنزل المدينـة إلا لمامـا، وكـان دائم التردد على ضريح سيدي عبدالرحمان يسترق النظر إلى النسوة اللائي يأتينـه للزيارة والتبرك طلبا للزواج أو الذرية، بينما تظل الملامح العامة للمدينة غامضـة في وعي الطاهر الغمري، فالكاتب لا يحدثنا من خلال شخصية الرواية عن المدينة إلا راصـدا لكل معـالم السـلبية فيهـا فالطـاهر الغمـري يعيش فيهـا تحـت ضغـط الإضطهاد والضجر من ساكنيها و شكلها و الحياة فيها، إنه لايكـاد يهدأ حتـى فـي قبوه القصديري المنعـزل عن المدينة إذ أن << الأطفـال لا يتركونـه مع أشـيائه وحشراته و كلماته فيهرعون إلى سطوح الصيف ويرجمون داره القصديرية بوابل من ريقهم رغم القيظ و قلة الماء فيخرج هاربا و ينزل من عرينـه يجتـاح شـوارع المدينة >>(1) لكن المدينة لا تمثل أبدا الملجـأ الآمـن الـذي يهـرب إليـه الطـاهر أحيانا حين يضيق به بيته القصديري أو << العرين >> كما يسميه، إذ سرعان ما تبدو أمامه بوجهها المقرف فيصورها كما يراها بأعماقه المتناقضة و نظرته الناقمة علـى وجـوده فيهـا و علـى حالتهـا التـي آلـت إليهـا وأكـثر مـا يثيرسـخطه عليهـا ضوضاؤها وازدحامها بالبشر الذين يملؤون شوارعها ومبانيها <<والمدينة تفتقت أحشاؤها و تشققت منازلها تحت وطأة الخلق المحشور فيها والنساء لا يتوقفن عـن الوضع >>(2)، وقد ضـاقت بالناس وضـاقت بهـا نفس الطـاهر الغمـري فـاضطر إلى مغادرتها ليلتحق بعرينه ويكتفي بالنظر إليها من بعيد، من أعلـى الربـوة، وقـد أدى هذا الإزدحام البشري إلى ضيق الأفق أمـام الغمـري فـي نظرتـه إلـى طبيعـة العلاقة بين الناس في المدينة، وإذا كانت هـذه العلاقـة <<سطحية و نفعية فـي أغلـب الأحيان>>(3)، فإنـه لا ينظـر إليهـا مـن هذه الزاويـة، وإنمـا مـن زاويـة سوداوية، فيها كثير من النقمة، فهي بالنسـبة إليـه مدينـة الشـهوة والجنـس والوبـاء

(1).السابق: ص12.

(2).السابق: ص192.

(3).مجتمع المدينة: ص66.

والقهر، تعيش ضوضاء متواصلا، يطوقها القصدير من كل جانب، الناس يعيشون فيها من أجل بطونهم و فروجهم، تخلصوا من كل العادات الأصيلة فيهم،ملامح الحداثة المزعومة زحفت إلى كل ميادينها، حتى الكتبة استبدلوا بأقلام الحبر أو الصمغ آلات ميكانيكية حديثة، إنها مدينة تغيرت إلى الإتجاه السلبي -في نظر الغمري اليائس المحطم-، حركتها الدؤوبة نهارا لا تلبث أن تختفي مع بداية الليل، السلطة فيها لا تنام، تراقب الناس، تتأكد من هويتهم ولا تقف حركات سياراتها النائحة أبواقها البراقة أضواؤها، <<يسقط الليــ ـل بسرعة وذرى سالمة فوانيس اللوعـة والشهوة مضاءة في عيون المارة فيتصاعد الغثيان إلى صدرها والدموع إلى حنجرتها>>(1). ومدينة كهذه، حري بالطاهر الغمري أن يفر منها ويظل متشبثا بكوخه القصديري يباشرما يحلو له، ويكتفي بالتنقل عبر ثلاث نقاط هي: العرين والميناء و ضريح سيدي عبد الرحمان، ويعيش على هامش المكان الحيوي حاضرا كما يعيش على هامش الزمان، ويحظى الميناء والبيت بأوصاف خاصة في الرواية دون سائر الأمكنة، ومما يفسر ذلك العلاقة الحميمية التي تربط الطاهر الغمري بهما فالأول مصدر للرزق والحياة والثاني مأوى من العراء والخلاء والتشرد، ولذلك يعتني الكاتب بإبرازهما إبرازا مكثفا. ويرد عرضا ذكرلأمكنة أخرى كالضريح الذي يختلف إليه الطاهر الغمري للتمتع والتسلية -هي ليست الوظيفة و الغاية من زيارته لدى عامة الناس- والبريد المركزي وبعض الشوارع ومحطات الحافلة والمقاهي والحدائق العامة، ثم المكتبة التي تعمل بها سالمة وبيتها.

وصورة مدينة الجزائر هذه نفسها نجدها في روايــة <<ليليات إمـرأة آرق>>(2) مع فارق بسيط، وهو أن الكاتب يقدمها لنا هنا من منظور امرأة،

---

(1).التفكك: ص188.

(2).ليليات إمرأة آرق -رشيد بوجدرة- المؤسسة الوطنية للكتاب -الجزائر- 1985.

إلا أن الصورة لا تختلف كثيرا ، مما يدل على أن هاجس المدينة كماهي من خلال الحالة التي تقدمها عليها الرواية كان كبيرا في وعي الكاتب ولا وعيه، وتتكرر أيضا تلك النظرة السودانية، أكبر مشكلة يعاني منها الكاتب في المدينة: مشكلة الإزدحام السكاني الناتج عن الكثافة و الضيق، و لعل المرأة الآرق في هذه الرواية لا تكون إلا نسخة من سالمة التي طبعها بها الطاهر الغمري لذلك نعثر على كثير من التشابه في النظرة إلى المدينة و الموقف منها، و تتردد فيها أيضا الأمكنة بصورها و أبعادها ووظائفها مع اختلاف طفيف في طبيعتها فنجد الغرفة والميناء والمسجد والمحطة كما وجدنا في رواية التفكك: الغرفة والميناء والضريح والمحطة.. والمدينة هي نفسها تلك المزدحمة <<بالكائنات>> التي << تجهل ما ينخرها من الداخل من وباء وهي غائصة في غفوة بلهاء والمتمثل-الوباء- في تضخمها و تكرشها وتسمنها من جراء مالنتابها من نهم ووصولية وغرور>>(1) وهي هنا مريضة أيضا موبوءة بسمنتها المزيفة التي نفختها كثافة سكانها وشرورهم لذلك فلابد أن ترقب نهايتها التي قد تأتي يوما فلسوف <<يقتلها انتفاخها الشحمي: التمركز المديني >>(2)، وإذا لم تكن نهايتها من انفجارها المرتقب حدوثه من داخلها فإن وضعيتها وموقعها الجغرافي قد يحمل لها تلك النهاية المنتظرة، إذ يوحي انحدارها مع التل نحو البحر بصورة المائل الذي يوشك على السقوط. و تصوير هيئة المدينة يتم في الغالب إنطلاقا من نافذة الحجرة، التي يشبه موقعها في الرواية عرين الطاهر الغمري المنتصب فوق الربوة، ولذلك تحدد ملامح المدينة من خلال نظرة بانورامية عامة لا يلج فيها التصوير إلى العمق، إذ المشكلة دائما هي مشكلة العلاقة بالمدينة التي تبقى هنا سطحية لا يحكمها إلا الموقف الذي تفرضه ظروف متضاربة و كثيرة على الشخصية، فتكون الحركة في الهامش أوسع منها في العمق، فلا تظهر المدينة في الرواية بثقل أحيائها

(1).السابق: ص15.

(2).السابق: ص45.

وأزقتها وحوانيتها وأسماء أمكنتها الحقيقية كما نجد ذلك في << بان الصبح>> و<<الزلزال>> اللهم اهتمام مشوب بالنظرة الإيديولوجية المجحفة بهندسة الجامع الجديد و التي تبدو << رديئة تبعث على الضحك...و اما الصومعة فهزيلة وقبيحة المنظر قضيبية الشكل (لماذا؟) الفأرة المسكينة ترتجف خوفا بها (الصومعة) درج يفضي إلى أعلاها..>>(1) وهذه الهندسة (الرديئة الباعثة على الضحك) دفعت إلى الهروب من واقع المدينة البشري و المعماري و البحث عن بديل آخر يمكنه أن يمحو <<خيبة الأمل>> و لم يجده الكاتب إلا من خلال رسالة بعث بها أخو (المرأة الآرق) إلى أحد أصدقائه يخبره فيها عن رحلة بحثه عن الذات التي قادته إلى بلاد المغرب والمشرق، ووجد ما يشفي غليله من الآثار الإسلامية القيمة في الجامع الأزهر ومسجد بني أمية الذي اعتبره <تحفة إسلامية أحاطتها الأسواق والأدوار حيث يقدم التاريخ انتصاراته و مواكبه الجنائزية..>>(2) ثم جامع القرويين بفاس، بينما يستوي في رداءة الهندسة الجامع الجديد وجامع تلمسان العريق، لكن رحلة البحث عن الذات هذه لا تغير شيئا من واقع المدينة التي توفرت فيها كل عوامل النفور والهروب: إما إلى العزلة و التمرد أو الغوص في الماضي بحثا عن تلك اللحظات المشرقة في حياة المدينة التي يبدو أن ملامحها لم تتغير، فلا تزال قائمة بهياكلها و موقعها وشوارعها << فرغم كل هذه السنوات التي مرت منذ عهد الطفولة لم يتغير الشارع و لا الحي. القباب تلو القباب، على أبعد مايمد البصر. الهياكل. الغرابيل، السطوح. زرقاء حمراء، برشاء..>>(3) وهنا، في ظل هذا التعفن، تبرز المدينة حلما منشودا، فترتسم لها صورة في الذهن مغايرة تماما لواقعها الذي لا يطاق، مدينة في الحلم، و الحلم من أشكال الهروب أيضا كالعزلة و التمرد و الغوص في الماضي، المدينة لابد لها أن تتغير، ولا

---

(1).السابق: ص29.

(2).السابق: ص47.

(3).السابق: ص74.

يغيرها إلا أولئك الذين ينظرون إليها بدءا بمنظار المرأة الآرق : فيرونها مدينة موجودة متعفنة ومزدحمة، الخوف فيها و منها يطارد الإنسان حيثما حل بأزقتها << لو كان جميع الموظفين مثلي لكانت المدينة في هذه الساعة تبرق برقا، عوضا من تخبطها في أوحالها و قذارتها و بالوعاتها. لقد كتبت في تقريري أن تورمها الدسم وفوضى سكانها إنما سيقضيان عليها >>(1).

وفي رواية << فوضى الأشياء>>(2) يأتي الإنفجار المرتقب، وتعيش المدينة كلها حالة من الإضطراب العارم الذي تسبب فيه المتظاهرون عبر شوارعها، والرواية تسجل لحدث تاريخي مهم في حياة الجزائر، إذ تصور أحداث أكتوبر 1988 في مدينة الجزائر وما تخللها من آثار التدمير والحرق والتطويق وحالة الطوارىء التي فرضت بعدها، وترتبط المدينة في حالتها تلك بصورتين أخريين لا تقلان عنها دمارا و تحطما: صورة مدينة الجزائر ذاتها و هي تهتز تحت وقع انفجار قنبلة، وصورة مدينة دكها زلزال عنيف. وهذه المشاهد العنيفة تتكرر في المدينة على نحو يكاد يكون متشابها حتى ليصدق عليها فعلا حكم أنها مدينة مطبوعة على القوة والعنف منذ القديم، وينتقل الكاتب في الرواية بين صورة المدينة في حاضرها، وهي تعيش في حالة الفوضى والإضطراب وصورتها قديما، لكن الملامح العامة التي رسمها بوجدرة لمدينة الجزائر في روايتيه السالفتين لا تختفي في هذه الرواية، فتظل دائما << وكأنها هي أيضا فاحشة، مثيرة للشفقة، فوضوية بمغازاتها العبوسة والمنفردة، حسب عاداتها >>(3) ثم أنها تبدو <<مضطربة مكلومة، مجروحة، محروقة، مهزوزة، متمايلة، متيمة، مذعورة، مرفوضة و... ميتة..>>(4) وبالجملة فإن كل ما فيها ينبيء عن حالة الخراب التي آلت إليها بعد الأحداث العنيفة التي شهدتها شوارعها، فتحولت إلى صورتها الأولى خلال الثورة التحريرية لما شابها من مناظر غير معهودة:

---

(1).السابق: ص117.

(2).فوضى الأشياء –رشيد بوجدرة– دار بوشان للنشر –الجزائر– 1990.

(3).فوضى الأشياء: ص19.

(4).السابق: ص15.

حيث ينتشر العساكر في كل مكان يسدون المنافذ الحساسة بأسلحتهم و دباباتهم، وعبر شوارع المدينة و بناياتها تبدو آثار الغضب حتى لا تقع عين الرائي بها إلا على <<الركام والحطام والواجهات المحروقة والبنايات المحطمة والزجاج المبعثر وشظايا الفلز المهشمة والسيارات (وما تبقى منها) المكلسة >>(1) ولم تجد المحاولات التي قام بها الجيش ليلا لتطهيرها شيئا، حيث استمر سافلها مقلوبا على عاليها تئن تحت الغضب المتواصل الذي ظل مدفونا في صدور أهلها زمنا طويلا، فكل شيء فيها قد تغير، إذ فقدت كل طابعها القديم و بعض مزاياها كعاصمة بحرية عريقة واكتست وجها عسكريا حتى المستشفى امتلأ بالعساكر حتى ليظن أنه تحول إلى ثكنة، وهذه الحال التي آلت إليها المدينة يجد لها الكاتب جذورها، إذ أن ذلك طبع فيها، فقد كانت منذ القديم << تملك موهبة العنف وشن الحروب وإدلاع الثورات و صنع الإنقلابات و القرصنة و الإنتفاضات >>(2) وهذا الطابع الثوري العنيف الذي تكتسبه المدينة يقود إلى التفاتة إلى تاريخها القريب فقد كانت من أهم مراكز القرصنة البحرية. تمتلك أسطولا ضخما أخضع له أساطيل دول أروبا وأمريكا، ولها قرصان شجعان جابوا البحار والمحيطات بحثا عن الكنوز والثروات التي ملأت بها خزينة المدينة، فكانت مطعما للناهبين واللصوص الذين تحينوا الفرص حتى انقضوا عليها أخيرا، ومع ذلك فقد كانت لها مهابتها ومكانتها وعظمتها، غير أنها فقدت كل ذلك اليوم <<وأصبحت عبارة عن سقط معماري، عن نفاية اجتماعية، عن حثالة بشرية، عن شبه رسم بياني غير نافع>>(3).

و هكذا لا يزال رشيد بوجدرة يحتفظ بتلك النظرة القاتمة للمدينة، يصب عليها جام غضبه وينسب إليها كل مظاهر الفوضى وكل القذارة والفحش والخراب، وهو موقف لم يتغير في الروايات الثلاث، وما تجدر الإشارة إليه كذلك أن الكاتب لا يعني بتسمية المدينة وذكر شوارعها -كما سلفت الإشارة إلى ذلك- وإنما يكتفي بإعطاء صورة لمدينة محطمة بمعاول أهلها مزلزلة تسكنها الفوضى

---

(1). السابق: ص12-13.

(2). السابق: ص38.

(3). السابق: ص39.

التي لا تتوقف. أما الأمكنة في هذه الرواية فلا تختلف عن تلك التي ترددت في الروايتين السابقتين: إذ نجد الإشارة إلى الميناء الذي يأخذ هنا بعدا جغرافيا وهندسيا وتاريخيا، فإليه تنتهي المدينة و فيه تصب قذارتها اليوم بعد إذ كان مصدرا للثروة الطائلة في الزمن الغابر، و يأتي عرضا أيضا ذكر البريد المركزي والمستشفى والحدائق، وتكرار هذه الأمكنة في الروايات الثلاث من المظاهر التي تلفت النظر في روايات بوجدرة العربية الذي لا يحبذ أن يعطي لنا صورة مغايرة للمدينة التي يهتم بها في كتاباته: المدينة نفسها بملامحها، بمعاناتها، بفوضاها وجغرافيتها تبعث كل مرة، ولا تتخلى عن أوصافها: فهي <<فاسدقة ضالة، مبدلة..>>(1) ويبقى الجديد في هذه الرواية ارتباطها بالواقع الجديد للمدينة، إذ ثمة تغيرات كثيرة لابد أن تطرأ عليها نتيجة هذه الأحداث العنيفة التي شهدتها لأول مرة منذ الإستقلال، لكن الواضح أن لا شيء من امرها الظاهر يهم الكاتب في شيء ما دام ينظر إليها من خلال وعيه الفردي الذي لا يمثل بالضرورة الوعي الجمعي.

6- ملامح المدينة عند الجيلالي خلاص:

و ثمة كاتب آخر ارتبط بالمدينة ارتباطا متميزا لم يشبهه فيه أحد من الكتاب السابقين و هو الكاتب الروائي: الجيلالي خلاص، من خلال نموذجين سوف أعرض لهما في هذا الموضع من البحث هما: <<رائحة الكلب>> و<<حمام الشفق>>.

قلت أنه ارتباط متميز ذلك أن الجيلالي خلاص، لا يقدم لنا مدينة على هيئتها الفيزيائية المادية الجامدة، وإنما يقدمها كائنا حيا، ما هو بالبشري ولا هو بالمادي، ويرصد لها من خلال مستويات متنوعة يتداخل فيها الزمان بالمكان، والواقعي بالأسطوري والحاضر بالتاريخي والذاتي بالموضوعي، ويكون للهندسة المعمارية وظيفة خاصة لا تقيد المدينة ولا تحدد ملامحها كما تحدد المدن والأماكن بالأبعاد

---

(1). المدينة الفاضلة -د.علي عبد الواحد وافي- عالم الكتب -القاهرة- 1973.ص82-89.

المعروفة، تتخذ تارة ملامح المدينة وتارة أخرى ملامح الإنسان المضطهد المنهوك الباحث عن مصيره المجهول، المطارد، الغريب في وطن لم يتأكد بعد من انتمائه إليه، مدينة يهرب إليها الإنسان بحثا عن الطمأنينة والحلم فيتعلق بها ويعشقها عشقا جنونيا يدفع فيه روحه من اجلها، وتهرب من الإنسان لتبحث عن وجه جديد لها . لكنها تتحدد في نهاية الأمر جغرافيا وتاريخيا وحضاريا، بالبحر والجبل والحي العتيق وازقتها وأبطالها وحتى غزاتها واستحضار التاريخ يأتي ضمن السياق التذكري ليربط به واقعا متغيرا للمدينة بوضع كان يبدو أحسن، فاليوم حالة المدينة لا تبعث على الإرتياح، فقد امتلأت عقول الناس بما يشغلهم عن تذكر الماضي القريب وما دفعه أهل المدينة من دم طهر القصبة من أتربتها وانزلق منحدرا ليصب في البحر فيختلط بمائه، فهي بحاجة -ربما إلى مثل هذا الدم- دم حسيبة بن بوعلي الذي أريق في القصبة ذاتها النواة الأولى لمدينة الجزائر، فعسى أن يطهر هذا الدم المدينة من <<أوساخ الذين عاثوا فيها فسادا، والتحديد لا يحصرها، إذ هي أكبر من ذلك لأنها تعيش في الوعي و الوجدان والحلم.

ففي رواية: <<رائحة الكلب>>(1) نجد (البطل) في وضعية فريدة، محاصرا بالأنقاض في غرفة تشبه زنزانة بظلمتها ورطوبتها وضيق مساحتها، والغرفة في شقة بإحدى عمارات الجزائر العاصمة، ومن العلامات التي تحدد المدينة ورود كثير من القرائن: ويكفي أن نذكر ماهو معلوم من الأمكنة بها لدى العامة، كالقصبة و شارع حسيبة بن بوعلي و البحر، ومن ذلك الموقع المنعزل عن العالم بفعل الزلزال الذي شهدته المدينة، يرسم لنا الكاتب صورة لمدينة في الذاكرة وأخرى في الحلم، حيث يتذكر (البطل) علاقته الأولى بها وصورتها تلك التي وجدها عليها<< يوم نزل المدينة المتورمة الشوارع، المندحرة العمارات المتطاولة المآذن و المزدحمة بـ<<الغاشي>> المندفع عبر شوارعها بلا هدف. رسخ في ذهنه هو الذي قدم من تلك القرية النائية >>(2)، وتآلف والمدينة فتعلق بها

---

(1) رائحة الكلب -جيلالي خلاص- المؤسسة الوطنية للكتاب -الجزائر- 1985.

(2) رائحة الكلب: ص92.

وراح يمعن النظر في تشكلها و تاريخها وواقع الناس في حاضر هم فيها. وقد عني بشكل أزقتها <<المصراني>> وتلك الكيفية التي ترتبط بها بالبحر الذي <<يختلط بلون العينين الزرقاوين اللتين خلدتا جوهرتين في قاعة>>(1)، الشوارع و الأرصفة قاتلا الباعوض والذباب راميا بفئران البالوعات والسراديب إلى البحر>>(2)، والبحر نهاية كل سائل ومصب وحيد و دائم قديما وحديثا، والمدينة في هذه الرواية تحضر أيضا من خلال ماضيها الزاخر بالإنتصارات والإنكسارات، فهي مرتبطة بالتاريخ، و التاريخ فيها حاضر من خلال حادثة المروحة التي كانت من أسباب الإحتلال الفرنسي لها و بالتالي تغييرها ظاهرا: «صبيحة –أمس حار خانق انزلقت فيه المروحة من يد شيخ البلدية العرقي اللزجة فأصابت خد فنصل الألوان الثلاثة، البحر، الدم، الإستسلام>>(3)، وقد تصدت المدينة لهذا القصف ثم للإحتلال الذي عمرها طويلا وما زالت تقاوم حتى تحررت منه وقد دفعت في سبيل ذلك دماء كثيرة وأرواحا زكية من أبنائها المخلصين الذين حلموا، بعد إذ حققوا حريتهم واسترجعوا كرامتهم، بأن يعيشوا فيها في ظل سيادة حقيقية، لكنهم أولاء يصطدمون بواقع مر، ويصابون بخيبة أمل لتذهب تلك الحروب الطويلة التي خاضوها ضد الغزاة وما لقوا فيها من عناء وتعاسة سدى حين تصير لغتهم ممنوعة في مدينتهم وتحاصر الجريدة الصادرة بلغتهم من قبل شيخ البلدية ومجلسه الذي يعمل <<للحد من انتشارها بتقليل عدد نسخها المسحوبة و منع تطوير طباعتها>>(4)، و بالرغم من ذلك كله يبقى الحلم في المدينة كبيرا، لأن ثمة قدرة هائلة تختزن في أعماق أهلها يمكن أن تنفجر من ذلك كله يوما مثلما انفجر الزلزال، وهكذا تقدم لنا هذه الرواية صورة مدينة مزلزلة، رمزا لتحدي

---

(1). السابق: ص17.

(2). السابق: ص87.

(3). السابق: ص93.

(4). السابق: ص95.

الإنسان بعماراتها الشاهقة في عين قروي قادم إليها أول مرة، مدينة بأوساخها التي تراكمت في أزقتها لإنعدام المطر بها نتيجة هيمنة الشمس على فضائها، مدينة قاومت منذ القديم الغزو ورفضته، وتعيش في حاضرها حصارا رهيبا، فيها يتداخل الحاضر والماضي ويحضر التاريخ والثورة والسياسة والحلم.

أما رواية <<حمائم الشفق>>(1) فتنتزع فيها المدينة مساحة كبرى حتى ليكاد يخيل إلى قارئها أن صاحبها ما كتبها إلا لتكون رواية << مدينة>>، وما يحمل على ذلك الإعتقاد ورود المدينة في الرواية واستئثارها على معظم صفحاتها، ثم النواحي المختلفة التي يقدمها منها الكاتب، إذ يدرك القارىء أنه ليس أمام مدينة بأبعادها الجغرافية فحسب،و لكنه إزاء كيانات متداخلة تتخذ المدينةرمزا لها، ويبدو شغف الكاتب بالجانب المعماري للمدينة و حرصه على ربط ماضيها بحاضرها جليا في هذه الرواية، وما يلفت النظر استحالة الفصل بين المدينة وأحد مدلولاتها، إذ يمكن أن نخرج من خلال قراءتنا لحمائم الشفق بعدة ثنائيات تكون في كل منها المدينة طرفا، ومنها: المدينة والتاريخ، المدينة والمقاومة، المدينة والمرأة، المدينة والوطن، المدينة والبحر، المدينة والعمران، المدينة والإنسان. وليس هناك ما هو أقوى حضورا في الرواية من هذا الموضوع الذي يشكل بؤرة الموضوعات الأخرى التي ترتبط به ارتباطا وثيقا نظرا للمدلولات التي حملها الكاتب الرواية والتي يصعب في الغالب الفصل بينها وبين موضوع المدينة، وثمة ثلاثة مواقع تذكرها الرواية، يمكن أن نرسم منها المدينة معماريا وجغرافيا هي: الجبل والبحر وداخل المدينة. فالجبل موقع مشرف على المدينة إذ من قمته الشاهقة كان البطل يرقب << رفقة إخوة السلاح معمار المدينة المتراقصة البياض كسراب تلوح به أشعة الشمس. فإذا هي (المدينة) تبدو كقوقعة سلحفاة غولية شهباء رأسها (قعر الخليج المندس تحت الساحل حيث باب البحر)، وأرجلها الأمامية متفرجة شرقا

---

(1) حمائم الشفق -الجيلالي خلاص- المؤسسة الوطنية للكتاب -الجزائر- 1986.

وغربا (الباب الشرقي والباب الغربي)>>(1). وتتخذ المدينة المعلقة بناياتها البيضاء على طول انحدار الجبل، شكل رجل متربع وقد أسدل على كتفيه برنسه الأبيض. وكانت أول علاقة للبطل بالمدينة من هذا الجبل الذي كان مكانا لإكتشافها و تصورها على هيأة (السلحفاة) تلك التي رسخت في ذهنه فنجدها تتكرر في مواضع أخرى من الرواية ومن ذلك: <<استحضرت (ذاكرتك) ظهر السلحفاة فإذا هي صورة المدينة التي كانت تخبو أمام ناظريك>>(2) والبحر في الرواية جزء وجداني من المدينة فهو ليس مجرد ظاهرة كونية تحد المدينة من إحدى جهاتها وإنما يكتسي بعدا تاريخيا وحضاريا وفنيا مهما فقد كان منذ القدم مصدرا للغزوات الكثيرة التي تعرضت لها المدينة، وهو العالم المجهول الذي يطمح القروي إلى التعرف عليه فيكون منشأ الدهشة الكبرى << لم يصدق أن ذلك الماء المترامي بلا أطراف هو البحر>>(3). ومن الداخل تظهر المدينة بشوارعها ذات التشكيل الغريب وبناياتهاو أقواسها، فشوارعها ذات شكل حلزوني تارة و مصراني تارة أخرى و ثعباني تارة ثالثة، بينما تتخذ المدينة كلها شكلا محدبا بالنظر إلى موقعها من الجبل، والأحديداب، كما جاء في الرواية، ظاهرة عامة في المدينة: هي محدودبة، أهلها محدودبون وكذلك فكرهم << كذا فسرت الفن المعماري للمدينة وقد رأيته يحدودب ملتفا حول سفح الجبل الغارق في البياض الناصع>>(4) وقد اتخذ السكان شكلا مشابها لشكل مدينتهم << إذ رأيت من بين ما رأيت أن التحدب المتعالي حتى مشارف قمة الجبل المشرف على <<المدينة>> هو من شديمات سكانها أصلا>>(5) ويفسر هذا الشكل بالإستعداد الدائم والتأهب لرد كل خطر

---

(1).حمائم الشفق: ص14.

(2).السابق: ص25.

(3).السابق: ص68.

(4).السابق: ص33.

(5).السابق: ص32.

يحدق بالمدينة، ومن أحيدياب السكان الناشىء عن احيدياب المدينة ككل ينجم احيدياب الفكر الذي يستخلص من اللوحة الفنية التي رسمها الفنان الماهر قبل مقتله: لوحة أخذت إسم <<اللي خرج منا ما يعود إلا ليدا>> وتشير إلى المطر صاعدا من البحر مقوسا على المدينة <<كتبت تفسير اللوحة على ظهرها. قالت إنها تمثل الفكر المقوس المحدب لسكان المدينة الأوائل>>(1). وثمة عناية خاصة في الرواية بالجانب المعماري لمدينة الجزائر من حيث الأقواس التي تطبع كثيرا من بناياتها و ما زان بعض بيوتها العريقة من الرخام و الفسيفساء، والسواري الأسطوانية المنحوتة، وأبوابها المقوسة من أعلى المستطيلة من أسفل، وما تزخر به تلك الأجواء من ألوان مختلفة زاهية، وما يؤمها من سكان لا يزالون يحافظون على بعض تقاليدهم التي عرفوها من قبل، وهذا الإهتمام المفرط بمعمارية المدينة وتفاصيلها الدقيقة يمتد على صفحات كثيرة في الرواية حتى ليخيل إلى القارئ أنه إزاء صورة فوتوغرافية أو إحدى الروائع الفنية المجسمة بالألوان أكثر منه أمام نص روائي يتخذ اللغة وسيلته التعبيرية الوحيدة.

لكن حضور المدينة في الرواية لا يقتصر على بعده الفيزيائي المادي فحسب، بل أننا نجد لها أوجها أخرى وقد حاول الجيلالي خلاص أن ينفخ الروح في مدينته فيجعلها حية ببعدها التاريخي والحضاري والأسطوري . فالمدينة هنا ذات تحيا وتموت ثم تبعث، تسقط وتنهض، تتخذ أشكالا حيوانية وإنسانية متحركة، فتتجاوز إطار المكان عبر حركية الزمان، والعلاقة بها حميمة جدا، تتجاوز حد الحب إلى العشق <<لا أعشق شيئا في الحياة كعشقي إياها بأزقتها المتشعبة وشوارعها المتحزلنة وبيوتها المتسحلفة>>(2) وهي تستمد حركيتها أيضا من خلال ذلك الوصل الذي أقامه الكاتب بين ماضيها وحاضرها، حيث تشهد وضعيتها الحالية على سجل هائل من الصراع والمقاومة المستمرة، لصد الغزوات الكثيرة التي

---

(1).السابق: ص35

(2).السابق: ص17.

كانت تأتيها من البحر والإنتفاضة في وجه ظلم حكامها الذين إستبدوا بالرعية وأذاقوها ألوانا من البؤس والعوز، ولذلك فهي مدينة حية بشوارعها التي كانت فيما مضى مسرحا للمعارك العنيفة التي خاضها السكان دفاعا عنها ودرءا لأعدائهم الذين راحوا يطاردونهم ليجلوهم من شوارع المدينة، ويدفعوهم إلى البحر الذي جاؤوا منه: <<وإذا كانت المدينة تنتحب تحت السيول الجارفة، من جهة، فإنها من الجهة الأخرى كانت تقاوم التجلط المثلج لأقدامها بتلك الروح العنيفة الجموح التي عرفت بها على مر العصور العسيرة التي خلقت بصمودها الدهري أسطورة المناعة>> (1)، وقد أكسبها هذا العناد المتواصل على مر العصور وذلك الصمود الذي لم يهيء كما هيء لشعبها بعدا أسطوريا في نظر الكاتب، فهي ليست مدينة عادية تغزى و تقاوم، بل هي كائن آخر يفوق حدود ما يتصور الإنسان، فكل ما فيها يبعث على الإعتقاد بأسطوريتها بدء من بقائها واقفة حتى هذا اليوم بالرغم من الهزات العنيفة التي تعرضت لها، وشكلها أيضا يوحي بروح الأسطورة فيها فقد كانت <<تظهر للرائي القادم إليها من البحر كجناحي برنوس أسطوري يتسربل به ولي عملاق >>(2).

وثمة حركية أخرى تكتسبها المدينة من خلال علاقتها العجيبة بالزمن والفصول، إذ كانت تتخذ في كل فصل وجها غريبا لا يخلو من بعد أسطوري أيضا، فهي في صيفها عرضة لزحف أسراب من الجراد <<ففي ذلك الصيف تعرضت المدينة لأبشع غزو عرفته في تاريخها الطويل الدامي >>(3)، وقد تكون الإشارة هنا إلى تعرض مدينة الجزائر إلى الغزو الفرنسي الذي كان في صائفة عام 1830م، وقد اكتسح الجراد المدينة واقتحم البيوت من ابوابها ونوافذها وجدرانها وسطوحها. لكنها لم تستسلم إذ خرجت في ذلك الصيف لتقاوم هذا الغزو الذي لم تشهد مثله في حياتها، وانتهى ذلك بخرابها ودمارها، وقد استقبلت

(1). السابق: ص81.

(2). السابق: ص78.

(3). السابق: ص74.

الخريف على تلك الصورة المحطمة، ثم عجت بالعواصف والزوابع، ولم يكن لصمودها جدوى هذه المرة فقد استسلمت أسسها وتداعت <<وحين أقبل ذلك الخريف الهدام برماله وعواصفه وتمرده العارم، حاولت المدينة عبثا الصمود مرتكزة على أسسها المنخورة المتثاقبة و على أسوارها المتهاوية المتهاودة... وتهاوت المدينة متزلزلة من حيها العالي حيث كانت تتركز قصور الشيخ الأكبر وضباطه>>(1)، وبعد الذي أصابها راحت تستقبل الشتاء بوجهها الكئيب <<كفحمة انفلتت من فوهة بركان خمد للتو. كانت سوداء هنا ورمادية هناك ومكفهرة هناك>>(2)، وقد تبدلت ملامحها كثيرا فزحف إليها الكبر والعجز بعد فصل الشتاء وصارت تبدو كعجوز <<عرجاء تهدلت خدودها وعلا التسوس الموصل أزقتها حافرا عبرأزقتها وشوارعها الباهية بالأمس، خنادق لن تكفي بردمها جثث أبنائها البررة كافة >>(3) وكان ذلك آخر مرحلة في حياتها حيث تلفظ أنفاسها مع مقدم الربيع لتموت أو تنام نومة عميقة من أثر ما أصابها وتعاقب عليها من المحن والشدائد <<ومع ذلك فالمدينة راحت تنتظر الصيف ببصيص من أمل يشوبه التوجس والتطير>>(4).

وهكذا تأخذ المدينة في هذه الرواية صورة حية متحركة، فهي شخصية تاريخية و أسطورية و ثورية، أشكالها الغريبة التي تبدو بها لعين الرائي تختزن أسرارا كثيرة لا يكشف عنها إلا من ارتبط بها ارتباطا وجدانيا واطلع على ماضيها و نقب عن حقيقة حاضرها وآفاقها في ما يأتي من الزمان. وما يجدر بنا الإشارة إليه أن الجيلالي خلاص لا يقدم لنا في <<حمائم الشفق>> مدينة كما قدمها ابن هدوقة في <<بان الصبح>> ولا ينظر إليها كما نظر إليها الأعرج واسيني في روايتيه سالفتي الذكر، وإنما ينفخ في المدينة روحها الخفية وينبش في أهم اللحظات التي تفسر طبيعة تشكلها وعلاقة أهلها بها، والمدينة عنده لا

(1). السابق: ص77.
(2). السابق: ص79.
(3). السابق: ص83.
(4). نفسه.

تتفصم عن الذات والوطن والمرأةو التاريخ و الحضارة، فهي وجه لكل تلك المفاهيم، ولذلك كان لابد من أن تستنطق من خلال <<أنس نتها>> وفيها يفسر التاريخ، ويفسرها التاريخ، ويعرف الوطن وتعرف الإنسان، ويتحدد معنى للحب السامي الغريزي -في كثير من الحالات- الذي يربط الإنسان بوطنه ومدينته وأهله، وهو في نهاية المطاف -الكاتب- ليس شغوفا بالماضي لذاته ولا بالحاضر لذاته إلا على القدر الذي يفسر أحد هما بالآخر، ولذلك نطقت المدينة بما لم يحسن النطق به كثير ممن كتبوا عنها ووصفوها وتألموا لها.

II تصنيفات المدينة:

و يتضح من خلال استعراضنا لملامح المدينة في بعض الأعمال الروائية الجزائرية أن من ضمن اثني عشر نصا روائيا مدروسا نجد عشرة منها كانت مدينة الجزائر مسرحا لأحداثها، بينما نجد رواية <<الزلزال>> وحدها خصت <<قسنطينة>> بحيز كبير فيها ولا نجد مدنا أخرى إلا لماما، فوهران عند الأعرج واسيني تظهر ظهورا وجيزا لا يستغلها الكاتب مكانا لأحداث روايته، كما نعثر على إشارات بالذكر أو التلميح إلى مدن جزائرية أخرى كتلمسان والشلف، وتيزي وزو، ومدن أخرى خارج الوطن و لاسيما باريس.

ولا شك أن ثمة اختلافا بين هؤلاء الروائيين في كيفية تعاملهم مع المدينة سواء من حيث علاقتهم بها أم من حيث مواقفهم منها أو من حيث الصورة التي يرسمها لها كل واحد منهم و لذلك يمكن استنباط أربعة أصناف متمايزة في الروائيين في نظرتهم إلى المدينة: أما الصنف الأول فيضم روايتي عبد الحميد بن هدوقة <<بان الصبح>> و<<غدا يوم جديد>> ورواية الطاهر وطار <<الزلزال>>، ومما يميز هذين الكاتبين أنهما يتعاملان مع المدينة تعاملا ماديا سطحيا، فينظر كل منهما نظرة خارجية، إذ لا تعدو المدينة كونها مكانا مختلفا عن البادية أو ظاهرة حضرية <<تتعارض بشدة مع فكرة الريف>>(1)

---

(1).الجغرافية الحضرية: ص9.

تمتلىء بنايات شاهقة وأزقة وخلقا كثيرا يفد إليها من الأريـاف ليقيم بهـا، فالمدينـة إذن في هذه الروايات ليسـت إلا أسـماء لتلك الشـوارع والأحيـاء والأزقـة يجوبها المتجول ليتعرف عليها أو يعرف بها، ولم يفلح كل من الكاتبين فـي أن يتخذ منها موضوعا ينطلق من الأعماق ويعود إليها فـي علاقـة حميمية بها، وهذه النظرة السطحية المصحوبة بوصف تقريري يكتفي بما يقع فـي مجال البصر دون أن تعبره إلى مستوى الرؤية العميقة و الإدراك الباطني للعلاقات بين الأشياء، لا تختلف عما نقرأه في كتب الرحالة الذين تعرضوا لوصف مدينتـي الجزائر وقسنطينة، و كأن الكاتبين -وهما يتعاملان مع فضاء المدينة في الرواية- لم يستطيعا أن يتجاوزا إطار التسجيل و التقرير إلى آفاق أرحب، وهو ما يفقد المكان تلك الحيوية والحركية إذ أن <<المكان عجينة قابلة للتشكل حسب رغبة أو حركة الزمان... فهناك مكان في الحس، ومكان في الذهن>>(1) كما أن هناك مكانا في الخيال المبدع، يرتبط بالنفس والحلم والمعاناة التـي يفرزها الواقع الواجب استشفافه، فإذا كانت المدينة في ذهن عالم الجغرافيا حيزا من الأرض وفي تصور السوسيولوجي من الناحية الفنية البحتة: <<عبارة عن فكرة مجردة>>(2) فهي عند الكاتب فضاء روائي ناطق يشهد على تناقضات حياة الإنسان وتذبذب مشاعر واضطراب علاقاته بالذات وسواه.

وأما الصنف الثاني فتدرج فيه روايتا الأعرج واسيني <<وقائع من أوجاع رجل غامر صوب البحر>> و<<مصرع أحلام مريم الوديعة>> وروايات رشيد بوجدرة الثلاث: <<التفكك>>، <<ليلات إمرأة آرق>> و<<فوضى الأشياء>>، وخلافا للصنف الأول فإن روايات هذا الصنف لا تتعامل مع المدينة تعاملا فيزيائيا ظاهريا، ولا تهتم بها من حيث أنها أمكنة وشوارع بأسمائها، إنما ترصد لها من الداخل فتحملها معاناة الروائـي النفسية وهواجسه الفكرية

(1).نجيب محفوظ في مجهوله المعلوم -د.علي شلق- دار المسيرة -الطبعة الأولى- بيروت. 1979. ص23-24.

(2).علم الإجتماع الحضري: ص129.

والحضارية فتغدو المدينة وقد أثقلت بالظلم والإضطهاد والفوضى ولا بد لها من نهاية محتومة، والروائيان يضفيان على علاقتهما بالمدينة طابع العداء الذي ساهمت في بلورته ظروف قاهرة وتجارب نفسية حادة أسقطت على واقع مادي موضوعي ليس هو بالضرورة على الشكل ذاته الذي يصوره الروائيان، لكن ما يلفت النظر أنهما أفلحا في تخطي عقبة النظرة السطحية للمدينة وولجا إلى ما لا يدركه الإنسان من حقائق المدينة إلا بإمعان الفكر والتدبر، فالملامح العامة لهذه المدينةتكاد تتشابه في الروايات الخمس إذ أن كل مافيها يدفع إلى اليأس والتشاؤم والهروب منها بحثا عن مدينة حلم لما تولد، ودفعا للقلق الذي يقرض حياة الشخصيات فيها والحركة الفوضوية التي تطبع أهلها وعمرانها والحياة فيها..

وهي مدينة الإغتراب <<ذلك أن الإنسان في المدينة يشعر بأنه يعيش حالة ضياع نظرا لتعدد جوانب الحياة فيها وهذه الحالة النفسية هي التي تجعل الناس يبتعدون عن الإستجابة العاطفية نتيجة لتعقد الحياة الحضرية >>(1)، وقد نجم الإغتراب من طبيعة تشكل الذات نفسها، ونوعية العلاقات الإجتماعية التي تقوم عليها الحياة في المدينة، حيث يصطدم الكاتب بواقع يرفض ما آمن به هو من قيم واعتقد في صوابها، فنشأ في نفسه ما يشبه العقدة أو التذمر من المدينة وأهلها، وهذا الموقف يستدعي إيجاد بديل لها، غير أن هذا البديل لا يكون هو المنبت الأول –الريف– كما رأينا ذلك عند شعراء العصر الحديث، إنما راح الأعرج واسيني يحلم بمدينة أخرى، قد تكون أكبر وأوسع ومجال الحياة فيها أرحب، وإذا به يعود –حين يجدها– إلى ما انطلق منه أول مرة، وهكذا تستمر العلاقة المضطربة بين الكاتب والمدينة في ديمومة وتواصل، فالمدينة التي يبحث عنها هي مدينة الحلم التي قد لا توجد إلا عند أفلاطون والفارابي وفي حكايات ألف ليلة وليلة.

---

(1).المرجع السابق: ص37.

وفي الصنف الثالث يمكن أن ندرج الكاتب مرزاق بقطاش منفردا بثنائيته: <<طيور في الظهيرة >> و<<البزاة>>، فالمدينة عند بقطاش ليست هما، ولا هي حلم، بل هي مجرد مكان كسائر الأمكنة، تدور في بعض أجزائه أحداث الروايتين، والكاتب لا يسقط على هذا الفضاء شيئا مما عانى في فترة ما من حياته، لا يبدي نقمة ولا تذمرا من المدينة، ولا يخصها بقليل أو كثير من التقريظ والتغني بها، فهو يتعامل معها كما يتعامل مع الريف من هو منه، يراه كما هو، ولا يحملها من مواقفه الفكرية و السياسية الراهنة ما لا يصدق على الواقع كله. ولا شك أن ثمة معاناة تحاول الروايتان أن تعبرا عن حجمها، لكنها ليست معاناة الكاتب منفردا، بل هي معاناة << جماعة المدينة>> كلها، ذلك أن الكاتب بفرضية أنه كان في مثل سن مراد في الثنائية، كان فردا في مثل هذه الجماعة التي أدرك على حداثة السن أنها كانت تعاني ويلات الظلم و الجوع والخوف ذلك أن <<الآثار التي تعبر عنها رواية طيور في الظهيرة... هي آثار نفسية واجتماعية في آن واحد>>(1).

و لعل من أسباب تعامل بقطاش مع المدينة على هذا النحو:

1- أنه مولود في المدينة و بها نشأ، ولذلك فهو لا ينظر إليها نظرة الغريب عنها، الذي ينبهر بها و يدهش حين رؤيتها أول مرة، أو يسخط عنها و يهرب منها لإرتباطه وجدانيا ببيئة ريفية مختلفة.

2- أن الكاتب لا يعيش حالة القلق الحاد، أو على الأقل فهو لا يسكب قلقه في أعماله، وإنما يحتفظ بكثير من الرزانة التي يبدو أنها من ميزات شخصيته، وهو ما يفسر قلة السخط و التشاؤم المفرط في الثنائية.

3- إن بقطاش لا يتخذ من الرواية حيزا للتعبير عن موقفه الإيديولوجي ورؤيته للحياة ولما ينبغي أن تكون عليه علاقة الناس بعضهم ببعض، فالمدينة عنده هي كما هي ولايرسم لها صورة ما مما يريده هو أن تكون بوحي من اعتقاداته وقناعاته الفكرية الإيديولوجية الضيقة.

---

(1).الرواية العربية الجزائرية الحديثة: ص9.

فبقطاش لا <<يؤدلج>> المدينة كما فعل وطار و بوجدرة والأعرج واسديني، وإنما يتركها على صورتها التي هي عليها، ثم يتخذ هو موقف <<الراصد>> لمشاهدها ومعاناتها دون التدخل أو محاولة للتغيير الفوقي.

أما الصنف الرابع فيمكن أن تدرج فيه روايتا <<رائحة الكلب>> و<<حمائم الشفق>> للكاتب جيلالي خلاص. ومما يميز هذا الكاتب في تعامله مع موضوع المدينة:

1- المدينة عنده لا تتخذ صورة المدينة الفيزيائية، بل تأخذ طابعا ذا أبعاد متداخلة.
2- تلعب المدينة دور الوسيط الأساس في الربط بين الأبعاد الزمانية الثلاثة.
3- تطغى صورة المدينة مدلولا علىصورتها موضوعا ومكانا.
4- تستمد المدينة صورة الحي من خلال ما تتميز به من حركية في الزمان.
5- المدينة عالم مغلق على الحاضر مفتوح على الماضي.
6- تفسير السياسي الراهن على ضوء التاريخي و استحضار التاريخي للقط الثغرات فيه، و العلة من ذلك دراسة الماضي لتفادي ثغراته حاضرا.

و تبقى الظاهرة التي تميز الكاتب جيلالي خلاص في روايتيه المذكورتين، ولاسيما في: <<حمائم الشفق>> قصرهذه الرواية كلها على موضوع المدينة وتحميلها دلالة الوطن كله، ثم ذلك الإرتباط الحميمي بها ليس من حيث أنها مكان لكن من حيث تلك الدلالة التي حملها إياها، فتاريخها ومقاومتها وصمودها في وجه الغزوات، كان تاريخ الوطن ومقاومته وصموده، وانعكس شغفه بها أيضا من خلال اهتمامه بجانبها المعماري الذي لا أحسب كاتبا آخر اهتم به قدر هذا الإهتمام الذي أولاه إياه الجيلالي خلاص.

ونخلص، من هذا، إلى أننا أمام أربعة نماذج للمدينة في الرواية العربية الجزائرية قد يختلف كل واحد عن الآخر، لكن الكل قد يشكل طابعا متكاملا من حيث الرؤى والتصورات التي يحملها كل كاتب، وهذه النماذج الأربعة هي:

1- نموذج المدينة بأجزائها المختلفة من عمارات و شوارع وجسور وبحر.
2- نموذج المدينة المقلقة التي تعيش الفوضىو الإزدحام والفرد فيها ضائع تائه.
3- نموذج المدينة المكان العادي المجرد من كل مدلول، المدينة التي لا تشكل إلا فضاءا روائيا يكمل مقومات البناء الروائي الأخرى.
4- المدينة المدلول: ذات الأبعاد التاريخية والأسطورية والحضارية.

وسوف أقف الآن، في هذا الموضع من الدراسة على جانب آخر، أحاول أن أبين فيه حدود هذه النماذج الأربعة على ضوء تفسيرات علم الإجتماع والجغرافيا والتاريخ والفلسفة لظاهرة <<المدينة>> أو <<عالمها>> أو <<مفهومها>> على حسب مصطلحات كل ميدان من هذه الميادين ثم نرى إن كنا نجد للمدينة على الصورة التي قدمتها الرواية العربية الجزائرية -ما ينطبق عليها فنفسر أعمال أصحابها تفسيرا اجتماعيا أو جغرافيا أو تاريخيا أو فلسفيا.

III المدينة في الرواية الجزائرية على ضوء العلوم:

1- المدينة في الرواية الجزائرية على ضوء علم الإجتماع:

وقد اهتم علم الإجتاع بالمدينة ظاهرة اجتماعية لأنها من أهم ما يميز حياة العصر الحديث من الظواهر، و نشأ فيه فرع يعرف بعلم الإجتماع الحضري يقصر البحث فيه على ميدان المدينة وسكانها والعلاقات بينهم و تفسير بعض المظاهر القارة أو المتغيرة التي تسود هذا الكيان. <<إن علم الإجتماع الحضري يصور لنا إلى حد كبير دراسة للبناء الإجتماعي، لأن المدينة مركز للحياة الجماعية المنظمة وهي شكل جديد نسبيا للتجمع الإنساني على نطاق واسع>>(1) وليس ثمة تعريف واحد للمدينة يتفق عليه علماء الإجتماع، وإنما مرد خلافهم في ذلك إلى ما يميز هذه الظاهرة من تعقد و تغير مستمر في طابعها ووظائفها

---

(1).الإنسان في المجتمع -جورج سيمسون- ترجمة د.عبد المنعم شوقي -دار النهضة العربية- 1967. ص168.

وعلاقاتها بما يحيط بها من الأماكن ذات الطابع والوظيفة المختلفين، ولعل أشمل هذه التعريفات هو ما يذهب الى القول ان المدينة <<حيز شمولي كلي يشتمل على العناصر المكانية والموقعية والاقتصادية والاجتماعية والادارية والثقافية >>(1).

ويستنبط من هذا التعريف ان المدينة لا تقوم إلا بعنصرين: الأول مادي: يتمثل في المكان والموقع والثاني بشري.

و وظيفة الثاني في علاقته بالأول إستغلالية نفعية: أي أن الإنسان يستغل المكان فينشئ فيه مدينة و يقيم فيها نشاطاته الإقتصادية المختلفة وعلاقاته الإجتماعية التى يؤسس لها أنظمة إدارية، و يضفي عليها طابعه الثقافي. ويرى ماكس فيبر أن المدينة<<تتكون من مجموعة أو أكثر من المساكن المتفرقة. لكنها تعتبر مكان إقامة مغلق>>(2) ومن هذه النظرة المادية المحضة تعتبر المدينة مكانا متميزا بما يلي:

<<1ـ مباني المدينة كبيرة وكثيرة ومتنوعة ومجالاتها التجارية كبيرة.

2ـ وسائل المواصلات في المدينة متوفرة.

3ـ في المدينة: تتجمع الأضداد: ترى العمارة الحديثة إلى جانب المبنى القديم المتآكل وترى قصر الغني و بجواره عدة أكواخ.

4- الإزدحام من مميزات المدينة.

5- النظافة من مظاهر المدينة، نظافة الشوارع، والنظافة داخل البيوت ونظافة في ملابس الناس وخاصة الأطفال>>(3).

و لكن، هل المدينة هي هذه الوحدة المكانية ذات البنايات العامرة والشوارع المزدحمة بالناس و السيارات والأجواء الملوثة بالدخان؟

من ناحية علم الإجتماع الحضري لا يكون للمدينة على هذه الصورة مدلول متكامل لذلك يرى روبرت بارك أن <<المدينة ليست مجرد تجمعات من الناس مع

---

(1).أزمة المدينة العربية: ص87.

(2).علم الإجتماع الحضري: ص137.

(3).مجتمع المدينة: ص69-70-71.

ما يجعل حياتهم فيها أمرا ممكنا: مثل الشوارع و المباني والكهرباء ووسائل المواصلات....إن المدينة فوق كل هذا إتجاه عقلي، مجموعة من العادات والتقليد إلى جانب تلك الإتجاهات المنظمة>>(1).

و بمعنى آخر فالمدينة ليست مفهوما ماديا فيزيائيا فقط، ليست مكانا وموقعا، بل هي <<ميكانيزم صنعه الإنسان، ذلك لأنها متضمنة في العمليات الحيوية التي تنظم الناس الذين يكونونها>>(2) أو هي على حد تعبير شبلنجر:<<لها ثقافتها الخاصة، وهي بالنسبة للإنسان المتمدن مثل المنزل بالنسبة للقروي>>(3). ومن ذلك فهي تكتسي بعدا نفسيا و روحيا إلى جانب بعدها المادي المكاني. ومن ناحية أخرى، فإن أهم ما يميز المدينة، من وجهة نظر علم الإجتماع الحضري، هو أنها <<تمثل نظاما جديدا يؤثر تأثيرا شديدا على سلوك الإنسان وتفكيره>>(4) وللمدينة وظائف متعددة: منها ماهو أساس تطبع به و يحدد سماتها العامة ومنها ما هو ثانوي، و لعل ما تشترك فيه المدن كلها هو أن لها جميعا وظيفة اقتصادية إذ تمثل <<شكلا جديدا للتنظيم الإقتصادي>>(5)، و تضاف إلى ذلك: الوظيفة الإدارية والثقافية والسياسية والإجتماعية وغيرها.

و تحدد هذه الوظائف: نوعية العلاقات بين الأفراد في المدينة، و عموما فإن هذه العلاقات -كما سلف- قائمة على أساس نفعي محض، إذ أنها كثيرة وسريعة الفقدان في الوقت نفسه تنشأ بنشأة الحاجة أو المصلحة في نفس الفرد ثم تزول بانقضائها، و لعل هذا ما يجعل العلاقة بين سكان المدينة مطبوعة بالإنفراد والعزلة، و ما ينجم عن ذلك من غياب روح الجماعة و المشكلات النفسية الكثيرة، و قد تسببت المدينة في <<وجود أنواع جديدة من الجرائم وزيادة انحراف الأحداث...و قيام فرص كثيرة لظهور التفكك و القلق والإضطراب في المجال الفردي و الجمعي..>>(6)، و تفكك عرى الأسر من مميزات الحياة في المدينة

---

(1).علم الإجتماع الحضري: ص135.

(2).نفسه.

(3).نفسه.

(4).المرجع السابق: ص106.

(5).دراسات في علم الإجتماع الريفي والحضري: ص106.

(6).علم الإجتماع الحضري: ص104.

نتيجة ما يعانيه الفرد من مشكلات الإزدحام في المساكن و الإفتقاد إليها كلية وتذبذب العلاقات بين الأفراد، بالإضافة إلى انعدام النزعة الجماعية -كما سلف ذكره-، و هذه الوضعية التي تطبع الحياة في المدينة كانت السبب في عموم ظاهرة التشاؤم التي لم يسلم منها حتى المفكرون و بعض علماء الإجتماع ناهيك عن سكان المدينة، و قد عبر عن هذه النظرة التشاؤمية العالم الألماني شبلنجر حين رأى أن:

<<المدينة ذاتها شر يدمركل شيء و في النهاية تغرق المدينة موتا في آثامها>>(1). أما لويس ممفرد فيري أن ضخامة المدينة هي التي تدمرها <<وتسبب الحروب و تدمر العلوم و الفنون>>(2) إلا أن هناك من لا يذهب هذا المذهب الذي يبالغ في تشاؤمه من المدينة و يرى أن المدينة ليست دائما <<مرادفا للفوضى، ولكن الصحيح أن الجماهير يمكن أن تكون عاملا هاما في ازدهار المدينة و تحويلها لنمط جديد يثري الحياة الإجتماعية>>(3).

و بعد هذا العرض، يمكن أن نتساءل: أين هي المدينة التي صورتها الرواية الجزائرية من هذه التعريفات والوظائف والمواقف التي صدرت في ميدان علم الإجتماع؟ و بمعنى آخر: إلى أي مدى تتفق صورة المدينة في الرواية العربية الجزائرية او تختلف مع النظرة السوسيولوجية لعالم المدينة؟

1- فمن الناحية المادية للمدينة - كما جاء في تعريفها - نلاحظ أن بعض النصوص الروائية المقدمة قد صورت المدينة تصويرا يتفق و هذه النظرة ، إذ اهتم بعض الكتاب بالجانب الشكلي كالبنايات و الشوارع و الجسور و المواقع: وينسحب هذا أكثر ما ينسحب على روايتي <<ريح الصبح>> لإبن هدوقة و<<الزلزال>> للطاهر وطار، إذ تقدم هاتان الروايتان مدينتي الجزائر وقسنطينة تقديما خارجيا ماديا، إذ يمكن أن نحدد المدينتين من خلال ما ورد في الروايتين من إشارات إلى الأحياء و الشوارع بأسمائها الحقيقية المعروفة لدى أهلها أو من زارها.

---

(1) نفسه.

(2) المرجع السابق: ص104.

(3) نفس المرجع. ص97.

2- تحدد بعض الروايات المدروسة بعض وظائف المدينة المختلفة: إذ نجد الطابع الإقتصادي غالبا على مدينة قسنطينة من خلال ما يورده الكاتب من أمكنة وساحات تجارية و من محلات و مطاعم و أسواق، و يلمح، إلى جانب ذلك، إلى الطابع الثقافي العريق الذي تكتسبه المدينة من خلال الإشارة إلى رموز المدينة الثقافية من هياكل و شخصيات عرفت بدورها الكبير في هذا المجال، و تعني هنا على وجه الخصوص، الإشارة إلى ابن باديس و معهده، و مساجد المدينة الكثيرة التي يشهد بعضهاعلى ذلك الدور التثقيفي التوعوي القومي الذي كانت تلعبه هذه المؤسسات في زمن الإستعمار ثم الوظيفة العسكرية لمدينة الجزائر التي وردت الإشارة إليها بإفراط في رواية <<حمائم الشفق>>، إذ تستشف هذه الوظيفة من ذلك الدور العظيم الذي ظلت المدينة تؤديه في الدفاع عن نفسها و صد هجمات <<الغزاة الشماليين>> المتكررة و الطابع التحصيني للمدينة الذي وردت الإشارة إليه في الرواية.

3- أما من ناحية العلاقات الإجتماعية فتشير رواية <<جان الصبح>> إلى سمة <<النفعية>> و<<الوصولية>> التي تطبع العلاقات بين الأفراد والأسر من خلال موضعين:

أولهما: علاقة كريمو بدليلةالتي أقامتها الرغبة الجنسية المحضة من قبل كريمو وأنهاها الشعور بالحصول عليها والرغبة في التخلص منها بعد إذ تبين له أنها حامل منه و تنكر هو لذلك.

و ثانيهما: علاقة عائلة الشيخ علاوة بعائلة عبد الجليل التي كانت نفعية أيضا من قبل العائلة الأولى التي كانت تطمح إلى مصاهرة العائلة الثانية لثرائها وجاهها.

4- و تظهر روح الإنفراد و العزلة في روايتي بوجدرة <<التفكك>> و<<ليليات إمرأة آرق>> إذ يعيش الطاهر الغمري في كوخه القصديري منسيا بعيدا عن الناس، وتتحرك سالمة في عالمها الخاص بعيدة هي الأخرى عن المجتمع، تمارس حريتها الخاصة، لا تتدخل في شؤون أحد ولا يتدخل في شؤونها أحد ولو كان من أفراد الأسرة. وهو السلوك نفسه الذي نلفي عليها المرأة الآرق.

5- إن المشكلات النفسية التي يتعرض لها الإنسان في عالم المدينة ظاهرة أيضا في كثير من النصوص الروائية لاسيما القلق والإضطراب والرغبة في الهروب إلى عالم أكثر راحة و طمأنينة، وهذا ما نلمسه خاصة لدى الأعرج واسيني ورشيد بوجدرة، إذ نجد القلق عنصرا طاغيا على تحركات الشخصيات ودافعا بأفكارها وسلوكها إلى الإضطراب، وعلى ضوء هذا تحدد موقفها من المدينة التي كانت ترى فيها مرادفا للفوضى والخراب، بل وكانت تأمل في زلزلتها وفنائها وتنبأت لذلك رواية << وقائع من أوجاع رجل غامر صوب البحر>>وروايتا بوجدرة سالفتا الذكر، و قد نفسر هذه الرغبة في الإنتقام من عالم المدينة الظالم بتشاؤم من هذين الكاتبين لا تقل حدته عن تشاؤم: شبنجلر و ممفرد السابق.

6- أشار كثير من الروايات المدروسة إلى بعض ما يميز المدينة من مظاهر: كالإزدحام بالعمران و الناس، وانعدام النظافة في الشوارع و المساكن، والكثافة السكانية الخيالية، خاصة في مدينة كقسنطينة التي ألح الكاتب فيها على هذا الجانب في غيرما موضع.

2 - المدينة في الرواية الجزائرية على ضوء الجغرافيا:

و المدينة كيان ذو بعد جغرافي أيضا فهي <<ظاهرة جغرافية لأنها تشغل جزء من سطح الأرض...>>(1) و دخلت مجال اهتمام الجغرافي منذ أن أصبحت مستقر الإنسان في المرحلة المتمدنة من حياته، و <<كلمة مدينة تجمع بين أشياء متعددة و متباينة من حيث الموقع و الحجم و الهندسة المعمارية والتنظيم الداخلي و في الدور الذي تؤديه إقليميا ووطنيا>>(2) و الجغرافي ينظر إليها نظرة خاصة إذ يعتبرها <<نمطا معينا من الإستقلال للأرض يجمع في مجال قد يزيد أو ينخفض مجموعة من الأفراد يعيشون و ينتجون>>(3)، والواضح أن هذا

---

(1).مدينة الجزائر -علي عبد القادر حليمي- ص ب -المقدمة-

(2).الجغرافيا الحضرية: ص12.

(3).نفسه.

التعريف يتفق إلى حد بعيد مع تعريف بعض علماء الإجتماع للمدينة على أنها وحدة مكانية واجتماعية، و الجغرافي لا تقتصر دراسته على البعد المادي للمدينة بعناصره الموضحة سابقا من موقع و حجم ومعمار، إنما يعرض أيضا إلى الجانب البشري فيها و أهم الأنشطة الإنسانية المتمركزة فيها، فهي من هذه الناحية تعتبر << شيئا ماديا و موضوعا إجتماعيا>>(1) في الوقت نفسه و ينتج عن هذا وجود علاقة حتمية بين المدينة و الإنسان تفرز طبائع متنوعة ووظائف شتى للمدن، ولعل عناصر البعد المادي للمدينة الثلاثة تشكل جدلية تأثير وتأثر بينهما وبين العنصر البشري الذي ينبغي عليه أن يتكيف وفق الموقع أو يكيف الموقع بحسب رغباته الخاصة و ما يمليه عليه نمط التركيبة الإجتماعية التي ينتمي إليها، كما أن لطبوغرافية المكان دورا هاما في الإتجاه الذي تنمو به المدينة إذ يلاحظ مثلا أن << لعامل الإنحدار بالخصوص ارتباطا قويا بالظروف التاريخية، حيث أن اليد العليا في اتجاه نمو المدينة كانت في فترات السلم للظروف الطبيعية وأن اليد العليا في اتجاه نمو المدينة كانت في فترات الخطر للظروف التاريخية>>(2) ومعنى هذا أن الإنسان كلما شعر بالخطر صعد بعمرانه نحو أعلى، و كلما تمتع بفترات السلم نزل بعمرانه إلى الأرض المنبسطة، و هكذا يكون للظروف التاريخية دور مهم أيضا في تحديد شكل المدينة، و تكتسي المدينة طابعها الخاص بحسب موقعها الجغرافي وظروفها التاريخية و الجيوسياسية التي نمت فيها، و يلاحظ الجغرافيون أن <حمدينة الجزائر ظل يغلب عليها، منذ نشأتها، الطابع الجبلي>>(3)، و لذلك يمكن القول أنها مدينة صاعدة هابطة، و هذا يبرزه من الناحية التاريخية أنها كانت عرضة للغزوات المستمرة التي كانت تشن عليها من البحر، فكان أهلها يحتمون بالتلال والجبال وكذلك الشأن بالنسبة إلى مدينة قسنطينة التي تقع << فوق

---

(1).المرجع السابق: ص16.

(2).مدينة الجزائر: المقدمة: ص د.

(3).المرجع السابق: ص هـ.

صخور وعرة، تحيط بها ثلاثة أرباعها، و في سفح هذه الصخور يسيل نهر عرضه حوالي 150 قدما>>(1). وهذا الموقع المتميز لهاتين المدينتين أعطاهما طابعا عسكريا دفاعيا، و هي وظيفة كل المدن القديمة تقريبا بالإضافة إلى وظيفتها التجارية، لا سيما تلك المدن البحرية التي أنشأها الفينيقيو ن على طول سواحل البحر الأبيض المتوسط و قد وضع الجغرافيون للمدن تصنيفات كثيرة أشهرها: مدن الدفاع، المدن الإدارية، مدن الإنتاج، مدن الثقافة، و لكل صنف، من هذه الأصناف الوظيفة التي يقوم بها و بالإضافة إلى أهمية الموقع المرتفع في حماية المدينة يشكل البحر عنصرا مهما في هذه العملية أيضا، إذ ثمة مدن تحتمي بالبحر من أعدائها أو تتخذه منطلقا و مرفأ لعلاقاتها التجارية بغيرها، لذلك اهتمت كثير من المدن القديمة بإقامة المرافيء و الموانيء و عملت على توسيعها و تجديدها مع مرور الزمن وامتداد رقعتها الجغرافية و تنوع أنشطتها البحرية من تجارة ثم قرصنة و قد أضاف هذا العنصر المهم حيوية كبيرة لمدينة الجزائر خلال الوجود التركي بها بدء من القرن السادس عشر الميلادي إذ <<جبذي خير الدين رصيفا للربط بين الجزر الأربعة القديمة....و تابع بناء الميناء القديم لمدينة الجزائر التي كانت تهتز لها فرائص الأروبيين. وقيل أنه تم بناؤه في ظرف ثلاث سنوات ونقل إليه الصخور من آثار مدينة تمنفوست القديمة>>(2) و قد ورد في كتب الرحالين الأروبيين أوصاف كثيرة لمدينة الجزائر موقعا وعمرانا و سكانا وعادات، ويبدو أنها لم تأخذ شكلها المعماري إلا أيام الأتراك فقد << كانت تمتد مـ ن الداخل على سفح الجبل حسب ما كتبه عنها الرحالون الإفرنج و من قصدها وزارها من السواح و التجار من كل مكان إذ نرى البيوت المطلية بالجير الأبيض قائمة على الجبل كما يسميه الأهلون إلى اليوم و هو أعلى أجزاء التل ملتصقة ببعضها

(1) قسنطينة أيام أحمد باي: ص73.
(2) مدينة الجزائر: ص170.

متراصة و تبرزطبقاتها العليا واحدة فوق الأخرى حتى تلتقي عند القمة>>(1) وقد صورها هايدو تصويرا فنيا بارعا إذ << شبه محيطها بقوس ذي وتر حيث كانت المدينة تمتد على المنحدرات الصخرية من القصبة إلى شاطىء البحر.فالقوس هو الجدران و الوتر هو البحر>>(2) إلا أن، هذا الموقع الأصلي للمدينة أخذ يتحول شيئا فشيئا بالتوسع العمراني الذي شهدته المدينة إبان الإحتلال الفرنسي، حتى لم تعد مدينة الجزائر القديمة –أو القصبة حاليا تمثل سوى حي من أحياء العاصمة الأكثر بؤسا و فقرا و حرمانا، بينما خص الأروبيون أنفسهم بأحياء ابتنوها لهم في المناطق المنخفضة بشرق المدينة و غربها، وأدى ذلك أيضا إلى تغير في الوجه المعماري للمدينة، و الأمر نفسه يقال عن مدينتي قسنطينة
ووهران اللتين بقيت فيهما <<المدينة القديمة>> منحسرة في إطارها الأول، بينما أكتسى العمران الجديد الذي بني بعد مجيء الأروبيين منذ 1830 طابعا أروبيا مغايرا تماما للطابع المحلي المعروف بسماته العربية الإسلامية .

واذا عدنا الىالنصوص الروائية التي شملتها هذه الدراسة و تلمسنا حدود التفسير الجغرافي لظاهرة المدينة فيها على ضوء ما تقدم فإننا نخرج بجملة ملاحظات أهمها الآتي :

1- شغف بعض الروائيين بإبراز الجانب الفيزيوغرافي للمدينة في رواياتهم، فرسموا موقعها رسما لا يختلف كثيرا عن ذلك الذي أورده علماء جغرافيا المدن. و يولي رشيد بوجدرة هذا الجانب بعض الإهتمام في روايته: << ليليات إمرأة آرق>> و <<فوضى الأشياء>> إذ يتحدث عن شكل مدينة الجزائر المنحدرمن الجبل باتجاه البحر <<موقعها الجغرافي زرع فيها ميلا بارزا إلى الهاوية أي التوجه الفطري إلى الميناء فاستمرت على حالها و كأنها على وشك السقوط في البحر>>(3)، <<أشاهدها من نافذة (من خلال التوتة المجنونة) متدحرجة،

(1) تاريخ المدن الثلاث –عبد الرحمان الجيلالي– الطبعة الثانية –مطبعة صاري– الجزائر، 1972. ص22.
(2) نفسه.
(3) فوضى الأشياء: ص16.

متدحرجة درجات و مستويات بين البحر و الهضاب صعدا>>(1)، وعني برسم شكل المدينة هذا أيضا الكاتب جيلالي خلاص في روايته <<حمائم الشفق>> حيث خص مدينة الجزائر بأوصاف تنطبق على شكلها و طابعهاالجبلي <<المدينة المحدودبة المنحدرة من قمة الجبل إلى أخمص قدميه حيث يغسل البحر لفحات نيران الأعداء المتربصين بأول غفلة...>>(2)، كما حظي موقع مدينة قسنطينة بإهتمام الروائي الطاهر وطار في رواية الزلزال << نصف مليون برمته، بطمه و طميمه فوق هذه الصخرة>>(3) و نعثر في موقع آخر من الرواية على وصف لموقع المدينة لا يكاد يختلف كثيرا عن وصف فندلين شلوصل لها في كتابه الذي وضعه :<< ثم على الأخدود العظيم الذي يفصل بين ضفتي النهر و يقف حاجزا بين المدينة و بين جزء كبير منها، ثم على الصخرة الملساء المنحدرة مع جانبي الأخدود في نتوءات تتخللها أشجار وغيران>>(4).

2- تشير ثنائية مرزاق بقطاش إلى الموضع الذي كان يتمركز فيه العرب أثناء الإحتلال الفرنسي، حيث كانوا يقيمون في مناطق مرتفعة في أطراف المدينة بمحاذاة الغابة و ليس في قلب المدينة الذي كان يعمره الأوروبيون، بينما تحدد رواية: <<غدا يوم جديد>> بوضوح أيضا مكان تمركز الأوروبيين حيث وردت تسمية <<الحي الأوروبي>> و تقابله القصبة حيا للعرب، وهكذا يلعب العامل التاريخي السياسي دورا كبيرا في تمركز سكان مدينة الجزائر، كما تشير إليه هذه النصوص الروائية.

3- و لا يغيب البحر من أية رواية تناولت مدينة الجزائر إذ نجده حاضرا فيها جميعا، و نجد إشارات إلى الميناء على صورته الحالية مع تغير في الوظيفة التي يؤديها: إذ كان أيام الإحتلال الفرنسي -كما تشير إلى ذلك رواية البزاة- مرسى السفن الحربية التي كانت تفرغ الأسلحة و الجنود الفرنسيين للإبقاء على السيطرة

(1).ليليات إمرأة آرق: ص15.

(2).حمائم الشفق: ص33.

(3).الزلزال: ص14.

(4).نفسه.

العسكرية الفرنسية على الجزائر، و صار اليوم مرفأ للبواخر و السفن المحملة بأصناف البضائع المستوردة من أوروبا و سائر مناطق العالم، و قد يفسر هذا –من زاوية وظائفية المدينة– بتغير في وظيفة مدينة الجزائر، حيث انتقلت من الوظيفة العسكرية الدفاعية إلى الوظيفة الإقتصادية المحضة فضلا عن وظيفتها السياسية كونها: <<المدينة الجزائرية الأكثر جدارة لأداء مهام العاصمة>>(1).

4- و من جهة أخرى تشير ثنائية بقطاش إلى ظاهرة طبيعية هي من صميم علم الجغرافيا تتمثل في تساقط الأمطار، إذ تشير الإحصائيات إلى أن مدينة الجزائر تعرف أكبر كمية من الأمطار بين شهري ديسمبر و فبراير، و الثنائية تصور لنا أجواء المدينة ممطرة، و قد يتواصل المطر فيها أياما كثيرة بلا إنقطاع، ولعل ذلك يعكس بوضوح جانب المناخ في مدينة الجزائر، و هي إشارة لم ترد في كثير من الروايات المدروسة.

و يتضح من خلال هذا أن ثمة نقاط إلتقاء كثيرة بين الروائيين الجزائريين والجغرافيين في التعامل مع المدينة تعاملا ماديا بأبعاده المختلفة: موقعا وفيزيوغرافيا، وعليه ألا يمكن إعتبار ذلك تداخلا بين عمل الروائي وعمل الجغرافي مع تفاضل في الطريقة والأسلوب؟ أو بالأحرى ألا يمكن إعتبار الروائي جغرافيا فضلا عن أنه فنان وعارف بشؤون المجتمع والنفس؟ لكن السؤال الذي لا يمكن أن يطرح حاليا هو: إلى أي مدى يمكن أن يستفيد الجغرافي من أعمال الروائي؟ وهل يمكنه تفسير الظاهرة الجغرافية أو استيعابها من النص الروائي أو الشكل الفني بصفة عامة؟ ولعل التباعد الحاصل بين الجغرافي والروائي –لاسيما من قبل الأول– لا يتيح في الظروف الحالية إمكانات ذلك التفسير، لأنه إذا كان الروائي قد اقتنع بجدوى دراسة الجغرافيا و توظيفها في مجاله الإبداعي فإن الجغرافي لما يصل –فيما يبدو– إلى هذه القناعة.

---

(1). المخطط التوجيهي العام لمدينة الجزائر: ص9.

3- المدينة في الرواية الجزائرية على ضوء التاريخ:

ومن الناحية التاريخية: فإن المدينة في الرواية الجزائرية لا تنفصم عن جذورها التاريخية، فهي حية بالتاريخ و بالأسطورة أيضا، و قد حظيت بعض المدن الجزائرية بإهتمام بعض المؤرخين و الرحالة العرب قديما فذكروها في مؤلفاتهم، و لعل من أهم المدن التي خصت بهذا الإهتمام المدن الثلاث التي كانت محط اهتمام الروائيين الجزائريين أيضا و هي: الجزائر وقسنطينة ووهران، فقد ذكر البكري(1) مدينة الجزائر وأورد لها وصفا منه: << وهي مدينة جليلة قديمة البنيان، فيها آثار للأول وأزاج محكمة تدل على أنها كانت دار ملك لسالف الأمم...و لها أسواق و مسجد وجامع... ومرساها مأمون له عين عذبة يقصد إليها أهل السفن من إفريقية و الأندلس وغيرهما>>(2)، و ذكرها الإدريسي (3) بقوله: << ومدينة الجزائر على ضفة البحر وشرب أهلها من عيون عذبة على البحر ومن آبار، وهي عامرة آهلة و تجارتها مربحة وأسواقها قائمة وصناعاتها نافعة>>(4) و ذكرها أيضا ياقوت الحموي في معجمه وابن سعيد وغيرهما، وممن وصفها من المحدثين نقولا زيادة << مدينة تعتمد إلى تلال تكلأها. وتلقي عليها غاباتها ظلالها و تطل عليها حنوا و عطفا...أقام الإنسان أول مأوى فيها قبل آلاف السنين و بلغت القمة في تاريخها غير مرة، فعرفت الرفعة والثراء، وخبرت الضعة و الفقر. لكنها في كل حال ظلت مرفوعة الرأس. منتصبة القامة تؤثر الشرف على الإستكانة>>(5).

و قد حظيت مدينة قسنطينة بوصف مسهب من قبل الإدريسي في نزهته إذ يذكر أن <<مدينة قسنطينة عامرة و بها أسواق و تجار و أهلها مياسير ذوو مال و أحوال واسعة...و العسل بها كثير، و كذلك السمن...و مدينة قسنطينة على قطعة جبل منقطع مربع فيه بعض الإستدارة...يحيط بها الوادي من جميع جهاتها

(1).هو أبو عبد الله البكري، من أشهر جغرافيي القرن الخامس الهجري وله كتاب: المغرب في ذكر بلاد المغرب.

(2).البكري نقلا عن: المدن العربية -إسماعيل العربي- ص160-161 -المؤسسة الوطنية للكتاب- 1984.

(3).هو أبو عبد الله محمد بن محمد المعروف بالشريف الإدريسي. ولد سنة حوالي 1100م وله كتاب مشهور: نزهة المشتاق في إختراق الآفاق. توفي عام 1180م.

(4).المدن المغربية: ص161.

(5).المدن العربية -نقولا زيادة- الطبعة الأولى -دار الطليعة- بيروت.1965. ص59.

كالعقد مستديرا بها>>(1) ثم يسهب في وصف أبوابها وديارها وقناطرها ومايشكلها من أقواس، وجوها و حصانتها. وذكرها ياقوت الحموي بقوله: <<قسنطينة...مدينة و قلعة يقال لها قسنطينة الهواء،و هي قلعة كبيرة جدا حصينة عاليةلا يصلها الطير إلا بجهد>>(2). وذكرها أيضا غير هذين كابن سعيد والقلقشندي وابن حوقل وكثير آخرون ممن تحدثوا عن هذه المدينة و أعجبوا بموقعها المتميز وما يمثل من مناعة لأهلها تقوم حاجزا دون الغزوات والهجمات، ولعله كان لهذا الموقع ذاته دور هام في صمود قسنطينة عاما كاملا في وجه الحصار الذي ضرب عليها من قبل << الفرنسيين الذين ظلوا يحاصرونها من 1836 إلى 1837، ثم دفعوا بدماء الجنرال دامرمون، قربانا للوادي>>(3).

و كان لمدينة وهران حظ كذلك في كتب الرحالة و الجغرافيين و المؤرخين العرب قديما فقد ذكرها البكري بقوله << مدينة وهران حصينة ذات مياه سائحة وأرجاء ماء وبساتين و لها مسجد وجامع، وبنى مدينة وهران محمد بن أبي عون ومحمد بن عيدون وجماعة من الأندلسيين البحريين>>(4). أما الإدريسي فيقول فيها: << ووهران على مقربة ضفة البحر وعليها سور تراب متقن وبها أسواق مقدرة وصنائع كثيرة وتجارة نافعة، وهي تقابل مدينة المرية من ساحل بر الأندلس... وأهلها في خصب، والعسل بها موجود وكذلك السمن والزبد والبقر والغنم بها رخيصة بالثمن اليسير، ومواكب الأندلس إليها مختلفة، وفي أهلها دهقنة وعزة أنفس و نخوة>>(5) أما ياقوت فقال أنها <<مدينة صغيرة على ضفة البحر وأكثر أهلها تجار لا يعدو نفعهم أنفسهم>>(6).

و يروي بعض المؤرخين قصة تأسيس مدينة الجزائر هي إلى الأسطورة أقرب و سأوردها كما تناقلتها المصادر إذ يروي أن <<هرقل الإله الروماني صحبه في إحدى سفراته عشرون نفرا بقصد الوصول إلى الغرب ليفصل بين شبه

---

(1).عن المرجع السابق: ص192.

(2).المرجع السابق: ص193.

(3).جريدة جسور -العدد الأول- 18 أكتوبر 1990 -مقال للطاهر وطار بعنوان: حبيبتي إسمها قسنطينة. ص24.

(4).عن المدن المغربية: ص140.

(5).المرجع السابق: ص141.

(6).نفسه.

جزيرة إيبيريا و المغرب و كان القسمان متصلين و لما وصل هرقل إلى مكان الجزائر للإراحة مع صحبه العشرين أعجبوا بالمكان فانفصلوا عنه، وظلوا هناك أما هو فقد سار غربا نحو جبل طارق ومن هنا تسمية مضيق جبل طارق بأعمدة هرقل. أما النفر العشرون الذين انفصلوا عنه فقد أسسوا على البر بلدا سميت الجزائر بإسمهم أي مدينة العشرين>>(1).

و بعد العرض الموجز للجانب التاريخي للمدن الجزائرية الثلاث الكبرى كما قدمتها لنا كتب المؤرخين و الرحالة يمكننا تلمس حدود <<التاريخي>> في الروايات الجزائرية المدروسة إلى أي حد نظر الروائي إلى المدينة التي يتناولها نظرة تاريخية؟ أو بمعنى آخر: ما درجة حضور إو غياب تاريخ المدينة في الرواية العربية الجزائرية؟.

يفضي استقصاء النصوص الروائية المدروسة إلى استخلاص جملة من الملاحظات نورد منها:

1- إن التاريخ -موضوعا متصلا بالمدينة- لم يشكل هاجس جل الروائيين الجزائريين، فقد صرفهم الحاضر و مشكلاته عن جذور المدينة ماضيا ولذلك لم يول هذا الجانب اهتماما ما سوى البعض منهم. لقد حاول وطار في رواية <<الزلزال>> الإستعانة بهذا العنصر الحاضر أبدا في مدينة قسنطينة، لكن توظيفه لم يكن على نحو معمق يتيح إمكانية تفسير واقع المدينة المتردي -آنذاك- اجتماعيا و سياسيا تفسيرا تاريخيا يبحث عن الأسباب الحقيقة للظاهرة، وامتداد التاريخ لم يتعد في الرواية عقد الفترة الإستعمارية. بينما لم يربط رشيد بوجدرة أحداث التاريخ بالمدينة ربطا مباشرا، إذ لم يكن استحضاره في << ليليات إمرأة آرق>> إلا استجابة لنشوة عابرة اكتنفت أخ البطلة فأراد أن يزيح ما أصابه من غم بإكتشاف جذور الإنتماء فيما تبقى من آثار الحضارة الإسلامية في المشرق والمغرب، لكن التاريخ يبقى مجرد صورة لا تتصل بواقع المدينة إتصالا وثيقا.

(1).تاريخ مدينة الجزائر -أحمد السليماني- ديوان المطبوعات الجامعية -الجزائر- 1989. ص5.

2- يستطرد الأعرج واسيني في روايته <<وقائع من أوجاع رجل غامر صوب البحر>> في ذكر بعض الأحداث التاريخية التي عرفتها مدن أخرى كباريس وثورة <<الكومنة>> بها، والشيلي وما شهدته من قمع واضطهاد، ولكنه يضرب صفحا عن تاريخ المدينة التي تعلق بها وأجبر على تركها.

3- نجد الإشارة إلى مدينة الجزائر واضحة في ثلاثة نصوص، ففي <<دبان الصبح>> يقف الكاتب لحظة لإسترجاع ماضي المدينة الحافل بالصمود والمقاومة <<المدينة التي صمدت للغزو وعاشت مختلف الحضارات و التجارب الإنسانية فأخذت و أعطت و بقيت شامخة عظيمة، المدينة التي جعل منها موقعها الطبيعي قطعة فنية بديعة>>(1) كما يثني مرزاق بقطاش من خلال وعي الطفل <<مراد>> على مقاومة المدينة للغزو الفرنسي غداة الإحتلال في<<رواية البزاة>>: <<فقد بات ساكنو القصبة ليلتهم في خوف من الجحافل الفرنسية غير أن جماعة المجاهدين التي اجتمعت وراء أسوار البرج طمأنت السكان وعقدت العزم على مواجهة تلك الجحافل أو الموت دفاعا عن المدينة>>(2).

4- وخير نموذج روائي أولى صاحبه الجانب التاريخي للمدينة أكبر عناية هو: <<حمائم الشفق>> التي ربط فيها الكاتب بتقنية ماهرة ماضي مدينة الجزائر بحاضرها، وتاريخها بعمرانها وجغرافيتها، و نشير إلى أنه يستخلص منها كثير من التلميحات إلى بعض الأحداث التاريخية كما ترويها كتب التاريخ من ذلك الحملات الأروبية التي تعاقبت على مدينة الجزائر قبل الحملة الفرنسية عام 1830م. و التي كان أشهرها حملتا شارل الخامس الأولى و الثانية، ثم الإشارة إلى حادثة الإنزال الفرنسي بشواطىء سيدي فرج و ما عقب ذلك من مقاومة السكان للغزاة وخيانة بعض الحكام و الدايات و الآغوات المتعاقبين على حكم مدينة الجزائر، وقد أثبتت كتب التاريخ هذه الخيانة أيضا و الفساد الذي كان مستشريا في قصور من ظنهم الشعب ولاة أمره و إذا هم يسلمون المدينة التي

---

(1) دبان الصبح: ص27.
(2). البزاة: ص56.

أحسنت إليهم بسماحة أهلها الذين قيل عنهم أنهم <<صريحون وصادقون ولا يعرفون الحقد ولا البغضاء وهم كرماء في أعمالهم يحترمون الجيران كما لو أنهم أقرباء>>(1). وسأورد فيما يلي بعض النماذج من الرواية وأخرى من التاريخ لأستدل بها على التقارب الكبير بين الرواية والتاريخ في <<حمائم الشفق>>.

فقد وردت في الرواية إشارة مسهبة إلى نزول جيش الغزاة المقدر بحوالي سبعين ألفا بغرب المدينة، و هو تلميح إلى منطقة سيدي فرج التي نزل بها الجيش الفرنسي الغازي عام 1830، و تلك حقيقة تؤكدها كل المصادر التاريخية.

وتشير الرواية أيضا إلى طبائع حكام الجزائر وما عرفوا به من خيانة وتبعية لأعداء الشعب ومن ذلك: << شيخ المدينة أبرم اتفاقية الإستسلام باع المدينة العذراء مقابل تمكينه من مغادرة أسوارها من ثقبة مفتاح بابها الشرقي حاملا ماكنزته صنادقه من غنائم>>(2) و لذلك أمثلة من تاريخ الجزائر القديم والحديث،إذ يذكر انه <<و في سنة 40 ميلادية كان يحكم الجزائر ملك بربري من صنيعة الرومان هو بطليموس بن يوبا الثاني الذي تشبع بالعادات الرومانية والتقاليد الأجنبية>>(3)، ثم رواية سالم التومي الذي ذهب صحبة أمير تنس أبي عبد الله إلى الملك الإسباني فرنندو لابارم معاهدة الإستسلام و الخضوع بعد توالي سقوط المدن الجزائرية الأخرى في أيديهم: يقول النص التاريخي: <<واجتمع الملكان الذليلان بملك إسبانيا دون فرناندو فيمدينة<<بيرج>> ودارت بينهما المحادثات التي انتهت بقبول الجزائر دفع غرامة سنوية للإسبان والسماح لبيدرو نافارو [قائد الجيوش الإسبانية] بإنشاء حصن الصخرة فوق إحدى جزر مدينة الجزائر على بعد 300 م من باب البحر>>(4)، و قد كانت نهاية هذا الخائن على يد عروج الذي قضى عليه هو و أتباعه ممن أرادوا أن يؤلبوا الناس على الأتراك بعدما أدرك أن مقام الزعامة الذي كان يتمتع به قد زال مع حكم الأخوين عروج وخير الدين.

---

(1).المرآة -حمدان خوجة- تعريف:د.محمد العربي الزبيري -الطبعة الثانية- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. 1982. ص102-103.

(2).حمائم الشفق: ص160.

(3).مدينة الجزائر: ص154.

(4).المرجع السابق: ص163.

4-المدينة في الرواية الجزائرية على ضوء الفلسفة:

و لم يقف الإهتمام بالمدينة عند علماء الاجتماع و الجغرافيين والمؤرخين، بل تعداه إلى كثير من الفلاسفة الذين قادهم تفكيرهم العميق وتأملهم في الحياة والوجود من حولهم إلى مدينة أخرى تنعدم فيها الشرور والآثام ويجد الإنسان سعادته المطلقة، مدينة للخير وحده، لا مجال فيها للشيطان، وهذه الفكرة قديمة ظهرت مع أفلاطون في <<جمهوريته>> وامتدت على مر العصور المتعاقبة إلى أن وصلت إلى ما يعرف اليوم بمدينة الغد أو مدينة المستقبل، وقد اتخذت أسماء كثيرة مثل <<المدينة الفاضلة>> عند أفلاطون والفرابي و<<مدينة الله>> عند القديس أوغستين و (اليوتوبيا) او المدينة المثالية الفاضلة عند توماس مور(1478-1525م) الذي رحل بخياله <<إلى جزيرة مثالية متخيلة أسس فيها نظاما اجتماعيا وتربويا يكفل السعادة و الوئام و قسمها إلى ما يقرب من خمسين مدينة تعيش في كل منها أسر متساوية في عددها و متشابهة في أعرافها وتقاليدها>>(1) ثم ظهرت <<المحاولة الثانية (أطلنطا الجديدة) كانت لمؤسس المنهج التجريبي فرنسيس بيكون(1561-1626م) الذي صدر عن فلسفته التجريبية فلم يقم مدينته على المثال الأخلاقي و إنما أقامها على العمل وجعل حكمها للعلماء>>(2) ومع أوائل القرن السابع عشر الميلادي ظهرت محاولة (مدينة الشمس) للشاعر الإيطالي توماس كامبانيلا(1568-1629م) الذي <<جعل العمل الجبري أساسا في مدينته، كما جعل نبلاءها هم العمال وجعل حكمها للفلاسفة>>(3).

ومن الفلاسفة المسلمين الذين اهتموا بعالم المدينة المثالية الفارابي الذي نجد المدينة عنده <<معلقة إلى النظر الإلهي فلا يروج فيها من الخيال إلا بمقدار محاكاته للحقيقة>>(4) وللمدينة الفاضلة عنده أجزاء خمسة هي <<الأفاضل،

---

(1).مقدمة في نظرية الأدب -عبد المنعم تليمة- ص57-58.

(2).المرجع السابق: ص58.

(3).نفسه.

(4).المدينة والخيال -محمد محجوب- الطبعة الأولى -دار العهد الجديد- تونس.1989. ص44.

وذوو الألسنة، والمقدرون، والمتعقلون، وذوو الآراء في الأمور العظام، ثم حملة الدين وذوو الألسنة وهم الخطباء والبلغاء والشعراء والملحنون والكتاب ومن يجري مجراهم>>(1).

و يضاد المدينة الفاضلة في فلسفة الفارابي: المدينة الجاهلة و المدينة الفاسقة والمدينة المبدلة والمدينة الضالة، و لكل هذه المدن خصائصها التي بها تعرف، وكلها خصائص ذميمة كالخسة و الشقوة -فالمدينة الفاسقة مثلا هي <<التي آراؤها الآراء الفاضلة و هي التي تعلم السعادة و الله عز و جل والثواني والعقل الفعال و كل شيء سبيله أن يعلمه أهل المدينة الفاضلة و يعتقدونه ولكن تكون أفعالها أفعال المدينة الجاهلة>>(2).

و من ملامح مدينة المستقبل التي يكثر الحديث عنها مع التطور التكنولوجي الهائل الذي بلغته الحضارة الغربية <<كما تظهر بوسائل نقل رأسية ذات خط وأرصفة متحركة و ناقلات طائرات. لم يعد أحد يتواصل مع جواره، لم يعد أحد يمتلك فرديته أو أية هوية>>(3).

و لا شك في أن هذه الأنواع من المدن المثالية أو الفاضلة تقوم كلها على أساس من الخيال ولعل أهم دافع إلى التفكير فيها ورسم حدودها ومعالمها وشروطها إلتي لاتتحقق إلا في الفلسفة المثالية: هو الهروب من واقع يئس الفلاسفة من إصلاحه بأفكارهم وحكمتهم ، والبحث عن بديل لحياة الشرور والآثام تلك التي كان يحياها المجتمع من حولهم، وهو موقف يعبر، من جهة أخرى، عن رفض و اقع كائن شكله الإنسان بأنانيته وطغيانه و ماديته واقتراح ما ينبغي أن يكون، لذلك آثر أولئك الفلاسفة العيش في عالم لا يمكن أن يصل إليه الإنسان بأبعاده البشرية المتناقضة التي فطره عليها الله عز و جل.

---

(1)..لمرجع السابق: ص46.

(2).المدينة الفاضلة: ص82

(3).الأسطورة والرواية -ميشال زيرافا- ترجمة -صبحي جديدي- دار الحوار -اللاذقية- 1985. ص64.

و موقف الهروب من المدينة و رفضها وارد في النصوص الروائية الجزائرية التي قدمنا كما ورد بعض ما ينطبق على التصنيفات التي وضعها الفارابي للمدن التي تضاد المدينة الفاضلة، ولعل من أبرز هذه النماذج مدينة الأعرج واسيني الظالم أهلها التي يمكن أن نجد صورة لها "المدينة الجاهلة" من مدن الفارابي، ومن أوصافها << لم يعرف أهلها السعادة.. وإنما عرفوا من الخيرات بعض التي هي مظنونة في الظاهرأنها خيرات من التي يظن أنها هي الغايات في الحياة، وهي سلامة الأبدان، و اليسار، و التمتع با للذات...>>(1). ومدينة رشيد بوجدرة التي هي مدينة الفوضى، تشبه ملامحها و أفعالها في القديم آراء المدينة الفاضلة وأفعالها، غير أنها تبدلت فدخلت فيها آراء غير تلك واستحالت أفعالها إلى غير تلك>>(2).

و تشبه مدينة قسنطينة كما يقدمها الطاهر وطار في رواية الزلزال صورة المدينة البدالة إحدى مدن المدينة الجاهلة <<وهي التي قصد أهلها إلى أن يتعاونوا على بلوغ اليسار والثروة ينتفعوا باليسار في شيء آخر لكن على أن اليسار هو الغاية في الحياة>>(3). وتشبه في موضع آخر مدينة <<الخسة و الشقوة>>: <<و هي التي قصد أهلها التمتع باللذة من المأكول والمشروب والمنكوح وبالجملة من المحسوس والمتخيل، وإيثار الهزل و اللعب بكل وجه ومن كل نحو>>(4) وتبقى <<المدينة الفاضلة>> في خيال الروائيين حلما كبيرا بعيد المنال، و تحقيقه لا بد أن يبدأ من تحطيم هذه المدينة القائمة وزلزلتها، وهو ما يتمناه عبد المجيد بوالأرواح في <<الزلزال>> و يتنبأ به كل من رشيد بوجدرة في <<التفكك>> والأعرج واسيني في <<وقائع من أوجاع رجل غامر صوب البحر>> ويأتي الزلزال في <<فوضى الأشياء>> لكنه لا يغير كثيرا من وجهها أو بالأحرى فهو لا

(1).المدينة الفاضلة: ص77.

(2).المرجع السابق: ص83

(3).المرجع السابق: ص78.

(4).نفسه.

يعطي المدينة ذلك الوجه الذي رغب فيه رشيد بوجدرة، حيث تصير أكثر قتامة وقذارة و فوضى مما كانت عليه.

و ما نخلص إليه في خاتمة هذا الفصل:

1- للمدينة حضور قوي في الرواية العربية الجزائرية، ولاسيما في النصوص التي اختيرت نماذج للدراسة.

2- إن الأصل الريفي لمعظم الروائيين الجزائريين كان من أكبر الدوافع التي أدت بهم إلى أن يتخذوا من المدينة موضوعا لهم.

3- لقد تفاوت تعامل الروائيين الجزائريين مع المدينة رؤية و تناولا، فمنهم من تحدث عنها لذاتها، باعتبارها مكانا للأحداث، و منهم من حملها دلالات تاريخية ورمزية.

4- ارتبطت صورة المدينة في ذهن معظم الكتاب بقيم مختلفة، يحدد نوع كل منها على ضوء التصورات و المنطلقات.

5- تعددت الزوايا التي نظر منها الروائيون إلى المدينة: فمنهم من اكتفى بالوصف السطحي الظاهر الذي يشبه وصف الرحالة العابرين والجغرافيين، ومنهم من حاول أن يلج إلى عمق المدينة فيقف على معاناة الإنسان فيها، ومعاناتها هي منه.

6- لم يستطع بعض الروائيين التخلص من الموقف الإيديولوجي حتى وهم يتعاملون مع عنصر، هو إلى المادية أقرب.

7- قلة هم الروائيين الذين اهتموا بالجانب المعماري للمدينة، فوصفوا بعض أجزائها وصفا <<تشكيليا>> يتيح إمكانية التقارب بين الرواية و الفن التشكيلي.

8- تصور معظم النصوص الروائية المدروسة ثلاث مدن جزائرية كبرى هي: الجزائر، وهران، قسنطينة، وحظيت مدينة <<الجزائر>> بالقسط الأكبر من المساحة التي حظيت بها المدينة في الرواية الجزائرية العربية.

9- تشكل المدينة في معظم النصوص المدروسة مصدرا للقلق و الإزعاج والتفكك في النظم الإجتماعية، و عزلة الفرد لذلك يصب عليها الكتاب نقمتهم ولعنتهم ويتمنون زوالها.

10- ارتبطت المدينة لدى بعض الكتاب بالسياسة و لدى آخرين بالتاريخ أو المجتمع، و جمعت قلة قليلة بين بعدين: سياسية و تاريخية.

11- ترسم صورة المدينة لدى جل الروائيين من خلال المقارنة بين ملامحها ماضيا و حاضرا و غالبا ما تؤدي هذه المقارنة إلى استنتاج ملاحظة تغير صورة المدينة نحو السلب غالبا.

12-لايحدد الروائيون ملامح للمدينة الخيالية التي ينبغي أن تكون تحديدا مباشرا، بل يكتفون برفض مدينة الواقع، أي أنهم حين يسخطون على المدينة التي جلبت لهم القلق و الشرور، فإنهم لا يرسمون صورة المدينة -البديل- أو المدينة الحلم.

الفصل الثاني

علاقات المدينة من خلال الرواية الجزائرية العربية

واضح أن موضوع المدينة في الرواية العربية الجزائرية لم يرد مفصولا على أحد من الأبعاد الأربعة: البعد الإنساني و البعد القيمي و البعد المكاني والبعد الزماني، و هذا يعني، بصورة أعمق، أن المدينة مجردة من هذه الأبعاد، لايمكن أن يكون لها أي مدلول بشكل من الأشكال، و لهذا رأينا أن الروائيين الجزائريين قد اهتموا بهذه الظاهرة من نواحي متعددة، وقليل هم الذين قدموها مكانا مناقضا للظاهرة القروية أو الريفية.

و سأحاول في هذا الفصل، إن شاء الله، أن أقف عند أهم العلاقات التي تربط المدينة بالعناصر المختلفة، و أبين في الوقت ذاته نوعية هذه العلاقات معتمدا على تفسيرات علماء الإجتماع في بعض المواضع التي تستدعي ذلك. و تصنف علاقات المدينة العناصر المرتبطة بها بالنظر إلى الأهمية المتبادلة بين كل عنصر و بين المدينة، و بالنظر إلى حجم كل عنصر في النصوص الروائية التي وردت فيها الإشارة إلى نوع ما من أنواع هذه العلاقات. و قد تحددت للمدينة، على ضوء هذه النصوص خمسة أصناف من العلاقات هي كالتالي:

1- علاقة الإنسان بالمدينة.

2- علاقة المدينة بالتاريخ.

3- علاقة المدينة بالثورة.

4- علاقة المدينة بالريف.

5- علاقة المدينة بالزمن.

و هذه الأصناف الخمسة مستنبطة، من ناحية أخرى، من الأبعاد الأربعة التي تتصل بالمدينة. كما سبقت الإشارة إلى ذلك، و لذلك يمكننا صياغة هذا التصنيف المزدوج كما يلي:

1- يتحدد البعد الإنساني للمدينة في علاقة الإنسان بها، و ذلك نظرا إلى أن الإنسان هو صانع المدينة، وهي صانعته أيضا.

2- يتحدد البعد القيمي للمدينة في الصنفين الثاني و الثالث: إذ نجد أن التاريخ والثورة قيمتان لا تخلو منهما المدينة في الرواية العربية الجزائرية.

3- أما البعد المكاني فيتحدد في العلاقة بين المدينة و الريف من حيث أنهما مكانان متناقضان متكاملان في الوقت ذاته.

4- و للمدينة في الرواية الجزائرية علاقة خاصة بالزمن، هذا العنصر الذي تؤدي خاصية التغير التي يمتاز بها إلى تغير في ملامح المدينة ظاهرا وباطنا.

و الأهم بعد هذا: إلى أي مدى استطاعت الرواية الجزائرية أن تقترب من هموم الإنسان و واقعه في المدينة؟ و ما هي حدود العلاقات بين المدينة والعناصر الأخرى؟

1.الإنسان و المدينة :

علاقة الإنسان بالمدينة قديمة، و ليست المدينة أصلا في تعمير الأنسان الأرض، بل إنها لا تمثل سوى مرحلة متأخرة من صراع الإنسان مع الطبيعة من أجل استغلال المكان، و قد توخى الإنسان في المدينة موضع الأمن الذي يوفر عليه بذل الجهد الكثير و المتواصل لتأمين نفسه و أسرته من الجوع و عوامل الطبيعة و الخوف، و لذلك كانت علاقته بها منذ البدء نفعية، ثم صارت فيما بعد، و قد توفر له كل ما يحتاج، تجنح إلى البحث عن الرفاهية وجوانب العيش الكماليةالتي تجلب إليه مزيدا من السعادة. لذلك أصبحت المدينة مطلب الإنسان، لاسيما الإنسان الريفي الذي أضناه شظف العيش و أبعدته طبيعة المكان عن مستجدات الزمان، ولأن الإنسان مجبول على حب الإرتقاء و التطور الذي لا يوفره عنصر المكان وحده فقد شهدت المدينة نزوحا هائلا لسكان الأرياف والبوادي والمدن الصغيرة التي لم تؤت نصيبا كبيرا مما توفرت عليه المدن الكبيرة ولذلك بدأت حركة <<الهروب من المزرعة إلى المدينة لما فيها من صخب وتنوع وحياة ليلية، وفرص إقتصادية وتسهيلات جمالية وترويحية>>(1)، واستقرت أعداد هائلة من الريفين في المدن الكبرى منتحية

(1).الإنسان في المجتمع: ص162.

مداخلها و أطرافها، و قد نتج عن هذا التركز مظاهر لا تمثل الوجه الحقيقي للمدينة، وانعكس هذا الوضع على الإنسان ذاته، و العلاقات الإجتماعية بين مختلف الجماعات سواء الوافدة منها على المدينة فيما بينها، أو بينها جميعا وبين السكان الأوائل الذين استوطنوا المدينة، فعانى الإنسان الإغتراب الذاتي والعزلة والضيق و عانت المدينة كلها من الإكتظاظ والقذارة و تشويه مناظرها.

و لم تشذ المدن الجزائرية عن هذه القاعدة، فليست المدينة ظاهرة حضرية جديدة على الإنسان الجزائري، إذ ارتبط وجوده بها منذ القديم، حيث أنشأت في مواقع مختلفة: منها ما هو على البحار، و منها ما هو في الصحراء، ومنها ما هو على الجبل، ومنها ما هو على السهول وفي المنخفضات، و هاجر إليها طلبا للرزق و هروبا من شظف العيش لاسيما في السنوات العجاف التي كانت الأرياف تشهد فيها جفافا في الزرع و الضرع، إلا أن أهم الهجرات كانت تلك التي عرفها الإنسان الجزائري بعد الإستقلال الوطني منذ سنة 1962، حيث شهدت المدن الجزائرية الكبرى حركة هجرة و نزوح هائلة كانت لها، فيما بعد، إنعكاسات خطيرة على مختلف مجالات الحياة: الإجتماعية و الإقتصادية والصحية والإدارية. و قد أدت هذه الهجرة إلى مضاعفات خطيرة أهمها: زيادة عدد السكان إذ تشير الإحصاءات إلى أن مدينة الجزائر، مثلا، عرفت زيادة هائلة في عدد سكانها منذ أن بدؤوا في مرحلة النمو التي وفرها إستقرار المدينة السياسي أيام الوجود العثماني إذ كان يتراوح عددهم آنذاك بين 20.000 و 50.000 نسمة (1) وارتفع هذا العدد ليصل إلى "869.000 نسمة سنة 1960 من بينهم 311.000 أروبي"(2)، و في سنة 1966 بلغ عدد سكان العاصمة حوالي 960.000 نسمة، ليصلوا إلى 1700.000 نسمة عام 1975 (3) و توقعت الدراسات التي أجريت

---

(1).مدينة الجزائر: ص250-251.

(2).العائلة الجزائرية: ص90.

(3).المخطط التوجيهي العام لمدينة الجزائر: ص9.

في هذه السنة أن يصل العدد إلى 4,5مليون نسمة في حدود عام 2000، بينما <<الجزائر مدينة بإمكانها استقبال 800.000نسمة>>(1).

و شهدت الوضعية نفسها أيضا مدينتا قسنطينة و وهران: لاسيما في فترة مابعد الإستقلال الوطني.

و هذه الظاهرة قد أسهمت في جوانب كبيرة منها حركة النزوح الريفي أو هجرة الإنسان إلى المدينة هروبا إليها من الريف، و هي كما يبدو، من خلال الدراسات الإجتماعية ظاهرة عامة تشهدها معظم مدن العالم ذات الإمكانات الإقتصادية و الحضارية الهائلة الكفيلة باستقطاب إنسان غير المدينة إليها. فما هي تفسيرات علم الإجتماع لهذه الظاهرة؟ ماهي الدوافع الكامنة وراء هجرة الإنسان من الريف أو المدن الصغرى إلى المدن الكبيرة؟.

من وجهة نظر علم الإجتماع الريفي و الحضري، يمكن إرجاع هذه الحركة إلى نوعين من الدوافع.

(أ) الدوافع المادية: إذ أن<< المدينة لها خاصية الجذب مما فيها من مظاهر العظمة والترفيه وفرص العمل مما يدعو الكثير إلى التمسك بحياة المدينة وهجر الريف الذي أصبح لا يطاق من وجهة نظر البعض>>(2)، وخاصية الجذب هذه أو ما يمكن أن نطلق عليه أيضاإغراء المدينة ترجع إلى <<المعلومات التي تروج عن المزايا -أو على الأقل- المزايا -المزعومة- للحياة في المدينة...فالطرق المرصوفة الجيدة، و الراديو، وممثلوالحكومة...وغير ذلك من مؤثرات الإتصال تؤثر إلى أبعد حد في طبيعة و نوعية المعلومات التي ترد إلى المناطق الريفية عن المدينة>>(3)، فالإنسان الريفي ينجذب إلى المدينة بدافع مادي إذ يطمح إلى أن يصيب مما تزخر به مما ليس متوفرا عنده في الريف، ويكون ذلك غالبا:

---

(1).العائلة الجزائرية: ص91.

(2).علم الإجتماع الحضري: ص99.

(3).دراسات في علم الإجتماع الريفي والحضري: ص62.

البحث عن فرصة للعمل وإدخار بعض الأموال التي تسمح له بتحسين مستوى معيشته وأوضاعه الإجتماعية إذ أن << المداخيل لدى الحضر، في جملتها، أكثر إرتفاعا وأكثر إنتظاما منها لدى الريفيين...هذه الإختلافات في الأجور تؤلف عاملا قويا للحركة، فالريفيون يعرفون هذه الإختلافات التي تدفعهم إلى سلوك عدة أنواع من الهجرة، الإنطلاق من الريف نحو المدن المجاورة و من المدن الصغيرة نحو المدن الأكبر>>(1).

ب: الدوافع النفسية: و غالبا ماتقف وراء تلك الدوافع المادية دوافع نفسية يتصدرها الشعور بالضجرو الملل من حياة الريف الرتيبة حيث المجال الحركي محدود و حيث الوظائف التي يقوم بها الإنسان متشابهة و الناس معروفون، لا يكاد المرء يرى في يومه إلا وجوها واحدة، و هذا الشعور بالضجر يدفع إلى التفكير في تغيير سلوك حياته و نمط معيشته والبحث عن مجال أرحب للحركة يبيح له التمتع بنكهة التغير المستمر للزمن و النشاط والوجوه <<لأن المدينة تهيء كل الظروف الضرورية لأنواع معينة من التغير التي تتعلق بالسلوك الجمعي>>(2).

و المدينة أيضا، بالنسبة إلى الريف مجال يتخلص فيه من رتابة العيش التي عانى ويلاتها في قريته لأن: <<في المدينة..الروابط و العلاقات الريفية التقليدية لا تكون ظاهرة و بالتالي تتاح للأفراد بعض الحرية للتعبير عن الرأي والإحساس بالخلخلة الموجودة في النظام..>>(3)، و إلى جانب هذا يتحرك الريفي باتجاه المدينة بدافع <<تحضيري>> إذ يسعى إلى تغيير نمط حياته و تفكيره والإنتقال بشخصيته من طور <<البداوة>> إلى طور<<التحضر>>، فهويطمح إلى تقليص الهوة بينه و بين الحضري و الحصول على إمكانات أكبر للإرتقاء في السلوك

---

(1).الجغرافيا الحضرية: ص311.

(2).علم الإجتماع الحضري: ص61.

(3).المرجع السابق: ص98.

بمظاهره المختلفة <<فالوسط الحضري يعطي للفرد كما يعطي للجماعة برمتها إمكانيات النمو و التطور الذي لا يجود به أبدا الوسط الريفي. بالنسبة للفرد: الريف عالم مغلق ضيق فيه كل واحد يعرف الآخر و بالتالي فرص الإرتقاء الإجتماعي محدودة للغاية...المدينة على العكس من هذا فهي وسط للتطور والتحول>>(1).

و ليس في الإمكان الفصل بين الدوافع المادية و الدوافع النفسية في حركة الهجرة إلى المدينة للتداخل الواضح بينهما، إلا أن ما يمكن قوله بتعبير علماء الإجتماع أن المدينة ظلت منذ القديم عنصر "جذب" بما تتوافر عليه من إمكانات العيش و وسائل الترفيه و الرقي، وظل الريف مكان "طرد" لدى البعض ممن شغفوا بعالم المدينة المغري.

_ و في مجال الابداع الادبي، اهتمت الرواية بهذه الظاهرة أكثر من سائر الأجناس الأدبية، نظرا إلى ان الرواية أكثر هذه الأجناس التصاقا بالمجتمع وتعبيرا عن واقعه و مشكلاته وعلاقاته و تحولاته، <<و مع بداية السبعينات ظهرت الرواية العربية الناضجة في ظل الشروط الجديدة التي وفرها الإستقلال الوطني>>(2) فرصدت لكثير من جوانب واقع المجتمع الجزائري خلال هذه الحقبة وما سبقها. ولقد اهتم الكتاب بكثير من قضايا هذا المجتمع ورسموا حدود المعاناة والامال لدى الفرد سيما في عالم المدينة الذي يعتبر مظهرا لتحول الإنسان الجزائري، ومن بين هذه القضايا: ظاهرة الهجرة إلى المدينة التي نجد الإشارة إليها في ستة نصوص روائية من ضمن الاثني عشر نصا هي: <<غدا يوم جديد>> لعبد الحميد بن هدوقة، <<وقائع من اوجاع رجل غامر صوب البحر>> للأعرج واسيني، <<التفكك>> و<<فوضى الأشياء>> لرشيد بوجدرة، <<حمائم الشفق>> و<<رائحة الكلب>> الجيلالي خلاص. وإذا كانت الرواية نوعا من التحليل الإجتماعي للواقع، أو الرصد الواقعي للمجتمع، فإن ذلك لا يمنعها

(1).الجغرافيا الحضرية: ص322.

(2).الشخصية الدينية في روايات الطاهر وطار -بن جدو موسى- رسالة مخطوطة بجامعة الجزائر -سنة1990- ص15.

دور الدراسة العلمية للظاهرة الاجتماعية، كما هو الشأن في <<علم الاجتماع>> مثلا، إذ تظل محافظة على طابعها "الأدبي" الذي يعتبر عنصر "التخييل" من أهم سماته، ولذلك نفضل، في حديثنا عن هذه الظاهرة من خلال الرواية الجزائرية العربية، إستعمال عبارة "الحلم بالمدينة" عوضا عن "الهجرة إلى المدينة". فما هي حدود "حلم" الإنسان بالمدينة في الرواية الجزائرية؟ و ما دوافع ذلك الحلم؟

أ- الحلم بالمدينة:

تكشف رواية <<غدا يوم جديد>> منذ صفحاتها الاولى عن حلم أهل القرية بالحياة في مدينة الجزائر و لاسيما الفتيات والشبان <<و هناك وراء الأفق البنفسجي تقع مدينة الجزائر. هذه المدينة -الحلم- الكابوس التي اخذت منها مسعودة الحبيبة! هذه المدينة التي هبلت فتيات القرى و شبانها، كلهم يودون مهاجرة قراهم إليها كما لو انها الجنة>>(1).

فالمدينة إذن هي الحلم الذي يجذب إليه شباب القرى دائما كما جذب من قبل <<قدورا>>، رحل إليها و عاش مدة عاملا في المرسى ثم عاد إلى القرية ليتزوج من مسعودة التي كانت نموذج الفتاة القرية الحالمة بالمدينة <<زوج أمي أرغم قدورا على خطبتي، و أرغم أمي على الموافقة. أنا فرحت. حلمي كان إسمه المدينة حينئذ: المدينة>>(2)

وحلم مسعودة بالمدينة أكبر عندها من حلمها بقدور زوجا ورجلا، لذلك نجد سريرتها و قد انطوت على هذه الحقيقة: <<هي لا ترغب في الرجوع إلى

---

(1).غدا يوم جديد: ص92.

(2).المصدر السابق: ص15.

الدشرة، و لا تريد استئناف الحياة فيها. إنتهى كل ذلك الآن. و قد تزوجت بهذا الرجل الذي يعمل بالمدينة. إنها لم تتزوج الرجل، تزوجت المدينة>>(1)، و الحلم بالمدينة، كما هو ظاهر، يحمل الفتاة القروية على الموافقة على الزواج من أي رجل يعمل بالمدينة، مهما كان مستواه و وظيفته بها. فهي، إذ تتزوجه إنما تحقق ذلك الحلم الكبير الذي راودها، و هذا الحلم لا يحققه إلا ذلك النوع من الرجال، فالمدينة بدونه تبقى حلما بعيد المنال: <<ياحسرتاه على المدينة! أين هي المدينة؟....أين أنت يامدينة الأحلام والرجال؟>>(2). و لكن الناس الذين لا يجدون وسيلة للهجرة إلى المدينة والإستقرار بها يظلون يرددون أحلامهم ويستمرون في إجترار أمانيهم فهم<< يودون لو وجدوا طريقا لمغادرة الدشرة الليلية! الجزائر و كل المدن حلم القرويين>>(3) و الفتاة القروية أكثر حلما بالمدينة من الشاب فهي تتصورها عالما ساحرا يختلف كثيرا عن عالم القرية الضيق المحدود المظلم الذي لا يتيح للفتاة ما تتيحه لها المدينة من فسحة للتحرر والمتعة بالمشاهد و النعيم، فصورة المدينة في خيالها ترتسم معالمها من خلال ما سمعته عنها: <<قالوا في المدينة الليل أضوء من النهار! ما أسعدك! إرتحت من حياة الظلام و الوحل و الشتاء>>(4)، و ليس على ضوء المشاهدة العينية المباشرة، فنقل الصورة بالوصف ليس كمعاينتها بالنظر والمعايشة، ولعل هذا مما ضخم من حلم القرويين بالمدينة، وهو أمر لا نجده عند الكبار الذين رضوا بحياتهم في القرية و ربما حازوا في أذهانهم على صور مغايرة تماما لتلك الصورة التي يحملها الشبان والفتيات للمدينة، فأم مسعودة تحذر ابنتها من أن <<يفترسها>> رجال المدينة، ويرى الحاج أحمد -الرجل الطيب الذي تكفل بمسعودة بعد أن وجدت نفسها وحيدة في محطة القطار إثر إلقاء القبض على زوجها- عالما مملوء

(1).المصدر السابق: ص24.
(2).المصدر السابق: ص48.
(3).المصدر السابق: ص117.
(4).المصدر السابق: ص128.

بالشرور و الآثام والمفاسد، ففيها نجد <<الحلال و الحرام زوجين شرعيين أو جارين. بجانب كل مسجد كنيسة، وبجانب الحارة خمارة. بجانب المقبرة ثكنة. بجانب المدرسة دار للدعارة أو للتجارة! هذه هي المدينة لمن لا يعرفها! أنا عرفتها، عندما عدت من الحج، قبل أن أحج>>(1). فالناس إذن، لا يتفقون في القرية، في النظرة الحالمة إلى المدينة، إذ نجدها قاصرة -تقريبا- على فئة الشباب الذين يطمحون إلى حياة أفضل، بينما، لا يحلم بها الكبار، لأنهم عرفوها معرفة اليقين أو سمعوا عنها ممن عاش فيها، ولا يمثل الإستثناء من هؤلاء سوى عزوز زوج أم مسعودة الذي قال لزوجته، بعد أن خافت على ابنتها من رجال المدينة: <<لا تمسكيها! دعيها تخرج إنها مسافرة إلى الجزائر، إلى حياة جديدة، إلى غد جديد>>(2).

أما عند الجيلالي خلاص فإن الحلم لا يخص مدينة معينة بالمكان و الحدود، إنما يكون حلما بالمدينة المشروع تلك التي جسد ملامحها المتخيلة <<برهان>> في لوحاته، مدينة <<ستبنى على أنقاض مدينتنا المتهاوية>>(3)، ولذلك فهي فكرة أكثر منها واقعا ملموسا، ونشدانها ما هو إلا رحلة بحث طويلة وشاقة عن بديل للمدينة المغتصبة التي عاث فيها الناس و الحكام فسادا و شوهوا وجهها القديم الذي صنعت تقاسيمه سواعد الرجال و دماء أبنائها في سالف العهود، فهي ليست، إذا، مدينة موجودة، وإنماهي مدينة يحلم المخلصون لها بأن توجد على الصورة التي يرغبون فيها <<لهذا ترسبت في أعماقهما فكرة أن بمقدورهما تغيير وجه المدينة فشرعا يخططان لقلب شكلها الحالي، بإزالة الأسوار التي بنيت لحماية قصور الأثرياء الذين استولوا على قلبها خلفا للغزاة وتسوية شوارع جديدة تفتح

---

(1).المصدر السابق: ص48.

(2).المصدر السابق: ص331.

(3).حمائم الشفق: ص96.

صلب المدينة لبررتها المشردين>>(1)، و الحلم بالمدينة في <<حم ائم الشدفق>> كما هو ظاهر ليس نابعا من شعور بالحرمان المادي أو النفسي، بل هو هروب من مدينة تعيش واقعا مرفوضا بحثا عن مدينة يصنعها خيال أبنائها الأبرار الذين يغيظهم سوء أحوالها: <<و لو نطقت المدينة لشهدت على أنكما لم تكونا تتخيلانها حلما فحسب و إنما كنتما تخططان فعلا لتغيير وجهها المنكمش من جراء القرصنة>>(2)، و هكذا يظهر أن الحركة باتجاه هذه المدينةالحلم هي تعبير عن وطنية متمكنة في النفس، خلافا لحلم القرويين بمدينة الجزائر في رواية <<غدا يوم جديد>> الذي لا يفسر إلا برغبات ذاتية ضيقة و طموحات آنية ناتجة عن ظروف حياتية قاهرة. و صورة مدينة الحلم المنشودة في حمائم الشفق تتحدد

بعض معالمها في رواية <<رائحة الكلب>> إذ نجد لها بعض الوصف في قول الكاتب: <<إذ أن طابع البريد المسجل على غلاف الرسالة وارد من تلك المدينة الجميلة، مدينة أحلامه المراهقة بثلوجها الناصعة و منازلها المقببة و أرصفتها المنقوبة بأعقاب الأحذية الرقيقة الحاملة لتلك القدود المياسة الرائحة والغادية و قد راح الصبا الربيعي المحمل بأريج الأزهار البرية يعبث بشعورها المتهدلة..>>(3) و السؤال الملح بعد هذا هو: ما هي دوافع الحلم بالمدينة؟

تجيب بعض النصوص الروائية على هذا السؤال إجابات واضحة نستشف منها ثلاثة أنواع من الدوافع نفصلها كالآتي :

أ- إغراءات المدينة : و نجد الإشارة إلى ذلك صريحة في روايتين هما: <<غدا يوم جديد>> لعبد الحميد ابن هدوقة، و<<وقائع من إوجاع رجل غامر صدوب البحر>> للأعرج واسيني. فقد بنى القرويون في الرواية الأولى حلمهم بالمدينة على ما تتوفر عليه من إمكانات ومظاهر للعيش لا تتوفر عليها قريتهم فهي

---

(1).المصدر السابق: ص127.

(2).المصدر السابق: ص111.

(3).رائحة الكلب: ص147.

<<مدينة الجزائر البيضاء ذات الخبز الأبيض، واللحاف الأبيض، والليل الأبيض>>(1) و هو ما يعني من حيث لم يصرح به أن كل ما في القرية مناقض لهذه الأوصاف، إذ نجد فيها الخبز الأسود و اللحاف الأسود والليل الأسود، والمدينة على العكس من هذا عالم مغر، يجذب إليه أولئك القرويين المحرومين طوال حياتهم من مظاهر العيش الراقية، و لاسيما النسوة اللائي يفضلن نعيم المدينة على عروض رجل موسر من القرية لا يتيح لهن بما يملك ما تتيحه لهن المدينة، و مثلت ذلك خديجة أحسن تمثيل فقد كانت <<موزعة بين الشوق إلى نعيم المدينة و بين عواطفها نحو محمد، لكن "النعيم" غلب العواطف. ملذات المدينة لا يعطيها لها محمد، إنها تريد أن تسير تحت أنوارها وعلى طرقها الحريرية التي تؤذي الرجل. إنها ترى الحياة بلا ليل، و في المدينة –قالوا– لا وجود لليل>>(2). وهذه الإغراءات التي كانت تصل آذان القرويين والقرويات من أفواه الذين رأوا عالم المدينة أضفى عليها بعدا أسطوريا تجاوزحدود الحلم ليبلغ ذروة العشق و الوله و التقديس، سيما و قد دعم أقوال الشهود ما كان يصل القرية من خيرات المدينة التي كانت تغدق بها على الأهالي المحرومين الذين كانوا دائما يعتقدون في المدينة مصدرا عظيما للثراء و الإرتقاء و التغير حتى في لون البشرة، إذ <<أن الذين يعملون بها من أبناء الدشرة تحولت بشراتهم من سمرتها أو صفرتها الترابية إلى بياض ناصع نديٍ>>(3)، و لا غرو، أنه بعدما خلعوا عليها بعدا أسطوريا يسمون بها إلى مرتبة الجنة التي يطمح إلى دخولها كل محروم من نعيم الدنيا و ملذاتها، قالت فتاتان تتحاوران:<<إذا كان أن تختاري بين الجنة و النار، ما تختارين؟

– << المدينة مليحة يا أختي>>.

– << في سماء الدشرة قمر واحد و دائما غائب، و في المدينة الأقمار لا تغيب>>(4).

---

(1).غدا يوم جديد: ص26.

(2).المصدر السابق: ص129.

(3).المصدر السابق: ص130.

(4).نفسه.

و تبدو <<باريس>> مدينة مغرية أيضا في رواية <<وقائع من أوجاع رجل غامر صوب البحر>>، بما تحفل به من المظاهر البراقة، سيما في خيال القادم إليها من أحد بلاد الجنوب إذ يعثر فيها على ما كان يرتسم في ذهنه من أحلام حيث <<الليل و أضواء باريس المغرية>>(1) و تجب الإشارة إلى أن الدافع الأساسي للهجرة إلى "باريس" في الرواية لم يكن هو الإغراءات -كما سيرد بيان ذلك- و إنما هو الهروب من واقع المدينة الأصل و ما يلاقيه فيها المثقف الرافض لممارسات النظام من معاناة واضطهاد، و إذا كانت "باريس" حلما لدى هذا الصنف من سكان الجنوب، فلأنها تمثل الخلاص من عذاباته و المتنفس الأرحب، حيث يمكنه أن يقول ما يشاء ويفعل ما يشاء من دون أن تكون السلطة رقيبة على أقواله وأفعاله وأنفاسه، فهو حلم "بالحرية" المفقودة في الوطن قبل أن يكون حلما بعالم المدينة الزاخر بمظاهر الإغراء و أشكال الجذب، و هذه الحرية يجدها التواق إليها في <<غربته>> بعدما افتقدها في <<حضن>> وطنه:<<اثنان في مواجهة المدينة، رجل و امرأة يجمع بينهما في الأساس رحم واحد..متعانقين كذا>> نملأ الحضور دقيقة دقيقة...نعبر شوارع باريس ليلا بحرية مطلقة>>(2).

ب- مشكلات الإنسان في الريف: و الدافع الثاني الذي ينتج عنه الحلم بالمدينة هو ما يكابده إنسان الريف: أوالقرية أو المدينة الصغيرة من مشكلات وما يعيشه من حرمان دائم و تلهف إلى مظاهر الحياة الجديدة التي يزخر بها عالم المدينة:<<الحرمان الذي يحيا فيه الناس والبطالة و الفقر وإضافات اللاحق للسابق عن المدينة. كل ذلك نقلها من واقعها الجغرافي إلى <<واقع>> أسطوري، لا مستحيل لموجود فيه>>(3)، فبالنسبة إلى الفتاة : تعد المدينة خلاصها الوحيد من

---

(1).وقائع من أوجاع رجل غامر صوب البحر: ص246.

(2).المصدر السابق: ص275.

(3).غدا يوم جديد: ص129.

البيئة الضيقة التي حشرت فيها، فهي مودعة بين جدران البيت لا تكاد تغادرها إلا لماما، تعيش أسيرة نظرات تقليدية كثيرا ما تكون جائرة، إلى دورها في البيت والمجتمع، تجردها أحيانا من بعض حقوقها الطبيعية الفطرية والشرعية، يتحطم عندها الحلم بالتغير الذي هو مشروع لدى الجميع، فتفقد حتى لون بشرتها الطبيعي الذي علق به <<غبار البادية الذي اصطبغ به فتحول من بياض إلى إحمرار>>(1)،. و بالنسبةإلى الشباب فإن الريف عالم مغلق لا يتيح له كثيرا من فرص العمل التي تحقق له رغبته في تحسين وضعيته الإجتماعية، وهو لا يجد ما يصنع في الريف غير بعض الأعمال الصغيرة، أو الزراعية في أحسن الأحوال، لكن الطموح إلى التغيير لا يصنعه مثل هذه الأعمال، لأنه، ومهما بلغت درجته، فإنه لن يكون في صورة ذلك التغيير الذي ينتج عن الإحتكاك بعالم المدينة، فالمدينة تعطيه فرصة للرقي بما توفره له من العمل ذي الأجرة المقبولة، <<فما كان منه إلا أن صمم على الهجرة إلى المدينة حيث العمل و الرفاه متوافران لكنه لم يجد أي عمل مدة عام بكامله>>(2).

و إلى جانب هذا المشكل المادي الطارد من الريف الدافع إلى المدينة هناك أيضا مشكل نفسي، حيث تتراءى المدينة، في بعض الحالات، فضاء للهروب من العزلة و آلام الإنفراد والتفكير المضني في ما يشكل<<خيبة أمل من الماضي>>، و هذا الدافع هو مايحمل على مغادرة الزنزانة>> في أطراف المدينة و التوجه إلى الشواطيء<<و في بعض الأحيان ينزلق من "الزنزانة" إلى شواطيء تيبازة وشرشال تزكية من هواجس مدمرة و انطباعات شهوانية تتمحور حول لون الرمال الصفراء...>>(3)، فالمدينة بهذا ملجأ يفر إليه المتضايقون المهمومون عسى أن يجدوا فيه ما يكشف عنهم غمهم.

---

(1).المصدر السابق: ص132.

(2).التفكك: ص51.

(3).فوضى الأشياء: ص218.

و تنجم هذه المضايقة و هذا الغم من الإضطهاد و القمع السياسي الذي يتعرض له الإنسان في بيئته الأولى حيث يسكت كل صوت معارض و يقذف به بين المحاكم و السجون لينتهي إلى الهروب من هذا العالم الذي يقهره بحثا عن ملجأ أمين، هذا النوع من الدوافع نجده عند الأعرج واسيني مجسدا بوجه لافت للنظر << نتجه معا نحو غابات الأحلام و نحاول صنع خبز أبيض من هذه الدماء التي أكلتها المساحات. و نعود ليلا طفلين صغيرين على ضفاف نهر السين>>(1).

جـ- عشق المدينة: أما النوع الثالث من دوافع الحلم بالمدينة فهو مانجده في رواية <<حمائم الشفق>> و الذي رأيت أن أسميه <<عشق المدينة>>فهو أقوى من أن يكون تعلقا بالمدينة أو حبا لها، و ذلك أن المدينة تتحول إلى كل ما يمكن أن يشكل مجالا للعشق، و أكبر من ذلك: تتحول المدينة إلى وطن: فيكون عشقها عشقا للوطن:<<لا أعشق شيئا في الحياة كعشقي إياها بأزقتها المتشعبة و بشوارعها المتحزلنة و بيوتها المتسحلفة>>(2)، و هذا العشق ينسي المرء كل شيء آخر سواها، ذلك أنه:<<في سبيل مدينتي رفضت كل شيء، إلا أن أبقى وفيا لها، خادما في بلاطها>>(3)، و حتى المرأة التي وله بها لم تكن إلا صورة لها فالوله بها من عشق المدينة:<<حتى النساء اللواتي أحببتهن لم يكن في الواقع سوى مدينة، و لا مدينة إلا أنت أيتها الكتلة البيضاء المتسحلفة عند قدم الجبل الشاهق>>(4).

ب- الإغتراب في المدينة :

لكن هذا الحلم الذي يحمل القروي إلى عالم المدينة كثيرا ما يتحول إلى خيبة أمل يصاب بها حين يستقر به، فيعاني حالات جديدة من الإحباط و التمزق

---

(1).وقائع من أوجاع رجل غامر صوب البحر: ص256.

(2).حمائم الشفق: ص 17 – 18.

(3).نفسه.

(4).نفسه.

والشعور بالإغتراب في وسط لا يتحقق فيه ذلك الإنسجام بين مظاهره وبين بنية الفرد النفسية و عواطفه التي نشأت في بيئة مغايرة تماما. و قليل هم أولئك الريفيون الذين جاؤوا المدينة تحت تأثير إغرائها و جذبها و لم يشعروا بحالة الإغتراب هذه.

إن إغتراب الإنسان في الوسط ظاهرة قديمة ارتبطت بالنفس البشرية منذ مراحل الإنسان الأولى فقد <<اغترب الإنسان في قديم عهده (عن) الطبيعة فتميز عنها وسما عليها و حقق طبيعتهالإنسانية>>(1). واغترب الإنسان في المجتمع بعد ما طغت النزعة الفردية و شعر كل فرد بأن وجوده لا يتحقق ضمن اطار جماعي كما كان معمولا به في الجماعات البدائية الأولى و هذه النزعة تعاظمت مع التطور العجيب الذي بلغه الانسان في العصر الحديث إذ كلما حقق قدرا من التقدم العلمي والتقني كلما زادت الهوة بين الأفراد و تقلصت حدود العلاقات الاجتماعية بين الناس ، وأخشى ما يخشاه المرء أن يتحول العالم يوما الى مجموعة أفراد بدل مجموعة دول و أسرار، و هذا التغير مناف لطبيعة الانسان الاجتماعية ذلك أن <<الانسان ليس بالانسان، الا بين الناس، وفي العالم، لأننا بعضنا ببعض و بعضنا مع بعض، نسبغ على العالم حقيقته وجماله>>(2) وقد حظيت ظاهرة اغتراب الانسان في المجتمع المعاصر بعديد الدراسات في مجال علم النفس الاجتماعي، و بحثت الأسباب التي تنجم عنها الظاهرة ، وأهم التفسيرات ما ذكره جورج لوكاتش من أن اغتراب البطل في الرواية أو اغتراب الانسان في المجتمع على اعتبار أن الرواية ملحمة المجتمع البرجوازي يعود الى << فقدانه الدين و رعاية الله>>(3) بينما يلصقها "أبناء" الإشتراكية من المفكرين والأدباء بالنظام الرأسمالي اذ أن << طبيعة الاستغلال التي يقوم عليها هذا النظام

---

(1).مقدمة في نظرية الأدب: ص54.

(2).المدينة: سرابها ويقينها -جورج باستيد- تعريب -د.عادل العوا- الطبعة الثانية -مطبعة جامعة دمشق- 1963. ص210.

(3).البحث عن النقد الأدبي الجديد: ص33.

قد أوجدت ظروفا لقهر الانسان ودماره >>(1) فحياة الانسان في مجتمع تطغى عليه المادة و تسود فيه الطبقية والاستغلال وتضيع فيه القيمة الجمعية التي هي أساس قيام كل المجتمعات ، وشعور الانسان بالضعف و الضياع وحيدا في هذا العالم الذي لايؤمن الا بالقوة في مختلف جوانبها ، كل ذلك سبيل الى اغتراب الانسان عن ذاته و عن محيطه و لم يكن من قبل يشعر بوطأة هذه الظاهرة النفسية إلا حين يضطر الى مغادرة الوطن أو الجماعة الأولى أو القبيلة التي ينتمي إليها و يحمل خصائصها الجنسية و الثقافية و البيئية، لكن الإنسان، مع ذلك، لم يقف مستسلما لهذه الظاهرة، فقد حاول قهرهاو مقاومتها، وتعكس لنا الآداب الإنسانية صورا قوية عن هذه المحاولات التي قام بها الإنسان للتخلص من شعوره بالإغتراب عن عالمه ومجتمعه <<و الإنسان عند جوته يقهر إغترابه عن طريق (التمرد) لا عن طريق (الثورة).... إن فاوست يتمرد على أسباب إغترابه ويفتش عن إنسانيته>>(2) و جسدت الرواية الغربية -على وجه الخصوص- ذلك الصراع المرير الذي خاضه إنسان المجتمع الصناعي ثم المجتمع التكنولوجي من أجل البحث عن الجانب الإنساني فيه الذي أفقدته إياه الإبتكارات العلمية وتطور نظم الحياة و المعيشة وأساليب التفكير المتنوعة التي تجاوزت حدود المتصور وقفزت نحو الأمام قفزات هائلة <<و لئن كان التوافق بين الذات الفردية والإجتماعية يبعث في نفس المرء الشعور بالغبطة و الرضا، فإن الإصطدام بينهما يبعث في النفس سورا عظيمة من سور الشقاق والإنفصام>>(3)، لكن الإغتراب، لا ينطلق من نفس الإنسان أول ما يكون، إنما تفرزه عوامل خارجة عن النفس متصلة بالمحيط الخارجي من مجتمع و بيئة وأعراف وغيرها، وهكذا، فإن

(1).مقدمة في نظرية الأدب: ص55.

(2).المرجع السابق: ص68.

(3).في النقد والأدب ج1: ص89.

التقلبات النفسية المتنوعة التي يخضع لها الفرد لا تنشأ إلا إذا توفرت أسباب موضوعية، و يكون للتطور في الأفكار والتغير في الأحوال النصيب الأكبر في وقوع خلل في نفسية الفرد، إذ تفتقد الشخصية التوازن الطبيعي مع المحيط الخارجي، فتنعزل عنه وتنطوي لإنعدام دواعي الإتصال وتتقلص شيئا فشيئا حدود "الجماعة" التي تقوم أصلا على <<إختفاء الذات الشاعرة واتجاه المشاعر نحو غرض واحد>>(1).

و تنتشر ظاهرة اغتراب الإنسان في المدينة على مساحة معتبرة من النصوص الروائية الجزائرية التي تشملها هذه الدراسة، سيما تلك النصوص التي كتبها كتاب لم يولدوا في المدينة و لم ينشؤوا في عالمها، و هذا يعني كل الكتاب ما عدا مرزاق بقطاش، و يبدو أن الإغتراب في المدينة من خلال هذه النصوص الروائية هو تعبير عن موقف فردي من الكتاب قبل أن تكون تصويرا لواقع إنسان المدينة ذاته، و هو بالتالي إغتراب المثقف الجزائري في عالم المدينة الذي لا ينتمي إليه أصلا إنما جاءه كما يأتيه أي ريفي مأخوذ ببهرج الدنيا و زخرفها حمله هو الآخر الحلم فإذا به يصطدم بواقع مر، لم يجد، بعدها، من بد إلا تغيير نظرته إلى المدينة و صب اللعنة عليها.

و ظاهرة إغتراب الإنسان في عالم المدينة من خلال النصوض الروائية الجزائرية تتجلى في مظهرين:

أ- إغتراب الريفي في المدينة.

ب- إغتراب المثقف في المدينة.

ففي رواية <<بان الصبح>> ينتاب الشيخ علاوة شعور بالإغتراب في المدينة التي كان كل ما فيها يقوم ضدا لأفكاره و مواقفه المحافظة، هو الرجل الريفي

---

(1) روح الإجتماع -غوستاف لوبون- ترجمة -أحمد فتحي زغلول باشا- موفم للنشر: 1988.ص24.

الذي جاء المدينة بعد الإستقلال واستقر فيها، و لقد كان <<حيشعر بأنه يحيا غريبا في مدينة لا يعرفها>>(1)، وبالرغم من المدة غير اليسيرة التي قضاها الشيخ علاوة في المدينة فإنه لم يحس قط أنه مديني و لم يألف البيئة الحضرية، لقد كان ثمة حاجز نفسي قوي يحول دون التحامه بهذا المجتمع المديني و يشده دائما إلى الماضي فيشعر برغبة في الهروب إليه، و لقد حاول أن <<حيكتسب>> صفة الحضريين فيسلك سلوكهم بمصاهرة ابن عبد الجليل أحد الأثرياء المعروفين في المدينة، لكنه كان دائما يجد نفسه <<غريبا في مدينة لا يعرفها، و في مجتمع ينكره، لذلك فهو في محنة،. و الحقيقة أن محنته كبيرة لأن العصر الفكري الذي يحيا فيه في واقع الأمر، لم يتعد القرن الثاني عشر الميلادي>>(2). فثمة اغتراب في الفكر يؤدي إلى استغراب أفكار الآخرين و سلوكهم، و هذا الإغتراب ناجم عن الرواسب الريفية التي لم يستطع علاوة أن يتخلص منها في المدينة و ظل متشبثا بكثير منها ظنا منه أن التغير في المكان لا يعني بالضرورة تغييرا في الشخصية بعناصرها المختلفة و لذلك فهو لا يفتأ يقر بهذه الحقيقة: حقيقة أنه وعائلته لا يعاملون في المدينة إلا معاملة الغرباء الوافدين إليها، وهي حقيقة أدركها كل أفراد العائلة فزبيدة تقرر أنه <<حلو بقينا مائة قرن في الجزائر لاعتبرنا سكانها الأصليون من الفحص (الضواحي)...أما نحن كلنا لا نعامل إلا معاملة الوافدين على المدينة>>(3). و قد انتاب <<حنعيمة>> ابنة أخ الشيخ علاوة التي جاءت من القرية وأقامت عنده لمزاولة دراستها شعور بالإغتراب في بيت عمها بعدما ألصقت بها تهمة <<الزنى>> و<<حمراودة>> إبن عمها عمر، ولذلك وجدت خلاصها في العودة إلى قريتها بعد أن جاء أبوها بدليل براءتها، و كان الأمر نفسه بالنسبة إلى دليلة بعد تجربتها القاسية وخيبة الأمل التي أصيبت بها

---

(1) بان الصبح: ص27.

(2). المصدر السابق: ص34.

(3). المصدر السابق: ص67.

و<<بقاؤها بدار أبيها لم تعد تقوى عليه. كل شيء إنتهى بالنسبة إليها مع أهلها. إنها تشعر بغربتها بينهم>>(1).

و في رواية <<غدا يوم جديد>> لم تحقق مسعودة حلمها الأكبر في المدينة، فهي، و إن صارت من سكانها، فإنها ظلت قروية في نظر أهلها، فالمدينة <<لن تنسى لها قرويتها...سوف تفكرها دائما بذلك. سوف يكون الوشم ورقة تعريفها القروية التي لا تبلى>>(2). لكن مسعودة لا تشعر بوطأة الإغتراب في المدينة مثلما يشعر به الشيخ علاوة لإعتبارات أهمها:

أن الشيخ علاوة اكتسب نصيبا من الثقافة و عاش جل حياته في الريف، بينما جاءت مسعودة إلى المدينة شابة وفتحت عينيها على أجوائها الباهرة وهي لا تدرك بوعي أبعاد ما تعانيه من نظرات المدينيين إليها و سلوكهم معها لأنها تفتقد، في أول الأمر، إلى آليات التحويل، وقد يتاح لها، فيما بعد، حسب ما يتوفر لديها من الظروف، أن تتخلص من صورتها القروية، وتندمج في مجتمع المدينة ذلك أن بعض المهاجرين <<من الريف إلى المدينة يحتفظون ببعض الرواسب الريفية وآثارها تظل عالقة بسولكهم أول الأمر ثم يتحررون منها تدريجيا حتى في الجيل الثالث و ما بعده. فلابد إذن من المرور بمراحل مختلفة حتى بنتقل السكان من الريفية إلى الحضرية>>(3).

و يظهر أن اغتراب الانسان الريفي في المدينة يعود إلى افتقاد القدرة على التكيف و الانتقال من نمطية السلوك الاولى التى كانت أصلا من أصول الشخصية إلى نمطية جديدة تفرضها بيئة مغايرة، و شخصيات الرواية الجزائرية التى تتحرك في عالم المدينة لا يعني بالضرورة أنها تعيش المدينة بوجدانها و وعيها، فوجودها فيها لا يعدو الوجود الجسماني و الحضور المادي. لكن هذا الحضور المادي لا

---

(1).المصدر السابق: ص329.

(2).غدا يوم جديد: ص133.

(3).علم الإجتماع الحضري: ص100.

يعبر، في الواقع، عن حضور كامل للانسان، فلابد من أن يصحبه وعي بالوجود تتجسد معالمه في مختلف أنواع السلوك، و التكيف مع المواقف والظروف التي يصنعها مجتمع المدينة و<<مجرد الوجود الجسماني في المدينة لا يعني بالضرورة مشاركة الفرد في الحياة الحضرية، فالمهاجر قد يعيش في المدينة ولكنه لا ينتمي إلى تلك المدينة، أي لا يندمج فيها اجتماعيا فعلا>>(1).

و هذا يقودنا إلى نقطة مهمة و هي "المدنية" أو "التحضر"، والسؤال الأجدر بالطرح ههنا هو: هل يعد حضريا متمدنا كل من يعيش في المدينة؟.

و ضيق المساحة لا يسمح لنا بالخوض طويلا في هذا الباب إلا بالقدر الذي يضيىء بعض الجوانب مما يخدم موضوعنا خدمة مباشرة و إيجابية. فالتحضر والتمدن مفهومان يرتبطان بالمدينة و تناقضهما البداوة و البدائية والتوحش وغيرها من المصطلحات التي يراد بها ضد الحضارة بمفهومها الثقافي العلمي والانساني لكنه، وعلى الرغم من هذه السهولة الظاهرة في تحديد معنى التحضر أو التمدن، فإنه من وجهة نظر علم الاجتماع يبقى <<صعب التحديد والقياس يمثل أهم مظهر في عصرنا>>(2)، و ثمة من لا يتحرج من تسمية "تمدنا" كل مظهر للحياة في المدينة فاليونان و الرومان و السبئيون و الحميريون والبابليون والعرب و المسلمون، كل أولئك عرفوا تمدنا لأن حياتهم اتصلت، كثيرا او قليلا بالمدينة، وفي ذلك يرى جورجي زيدان أن <<التمدن الاسلامي ليس أول عهد العرب بالحضارة>>(3) مما يعني أن العرب عرفوا التمدن قبل الاسلام في صورة ما أنشؤوا من المدن و الحواضر في اليمن و الحجاز و غيرها، و يحبذ جورج باستيد إستعمال "فاعلية تمدين" بدل "مدنية" ولا يعني ذلك تحفظا على هذا المصطلح بقدر ما يعني ابتغاء الدقة، وعنده أن هذا المفهوم يقوم من ادرراك الإنسان العميق

---

(1).دراسات في علم الإجتماع الريفي الحضري: ص75.

(2).الجغرافيا الحضرية: ص26.

(3).تاريخ التمدن الإسلامي -جرجي زيدان- مكتبة الحياة -بيروت- 1: ص16.

لذاته وفهمه لسلوكه وتفسير ذلك بوعي فيقول: <<إننا نسمي (مدنية) بل بالأحرى نسمي فاعلية تمدين، من حيث مقصدها العميق، هذا التوجيه الذي يجعل الفاعلية البشرية تنحنى في منحى زيادة تفهم (الإنسان) نفسه>>(1).

و إذا أردنا أن نقيس درجة تحضر الشخصيات الروائية التي تحيا في المدينة، سيما الريفية منها فإننا نلاحظ أنها لم تستطع الإفلات من قبضة <<القروية والريفية>> التي جاءت بها، و لم تفهم حقيقة العلاقات الإجتماعية السائدة في عالم المدينة، لذلك آثرت أن تتخذ موقف المتفرج السلبي الذي يكتفي بالنطر وإظهار الرفض الخفي لكل ما يراه مناقضا لما يعتقد، فلم يتمكن الشيخ علاوة أن يصير مدنيا متحضرا، ولم ينس <<نعيمة>> نشأتها الريفية وجودها بين أسرة تعيش في المدينة، بل واكثر من ذلك اتصالها بمن هم أكثر تمدنا و تحضرا من طلبة أبناء المدينة.

إن إغتراب الريفي في عالم المدينة في الرواية الجزائرية هو استمرار للصراع الدائم بين رغبة في التغيير و التطور ونزعة نحو النشأة الأولى، و لأن الشروط الكفيلة بإحداث التغيير الداخلي للانسان لم تتوفر على النحوالإيجابي الفعال، فإن الشعور با لاغتراب يظل يهيمن على وجود الريفي في المدينة، و هو أمر يعيق امكانية اصباغ فكره و سلوكه بالصبغة الحضرية التي كان يطمح إليها حين كان في قريته يرى المدينة حلما كبيرا.

و لايقل الشعور بالاغتراب عند المثقف في المدينة عنه عند الريفي ذلك أن <<الثقافة المغايرة لثقافة الواقع الريفي ، طريق لاغتراب المثقف وانفصاله عن مجتمعه>> (2): ويتجسد هذا الشعور بالإغتراب بدء من الإحساس بالقهر والقمع الذي يسلطه المجتمع على المثقف الذي تفرض عليه عزلة قاتلة أو هروب إلى

(1).المدينة: سرابها ويقينها: ص209.

(2).صورة الفقيه في الرواية المغاربية -د.أمين الزاوي- الشروق الثقافي -الجزائر- عدد 06-1993.ص18.

أعماقه أو فرار من المكان الذي ارتبط به، و غربة المثقف أخطر لأنها ناجمة عن إدراك و وعي بأسبابها و نتائجها، لذلك فهي لاتنعكس على مستوى سلوكه الظاهر تجاه الآخرين و إنما تجاه أفكاره و مبادئه التي يتعين عليه إما: مراجعتها وإما الكفر بها مطلقا، و إدراكه لحقيقة موقفه من مجتمعه يمده بكثير من أسباب الهروب الذي ينعكس سلبا على إبداعه، إذ ينظر إلى العالم كله نظرة سوداوية، فلا تعود <<اللغة في أدب الإغتراب -تربط الإنسان بالإنسان بصلة حميمية حارة بل غدت أداة لتأكيد الإنفصال والإنعزال>>(1). و في بعض النصوص الروائية الجزائرية نكتشف ثلاثة أنماط من المثقفين الذين يعانون حالة الشعور بالإغتراب في المدينة:

1- مثقف من أصل ريفي ينزل إلى المدينة لأول مرة.

2- مثقف غاب عن المدينة ثم عاد إليها بعد مدة.

3- مثقف يعيش في الغربة بعيدا عن الوطن.

فأما النموذج الأول فنجد صورة له في رواية <<رائحة الكلب>> إذ يتصل الريفي الذي سيصير صحفيا و روائيا فيما بعد بعالم المدينة لأول مرة <<فإذا ما وصل القطار المدينة، ذات العمارات المتطاولة إلى السماء، رمز تحدي الإنسان لتلك الزرقة الغائرة العلو نزل وقد لعب الدوار برأسه>>(2)، ثم يتحول وجوده بالمدينة، بعد إذ علقها و عشقها بجنون إلى اغتراب فيها لأن بها من يعرقل مشروعه الثقافي و يحاول أن يئد حلمه، و فيها أيضا يجد اللغة التي يكتب بها محاصرة مطاردة و الصحيفة التي ينشر بها أفكاره للناس مضايقة، وأدى ذلك كله إلى التضييق من رقعة الحلم الكبيرو إدراك حقيقة ما تعيشه المدينة من تناقض بين جذورها الحقيقية الضاربة في أعماق التاريخ و بين صورتها التي يحاول البعض

(1).مقدمة في نظرية الأدب: ص83.

(2).رائحة الكلب: ص85.

أن يحدد لها ملامحها ويغيرها، و مثل ذلك مدعاة إلى نقمة المثقف على المدينة ورؤية كل ما فسد فيها.

و ترسم لنا صورة لهذا النموذج أيضا رواية <<التفكك>> من خلال شخصية الطاهر الغمري الذي حل بالمدينة و ظل وحيدا غريبا، واغتراب <<الغمري>> عن المدينة يكمن في أنه لا يملك بطاقة تثبت هويته <<يبحث عن نفسه. ليس له بطاقة هوية ولا أية ورقة رسمية و السلطة تدور في الشوارع. يتهرب منها، يلتصق بالحيطان. يحتك بالأشياء والأشخاص>>(1). و اغتراب الغمري، إذن، ناجم عن مشكلة إنتماء، و هوية، فهو يعيش في مجتمع لا ينتمي إليه، كما ينتمي إليه بقية الناس، بواسطة وثائق هويتهم، الوجود الجسماني في المجتمع لا يعني أبدا الإنتماء إليه، بل يرتبط بوسيلة <<حضارية>> هي الوثيقة، و لأن الغمري يفتقد هذه الوسيلة فهو محكوم عليه بأن يحيا وسط مجتمع المدينة كأي غريب غير منتم، ينعزل بذاته و جسمه بعيدا عن الناس، لايكلم أحدا ولا يحاور أحدا، هو هروب من الذات، لكنه ليس فرارا من المكان، و في هذه الحالة يقتضي الفرار من المكان تسوية الوضعية مع الذات بالحصول أولا علىالهوية.

أما النموذج الثاني من المثقفين المغتربين في المدينة فتتفرد به رواية <<الزلزال>>. وقد وصف وطار سلوكه في مدينة قسنطينة و هو يستعد لكتابة روايته فقال:<<وقد تنبهت إلى أنني في <<الزلزال>> ظللت شأني في شأن الريفي المتسوق، أطوف في الأزقة والأنهج، وحتى إذا ما إسترحت في مكان فلن يكون غير المقهى أو الساحة العمومية. نعم، لم أدخل دارا واحدة في قسنطينة الكبيرة و العريضة و الطويلة، مع أنني طفت بها كثيرا. إن سبب ذلك واضح، فأنا لا يمكن لي أن أقتحم عالما مغلقا دوني بحكم أنني لست منه>>(2). هذا سلوك

(1).التفكك: ص18.

(2).طيور في الظهيرة –المقدمة-: ص8.

الكاتب و موقفه الشخصي من المدينة، وقد كان له أثر بارز في شخصية الرواية الأساسية <<عبد المجيد بوالأرواح>> فقد كان وطار يتقفى آثارها، أو يمهد لها السبل التي تسلكها عبر أزقة وأحياء المدينة. فقد درس في معهد إبن باديس وإنتقل إلى الزيتونة بتونس، و لبث في قسنطينة قبل الثورة مدة غير وجيزة، هي تلك التي كان يزاول فيها دراسته بالمعهد، على ما يبدو، و قد كانت مدة إقامته بها كافية لمعرفتها و الإطلاع على أحوالها و أحوال الناس بها ومد جسور العلاقات الشخصية مع الكثير منهم. كما يبدو أن غيبته عن المدينة استمرت زمنا طويلا، وما كان ليعود إليها لولا أن حاجة ماسة دفعته إليها. و قد طالعته المدينة بوجه مغاير إذ <<تغير كل شيء>>(1) و تبدلت أحوالها وأوضاع الناس فيها، فلا الأماكن هي كما كانت عليه من قبل ولا روادها القدامى يفدون عليها، حتى تلك المواضع التي كانت بالأمس مفخرة استحالت اليوم أطلالا يرثى لها، النزل الكبير ومطعم بلباي و المقاهي الفخمة والأزقة التي كانت مخصصة لأصحاب الحرف اليدوية الصغيرة، كل ذلك إختفى من المدينة وخلفته مظاهر أخرى لم يعهدها بوالأرواح، و قد كان هذا التغير الذي طرأ على وجه المدينة مبعثا لأن يشعر <<بإحساس غريب يملأ نفسه. حتى أنه فكر أن لونا ما داكنا جدا، على أية حال، انصب في قلبه>>(2) فكل ما في المدينة تغير في عينيه، و لم يعد هو قادرا على تحمل الأوضاع الجديدة فداهمه شعور من يحيا في غير زمنه و بغير أفكار الحاضر ولذلك كان يرى المدينة <<أشبه ما تكون بباخرة في محيط عظيم، توحي في كل خطوة بالوحشة و بالشعور بالإغتراب>>(3)، و لم يجد بدا أمام هذا الواقع الجديد الذي يرفضه من أن يحاول الفرار ويلجأ إلى الجسر ليتخلص من غربته أو إغتراب المدينة في وعيه.

---

(1). الزلزال: ص12.

(2). المصدر السابق: ص15.

(3). المصدر السابق: ص43.

و النموذج الثالث للمثقفين المغتربين في المدينة ترسم ملامحه روايتا الأعرج واسيني اللتان تصوران معاناة المثقف في المنفى حيث يعاني الجيل الذي <<حذاق مرارة الموت في المناجم البعيدة..مرارة المنفى، و الأحباب المرميون خلف هوامش أزمنة الإنقراض. خلف جدار الأفراح..بعيداعن أوطاننا التي أنجبتنا ودحرجتنا من أعالي شرفة إلى أعماق بئر متعفن>>(1)، فباريس، برغم ما تتوفر عليه من وسائل الجذب و السحر والمظاهر المادية التي تحقق المتعة والرفاهية لإنسان قادم إليها من جنوب العالم، إلا أنها سرعان ما تتحول إلى مصدر كبير للقلق و مبعث للشعور بالإغتراب الذي فجره أيضا الحنين إلى الوطن، وإذا استطاعت أن تسحر الأنظار و تبهر العقول فإنها فشلت في الإستيلاء على القلوب، و لذلك ينظر إليها دائما على أنها <<تأكسدت>> و <<شداخت>> و<<زاد ضباب المدينة التي كنت أقابلها مدججا بالوحدة والفراغ والأوجه الغامضة>>(2)، و لم يعد ثمة من جدوى البقاء بها إذ ما جدوى العيش في مدينة يستولي فيها على المرء شعور بالإنقطاع عن عالمه الحيوي والإنفصال عن ذاته التي لا يحققها الوجود بالمدينة ، و قد يكون الحل بالفرار من هذه المدينة والعودة إلى مدينة الحلم و الطفولة <<فكرت بتجميع الحقائب القديمة والأشياء المبعثرة والنزول إلى نزل المطار، هناك يشعر المرء بالأمان المفقود بقرب الأرض التي سيدخلها بعد ليلة واحدة>>(3).

ومما يلاحظ، بعد هذا، أن هذه النماذج الثلاثة كلها من أصل ريفي، مما يؤكد مرة أخرى علاقة الريفي مثقفا كان أم غير مثقف بالمدينة ونظرته إليها، ولا يعدو موقفه منها أن يكون هو نفسه موقف الطاهر وطار حين عاد إلى قسنطينة يتجول فيها، هناك دائما شعور بوجود حاجز نفسي يشكل عائقا كبيرا يحول دون الإندماج

---

(1).وقائع من أوجاع رجل غامر صوب البحر: ص166.

(2).مصرع أحلام مريم الوديعة: ص23.

(3).مصرع أحلام مريم الوديعة: ص24.

الكلي في عالم المدينة، و المثقف يقف أبدا موقف المتفرج على المدينة، شأنه شأن غيره –وإذا ما أراد أن يصدر رد فعل إزاءها فإنه لا يكون أكثر من إظهار: أنواع التذمر والسخط والإستيلاء، وهو موقف قد لا يصدر على الحدة نفسها– من ريفي عادي.

وثمة ملاحظة لابد من تسجيلها وهي: أن الشعور بالإغتراب في المدينة لا يتجسد بجلاء عند مرزاق بقطاش في ثنائيته، نظرا لعلاقة هذا الكاتب بالمدينة، وإن كان ثمة ما يتيح للدارس تفسيره على أنه إغتراب، لكن الروايتين تتناولان مرحلة خاصة من تاريخ مدينة الجزائر، ويكون طبيعيا أن يشعر سكانها شعور الغرباء فيها و هم أهلها، بينما يتصرف المحتلون تصرف من يملكونها ويسودونها. لكن مرزاق بقطاش، يبقى، رغم ذلك، كاتب مدينة، بينما لم يستطع بقية الكتاب التخلص من رواسبهم الريفية –شأن أبطالهم في رواياتهم–

جـ الهروب من المدينة:

إن الحلم الذي ينشأ لدى القروي سرعان ما يتبخر حين يمضي في المدينة مدة تتيح له معرفتها عن كثب، فيتحول إلى معاناة كبيرة تتحمل تبعاتها نفسيته وتنعكس غلى حياته بالمدينة، فيفكر في الهروب منها والعودة إلى منبع الصفاء والإستقرار و الهدوء. وتفقدالمدينة حينئذ بريقها وتبدو أمامه بزيفها وكذبها، فمسعودة تصل إلى هذه الحقيقة بعد عمر طويل في مدينة الجزائر <<المدينة الذ ي حلمت بها لم تكن سوى زيف. مااخترعه أهلها لم يسعدهم إنما زاد في شقائهم...المدينة ليست حلما، إنها كابوس، أضواؤها كلها إصطناعية، زائفة، كل مافيها مجند لإغتيال الأحلام>>(1). ولتفكير الريفي في الهروب من المدينة عوامل نفسية

---

(1).غدا يوم جديد: ص206.

وموضوعية متداخلة، وأخطر الأسباب النفسية التي يمر بها هي شعوره بالقلق والضجر والإغتراب في عالم المدينة نتيجة عجزه عن تحقيق التوازن الطبيعي الواجب بين ثقافته الأصلية وتنشئته الريفية الأولى و بين طموحاته الكبيرة في تحقيق نموذج مديني لذاته، وهذا، مضافا إلى عوامل موضوعية تميز عالم المدينة، يدفعه إلى التفكير في العودة إلى عالمه الأول، أو على الأقل، إظهار الرغبة في الإبتعاد عن المدينة، والتذمر من وضعيتها وحالتها.

لكن ما هي الدوافع الموضوعية ياترى التي تقف وراء تفكير الإنسان في المدينة في الهروب منها، من خلال النصوص الروائية الجزائرية؟

سأحاول الإجابة عن هذا السؤال بالإستعانة بأربع روايات هي: <<حبان الصبح>> و<<الزلزال>> و<<التفكك>> و<<ليليات إمرأة آرق>>.

تقدم لنا هذه الروايات نماذج شخصيات تعيش في حالة من التذمر والإستيلاء من الأوضاع الإجتماعية التي تحياها في المدينة، و تشترك جميعها في الإشارة إلى ظاهرة عامة تشهدها بعض المدن الجزائرية الكبرى ونعني بها ظاهرة <<الإكتظاظ السكاني>> وما ينجم عنها من فوضى وإزدحام ومعاناة الإنسان في حياته اليومية.

وظاهرة إكتظاظ المدن الكبرى تعود من ناحية علم الإجتماع إلى سببين <<الأول هو الهجرة الريفية الحضرية والثاني هو الزيادة الطبيعية الناجمة عن إنخفاض معدلات الوفاة>>(1). وتعد المدن الجزائرية الكبرى من بين مدن العالم التي عرفت، منذ السبعينات، هجرة ريفية واسعة ساهمت في زيادة عدد السكان بها، وكمثال على كثافة السكان في العاصمة مثلا، فإن قصبة الجزائر وحدها كانت إلى غاية السبعينات <<حيتكدس في مكعباتها الصخرية المتداخلة والتي لا

(1).دراسات في علم الإجتماع الريفي والحضري: ص110.

تفصل بينها إلا الأنهج الضيقة للغاية حوالي: 200.000 نسمة للكيلومتر المربع أو بمعدل خمسة أمتار مربعة للفرد الواحد>>(1).

وتنجر عن الأعداد الهائلة من السكان الذين يتكدسون في المدن الكبرى نتائج سلبية كثيرة أهمها الإزدحام الكبير الذي تعرفه شوارعها وأزقتها ويعاني منه الأفراد في مساكنهم، وحدوث أزمات إجتماعية وأخلاقية خانقة كنقص في السكن وتدهور في الأوضاع الصحية وإنتشار المفاسد والإنحرافات. وظهور المساكن القصديرية مأوى لمن لا مأوى له من الريفيين المهاجرين إلى المدينة أو سكانها الذين تكتظ بهم مساكنهم وتشير الدراسات التي أقيمت حول مدينة الجزائر إلى أنه <<حوالي سنة 1970-1972 شهدت المدينة بروز الأحياء القصديرية بسرعة فائقة>>(2) وتعيش هذه المناطق القصديرية حالات صعبة من الفقر و الحرمان ونقص في الوسائل الضرورية للحياة العصرية من إمدادات بالماء وقنوات الصرف والكهرباء والهاتف، مما يحولها إلى مجرد <<أكواخ...مبنية في المهملات والخردة>>(3)، وحتى هذه الأحياء القصديرية، فإنها لا تسلم من ظاهرة الإكتظاظ لأن الوافدين إليها لا يتوقفون، فهي تستقبل كل وقت عائلات جديدة قادمة من خارج المدينة، في كثير من الأحيان، لذلك فإن<<مآسي العيش في الأحياء الفقيرة تزداد حدة من جراء الإزدحام و إنعدام الخلوة>>(4).

فماهي مظاهر الإزدحام والضيق والفوضى في النصوص الروائية الجزائرية؟.

في رواية <<الزلزال>> يقف عبد المجيد بوالأرواح على واقع المدينة الصاخب الذي تنامت خطورته في السنوات الأولى من الإستقلال، فوجه قسنطينة القديم بتقاليده العريقة ونظامه المنسجم طمسه إزدحام السكان، لاسيما أولئك الغرباء الوافدين عليها من القرى والأرياف والمدن الصغرى، ومما يفاجئه إرتفاع

---

(1).الجغرافيا الحضرية: ص240.

(2).العائلة الجزائرية: ص91.

(3).المدينة ومشاكل الإسكان -تشارز أبرمز- ترجمة: لجنة من الأساتذة الجامعيين -دار الآفاق الجديدة- بيروت. ص11.

(4).المرجع السابق: ص12.

عددهم وتكدسهم في البيوت وضيق أزقة المدينة بهم <<الشقة التي كانت تأوي عائلة أضحت تأوي عدة عائلات. أسر الفرنسيين كانت لا تتعدى الثلاثة أو الأربعة أفراد على أقصى تقدير، أما أسر بني عمك فلا أقل من تسعة أو عشرة، البوادي رحلت إلى القرى والمدن الصغيرة، وهذه رحل سكانها إلى قسنطينة>>(1) ثم أنه لا يكف عن إبداء دهشته من هذه الوضعية التي وصلت إليها المدينة، سيما حين سمع أن عدد سكان المدينة بلغ في ذلك الوقت نصف مليون وهو أمر أثار سخطه، لأن مدينة قسنطينة، في نظره ليست أهلا لإستقطاب مثل تلك الأعداد الهائلة لأنها لا تتوفر على كثير من وسائل الجذب والإغراءات المختلفة إلى طابعها الحضري <<نصف مليون ساكن برمته في المدينة. فوق صحرة. ما الذي أتى بهم إلى هنا؟ أهي مدينة صناعية؟ لا. أهي مدينة تجارية؟ لا. أهي مدينة ثقافية؟ لا.>>(2) و الناس في قسنطينة يزدحمون في بيوتهم و<<ينام بعضهم فوق بعض>>(3) ويزدحمون في شوارع المدينة وساحاتها العمومية ويعطي ذلك كله صورة تتراءى للناظر متداخلة عناصرها، فكل شيء في قسنطينة يراه عبد المجيد بوالأرواح متداخلا <<الباعة متداخلون والتجار والحرفيون متداخلون والجيران متداخلون والآباء متداخلون والأبناء متداخلون والإخوة و الأخوات متداخلون. الراجلون والسيارات متداخلون...>>(4)، ويرجع بوالأرواح هذا الإكتظاظ إلى الهجرة الريفية التي عرفتها المدينة، وقد نجم عنها ضيق في المساكن ومظاهر إجتماعية غير لائقة كالتسول في الشوارع وأمام المساجد والمحلات وإنتشار البطالة <<سبب تجمع الناس في قسنطينة بهذه الصفة المخجلة، هو البطالة. هكذا الشأن في المدن والعواصم الفلاحية. يد تنتج وألف فم يستهلك وواحد

---

(1). الزلزال: ص28.

(2). الزلزال: ص72.

(3). المصدر السابق: ص128.

(4). لمصدر السابق: ص34.

يقبض والآلاف تتفرج>>(1) وتدفع هذه الوضعية المزرية التي تعيشها المدينة إلى التفكير في مغادرتها والهروب منها وهو ما حاوله عبد المجيد بوالأرواح وهم به لولا الأمر المهم الذي جاء من أجله، ويبدو أنه لم يعد يطيق تحمل أجوائها المتغيرة عما عهد قبلا حيث <<الهواء خانق وسط المدينة ثم هذا الخلق الذي لا ينقطع عن الذهاب والمجيء>>(2)، وقد صارت المدينة في نظره صورة <<لعالم الآخرة>>، ولذلك تمنى له الخراب والزلزلة. ومما يلاحظ أن الطاهر وطار <<يركز خاصة على وصف الأحياء الشعبية المكتظة التي لا مكان فيها لأمثال بوالأرواح>>(3) حيث تتجلى كل المظاهر السلبية التي تنجم عن تزاحم الناس في الأماكن العمومية، وسائر ما يوحي لزائر المدينة بقتامة وجهها، ولا نجد في الرواية إشارات واضحة أو مفصلة عن الوجه الآخر لمدينة قسنطينة:

الوجه الذي ينسج تقاسيمه السكان الأثرياء الموسرون، فالكاتب، الذي يرصد تحركات بوالأرواح، لا يلج أحياءهم ولايقترب منهم لأن هدفه قد يكون الإقتصار على إبراز الحالة الإجتماعية <<السيئة>> والسيئة فقط للمدينة نتيجة ضغوط الهجرة الريفية إليها.

و في رواية <<بان البح>> يلتفت الكاتب عبد الحميد بن هدوقة إلى ظاهرة الإكتظاظ والضيق: إكتظاظ المدينة و الشواع والأحياء وضيق المساكن <<فالشدقق والفيلات لا تتسع لإيواء كل أفراد سكانها إيواءا معقولا. ذلك أن معظم السكان من النازحين إلى المدينة في سنوات الإستقلال الأولى. فكانت الأسرة لا تشتمل على ستة أو سبعة أنفار. واليوم أصبحت مرتين>>(4) وما يمثل هذه الحالة دار الشيخ علاوة التي كانت في بداية الأمر فيلا أرضية ثم بنى له دورا أول حين كبر

---

(1). المصدر السابق: ص100.

(2). المصدر السابق: ص40.

(3). البحث عن النقد الأدبي الجديد: ص172.

(4). بان الصبح: ص114.

أبناؤه، ثم أضاف دورا آخر حين زوج إبنه وصار أبناء جدد في الأسرة وهو يفكر في بناء دور آخر.

وتؤدي كثافة عدد أفراد الأسرة الواحدة، مع ما تعيشه من حالات الضيق، بالأطفال إلى إستعمال الطرق للعب واللهو <<أين يذهب أطفال هذه العمارات إذا لم يكن إلى الأنهج المجاورة؟...إنه إذن نهج يلعب فيه سكانه من الأطفال ويلعب فيه أطفال العمارات المجاورة>>(1)، وتسود المدينة حالة من الفوضى العارمة والضجيج لايطيقه رجل كالشيخ علاوة حيث <<أبواق السيارات>> وتزاحم الناس أمام باب الحافلة والتصاقهم بعضهم ببعض بداخلها، فذلك مدعاة إلى أن يشعر بأنه <<متضايق من الناس، متضايق من نفسه، متضايق من هذا الإنتظار الذي لا يكاد ينتهي: متى تأتي هذه الحافلة اللعينة؟>>(2). وإذا كانت بعض الأسر تعيش حالة الضيق هذه فإن أسرا أخرى تتمتع بكثير من السعة في العيش والمسكن، وهو ما يكشف عن تناقضات الحياة في مدينة الجزائر وظهور طبقتين متباينتين: طبقة المحرومين وطبقة الأثرياء التي تمثلها عائلة ابن عبد الجليل بفيلاها الفخمة الواسعة ذات الغرف الكثيرة والحديقة البديعة، ومن مظاهر التباين أن فردا واحدا أعزب من هذه العائلة يمتلك شقة كاملة بمفرده بينما تتكدس عائلة كبيرة العدد فيغرف ضيقة لا تتسع لأفرادها كلهم، ويخصص هذه الشقة لإستقبال الفتيات اللائي يغدر بهن بعد أن يستدرجهن تحت تأثير طيبته المزيفة وخطاباته المؤثرة فضلا عن مظاهره المادية الميسورة وما تتمتع به أسرته من جاه وثراء. وتشير الرواية دون تفصيل إلى وضعية حي القصبة وما آلت إليه أوضاع الناس فيه، سيما أولئك السكان الذين استقروا بها بعدما هجرها <<سكانها الأصليون، خرجوا منها وسكنها أخلاط من كل ناحية>>(3) وتقدم لنا رواية <<التفكك>> مثالا عن مسكن

---

(1).المصدر السابق: ص115.

(2).المصدر السابق: ص19.

(3).المصدر السابق: ص189.

المهاجر الجديد إلى المدينة، حيث يضطر الطاهر الغمري، وربما لظروفه الخاصة أيضا، إلى أن يبتني له بيتا قصديريا في أحد أطراف المدينة يأوي إليه كل مساء بعد أن يعود من <<رحلته>> اليومية إلى الميناء، ويعطي هذا البيت تسميات متعددة فهو <<عرين>> و<<بيت قصديري>> و<<دار للهناء>>، ويسمح له موقعه المشرف على المدينة من مراقبة حركة الناس فيها << وتنظر إلى العباد من أعلى ربوتك ومن خلال عرينك. لم تنظر إليهم وهم يتململون، يضطربون، ويلحون بحركاتهم الفوضوية التي لاإنقطاع لها. تنظر إليهم وهم دائما يبحثون عن شيء>>(1) وتضيق مدينة الجزائر بخلقها الكثير الذي يجوبها نهارا، وتضيق نفسه هو بالمشاهد المتكررة يوميا وبحياة الضياع التي يعيشها وسط عالم صاخب يفتقد كل شيء فيه خصوصيته ويتحول إلى مجرد كتلة من جماد <<والمدينة ترى كل يوم ثيابها تضيق على جسدها والميناء يتكسر أجزاء>>(2)، غير أن الغمري لا يجد ملاذا من هذا العالم الصاخب الذي يرفضه سوى في عرينه أو في ضريح سيدي عبد الرحمان أو في حديقة الحمام.

و ترسم لنا رواية << ليليات امرأة آرق >> صورة أخرى لصخب المدينة واكتظاظها <<انطلقت في الشارع الكبير أزاحم الكائنات وصلت الى محطة الحافلات. مرت الاولى فكانت مكتظة بالركاب فلم تتوقف ،مرت سيارة أجرة فارغة ... مرت حافلة أخرى. توقفت و لم يفتح إلا الباب الخلفي. نزل منها نفر قليل، لم يفتح باب الصعود الأمامي >> (3) وكذا يضيق كل شيء في المدينة بأمواج البشر المتدفقة عليها، و تنكمش هي أمام توسعهم و زوهم المستمرللمساحات الضيقة التي لم تبن في الأساس إلا لعدد محدود من الناس. و مما يلاحظ أن ظاهرة الإكتظاظ و الإزدحام التي يصورها بعض الروائيين الجزائريين

---

(1).التفكك: ص108.

(2).نفسه.

(3).ليليات إمرأة آرق: ص67.

على أنها صورة من صور معاناة الإنسان في المدينة تفرز كذلك حالات متعددة من المعاناة النفسية التي قد تؤدي إلى بعض السلوكات السلبية كالعزلة والسخط والفرار وتوقع أن تصيب الناس والمدينة زلزلة أو بركان ليريحها من ضجيجهم ووطأتهم، ثم إنه لا يمكن الفصل بين المعاناة اليومية من إكتظاظ المدينة وبين الشعور بالإغتراب الذي ينتاب ساكن المدينة، سيما الريفي الذي لم يتمكن من التأقلم مع جو الإزدحام و الفوضى، ثم ما يصحب ذلك من القلق و التوتر النفسي العام الذي تنعكس آثاره على سلوك الناس من خلال تعاملهم اليومي فيما بينهم.

د – المرأة في المدينة :

تأخذ المرأة حيزا كبيرا في كثير من النصوص الروائية الجزائرية، بل قد تشكل القدر الأكبر من إهتمام بعض الروائيين الجزائريين، و في النصوص التي إنصبت عليها هذه الدراسة، لم تغب المرأة عن عالم المدينة، فهي تخوضه كما يخوضه الرجال و تتحمل ما يتحملون من أعبائه الكثيرة و تعاني مثل ما يعانون، بل قد تزيد معاناتها عن معاناة الرجل أحيانا بالنظر إلى وضعيتها في مجتمع المدينة الجزائرية الذي تبقى نظرته إلى المرأة <<تقليدية >> بالرغم من التطور الحاصل في بعض مجالات الحياة المدينية.

و إذا كانت المدينة الحديثة في أروبا قد منحت المرأة مجالا أرحب للتحرر من إرتباطات البيت والأسرة والأعراف حيث أصبحت أنسب مكانا لهن و<<وجدت أمامهن فرص كبيرة خاصة لغير المتزوجات لأن يمارسن أنواعا متعددة من النشاط الإقتصادي، وأن يكون لهن إستقلال إقتصادي ومركز إجتماعي متميز عن مركز الرجل >>(1)، فإن المدينة الجزائرية ظلت تفتح أمامها بابا ضيقا يقف

---

(2).علم الإجتماع الحضري: ص94.

في عتبتــه الرجـل. و نظـرة بعـض الروايـات الجزائريـة إلـى وضعيـة المـرأة فـي المدينة لا تخرج عن صورة الكائن المضطهد الذي يتعرض للإهانة من قبل الكل و يعيش تحت سلطة الرجل.

و إرتباط المرأة بالمدينة و شغفها بـالعيش فـي أجوائهـا لا يقل درجـة عـن إرتبـاط الرجل و شغفه بها، و ذلك لعدة عوامل، إذ أنه في << البلدان المتطورة تسعى المرأة الـى إختيـار الإقامـة بالمدينـة لأنهـا مريحـة و أن الحيـاة فـي الريـف مقهـرة ومكبحة للشهوات >> (1)، و في هذه البلدان يتزايد عدد النسـاء فـي المـدن التـي تتوفر على وسائل أكثر و أكبر للراحة حيث يقيم الأثرياء و المتقاعدون. بينما يقـل عددهن في المدن ذات الطابع الصناعي حيث يسود نشاط رجالي لا تطيقـه النسـاء عادة، و لذلك فإن الدراسات الإجتماعية للمدينة الأوربية تتوقع أن <<التغير في حياة النساء الأجتماعية مندفع بخطوات سريعة و سوف يـؤدي فـي المـدى الطويل إلى تغييرات هامة في البناء الإجتماعي بأسره >>(2).

و في المجتمع الجزائري، فإن التطور الذي شـوهد خـلال السنوات الأخـيرة، سـيما منـذ مرحلـة الإنعـاش الشـامل خـلال فترة السـبعينات لكثـير مـن القطاعـات ومجالات الحياة، قد أفضى إلى وضـع للمـرأة مشـابه للوضـع الـذي تعرفـه المـرأة الأوربية، سيما في عالم المدن الذي تحول إلى مجال خصب لبروز المرأة في كثير من القطاعات ذات الطابع الإقتصادي والثقافي والإجتماعي، بينما لم تستفد المـرأة في الريف شيئا كثيرا من فرص العمل و التعليم و ما يعرف لدى بعض الجمعيـات النسوية بالتحرر و الإنعتاق من سلطة الرجل و التقاليد و حتى الدين، وهو التوجـه ذاته الذي إتجهته المرأة الغربية في بداية << ثورتها >> على وضعها في مجتمعهـا و كرسـته فـي حياتهـا و بلغـت فـي ذلـك شـأوا بعيـدا. و ظهـرت

---

(1). الجغرافيا الحضرية: ص261.

(2). علم الإجتماع الحضري: ص95.

عدة تسميات لهذا النموذج النسائي في الجزائر : فمن قائل المرأة المتحررة، والمرأة العصرية، و المرأة الحديثة، مقابل المرأة التقليدية المنغلقة و المرأة المتخلفة.. إلى آخر هذه التسميات التي زخر بها معجم الجمعيات النسائية في الجزائر.

وقد واكبت الرواية الجزائرية هذه الحركة وذلك التطور الذي شهدته المرأة خاصة في المدينة. فلم تخل رواية من إشارات إلى المرأة تحمل وجهات نظر صاحبها و موقفه المؤيد أو المعارض لما يعرف بتحرر المرأة. ويمكن أن نميز ثلاثة أوجه لصور المرأة في عالم المدينة من خلال النصوص الروائية المدروسة.

- المرأة الريفية .
- المرأة المثقفة.
- المرأة المتمردة.

ففي رواية <<غدا يوم جديد>> تمثل مسعودة نموذج المرأة الريفية التي يحملها الحلم إلى المدينة فتستقر بها بعد أن قدمها لها زوجها مهرا، وقد إكتشفت مسعودة المدينة أول مرة فوجدتها عالما مختلفا عن عالم الريف فكان أول سلوك بدر منها وهي تنزل إليها <<عندما دخلت المدينة لأول مرة، نزعت حذائي الجبلي الغليظ، حذاء <<البيرلي>> المسمر. كانت طريق المدينة عند دي ألين منذ أتذكر أيضا أني لم أنم الليلة الأولى حتى أذان الفجر . ضوء الكهرباء فتنني>>(1) ووجدت هذا العالم واسعا وسكانه كثيرين لا يعرف الناس فيه بعضهم البعض حيث يمكنك أن <<تفعل ما تشاء ولا يسأل عنك أحد ليست كالقرية>>(2). ولم يكن لدى مسعودة أول الأمر من رغبة سوى الإقامة في المدينة، في أي مكان فيها، دون أن تفكر في إختيار مسكن لائق في أحد الأحياء الراقية، فبالنسبة

(1).غدا يوم جديد: ص15.

(2).المصدر السابق: ص18.

أمشـي ...علمتنـي كيـف أنـام، كيـف ألبـس، كيـف أتجمـل، منعتنـي مــن إســتعمال الكحل>> (1). وقد امكن مسعودة بعد ذلك ان تقيـم الفـرق بيـن حياتهـا فـي بيتهـا "القصباوي" الذي غادرته وبين حياتها في شقتها الجديدة بالحي الاروبي ، وأهم ما لاحظت ان الاصوات في الحيين مختلفة <<الغريب في الأمر أن بين الاصدوات التي كنت اسمعها في حي القصبة وبين الأصوات التي صرت أسمعها أحيانـا فـي الحي الأروبــي اختلافـا. الاوروبيـون لايحدثـون أصواتـا كثيرة، أمـا فـي القصبـة، فتستمع الـى خليـط مـن أصـوات الموسيقى والاطفـال والنسـاء والباعـة والصنــاع والحرفيين مما جعلني في البداية أحس كأني أعيش في عالم ممتع مؤنس>>(2). ولكن هذا التأقلم السريع مع الحياة المدنية لم ينس مسعودة جذورها الريفية ، فقـد كانت تشعر بقرويتها رغم كل ما بدا عليها من مظاهر التمدن ولـم تسـتطع رغـم ذلك التخلص من رواسبها الأولى فقـد صـارت الملامـح مدينيـة لكـن الـرأس ظـل قرويا.

وفي رواية "بـان الصبـح" يطالعنـا نموذجـان للمـرأة المثقفـة يعيشـان فـي عـالم المدينة، فأما النمـوذج الاول ، الـذي تمثلـه دليلـة، فقد تشبع بافكـار التحـرر مـن التقاليد والاعراف والسلطة الابوية والانتماء الاسري، ونشد مبتغاه في ممارسـة حريته أفعالا وسلوكات، فهي لاتبالي بما تحرص عليـه الفتـاة الشـريفة عـادة فتقيم علاقة مع شاب من أبناء الأثرياء تنتهي بخيبتهـا. اذ تحبـل منـه وينكـر هـو ذلـك فتضطر إلى مغـادرة بيـت أبيهـا بحثـا عـن آخـر يـداري خيباتهـا، وأمـا النمـوذج الثاني، الذي تمثله نصيرة صوناكوم، فلم يسلك هذا السلوك، لقد كـادت نصـيرة أن تقع هي الاخرى فريسة في يد كريمو لكنها امـرأة كيسـة، فقـد جمعـت إلـى الفطنـة والحرص على الشرف التفتح على الناس في عالم المدينة من حولهـا، فهـي الـى

---

(2).المصدر السابق: ص176.

(2).نفسه.

ذلك فتاة مثقفة معاصرة مدينية ، لم تندفع الى شهواتها أو تفرط في عرضها بدعوى مستواها الثقافي أو الجو العام الذي تعيش فيه المدينة وتعمل وسطه، وقد كان هذا النموذج سندا لسابقه ، اذ وقفت نصيرة الى جانب دليلة في، محنتها وآزرتها فآوتها في بيت عائلتها الكائن بالمرادية وروحت عنها بعض الشيء بالتجول داخل العاصمة وخارجها. ويبدو في سياق الرواية أن ثمة موقفين من المدينة ، اولهما – و هو متطور– هو موقف دليلة التي لم تعد تطيق العيش في المدينة و حتى في البيت بسبب ما حدث لها لذلك كانت ترى خلاصها في هروبها منها و قد أسرت بذلك إلى رفيقتها:

-<<لاأريد أن أعود الى المدينة>>

– << إلى أي مكان تريدين أن نذهب >>

– << لست أدرى. إذهبىإلى أي مكان باستثناء المدينة >>(1).

و تحت وطأة صدمتها، كانت ترى المدينة و قد فقدت كل مظاهر جمالها وعظمتها و أبهتها، و انقلبت على عقبيها مهزومة كهزيمتها هي << لم يكن البحر يبدو في نظرها أزرق شفافا لم تكن الأقواس الممتدة الى ما لا نهاية على يمينها ، حاملة في شموخ شارع الإستقلال وزيغوت يوسف و شي غيفارة ، تظهرها في هندستها البديعة، كانت تبدو لها ظهورا منحنية مما تحمل فوقها من ثقل ، لم يكن الجزء الشرقي من المدينة الذي يرى من هناك في نظرها ذا أبهة و عظمة ورواء لم يثِر في نفسها حتى الغبطة بالإنتماء الى هذه المدينة الجميلة>>(2).

وأما الموقف الثاني، فهو موقف نصيرة التي لا تنظر الى المدينة بعين دليلة،إنها تنظر إليها من جانب آخر إذ يدهشها أحيانا جمالها ليلا و روعة منظرها صباحا لكنها تحزن لما وصلت إليه من إزدحام و اكتظاظ أزقتها الضيقة بالمارة

---

(2).بان الصبح: ص106.

(1).المصدر السابق: ص300.

و الأطفال الذين إتخذوها ملاعب و منتزهات لكن دليلة سرعان ما تغير نظرتها الى المدينة وهي عند نصيرة إذ تراها من مكانها ذاك من المرادية عالما مختلفا ينسيها النظر إليه مصيبتها بعض الوقت ، فهي تصدرح لنصديرة << شد عرت البارحة و أنا أرى الجزائر من هنا كأني أسبح في فضاء من نور..! جميلة جدا الجزائر من هذه الغرفة وجميلة في الحقيقة من كل مكان>>(1) لكن هذا الإنطباع سرعان ما يزول حين تفارق دليلة نصيرة نهارا و تجد نفسها وحيدة في مواجهة مصيرها. و لعل هذه الإزدواجية في موقف دليلة من المدينة مردها إلى انقسام في نفسها بين نموذجين متناقضين للمرأة النموذج الذي يريده لها أبوها و يخيل إليه أنها على صورته والنموذج الذي تريده هي لنفسها، فأما الأول فهو قريب من <<نصيرة >> لذلك تتفق و إياها في النظرة إلى المدينة حين تكون في غرفتها و تنظران من نافذتها سويا الى المدينة ليلا و صباحا، بينما يمثل الثاني صورة صادقة للمرأة المثقفة غير الواعية، تلك التي تؤخذ بالمظاهرو تندفع وسط تيار التحرر بمفهومه الخاطئ فإذا إنتهت إلى أفق مسدود تبدى لها كل شيىء من حولها سرابا وزيفا وظلاما و ذهبت، بلا وعي، لتبحث عن أسهل الحلول و لو كان التشبث برجل لم تتعرف إليه إلا مرتين: أولهما في مسلك بسيارته من البيت إلى الجامعة والثانية بمطعم ما على مقربة الميناء.

و أما الوجه الثالث لصورة المرأة في عالم المدينة من خلال النصوص الروائية الجزائرية المدروسة فهو المرأة المتمردة على واقعها و على مجتمعها بعلاقاته و روابطه و بنياته، وهذا التمرد لا يصدر في الغالب إلا من الفتاة المتعلمة المثقفة التي بلغت في تعلمها مستوى راقيا وتشبعت بما تعلمت من أفكار الغير وثقافته، فكان منشأ تمردها تلك المقارنة التي تعقدها بين ما تعلمت وبين

---

(1).المصدر السابق: ص179.

ما تعيه في واقعها اليومي، فإذا البون شاسع، نقف على هذه الصورة خاصة في روايات رشيد بوجدرة و لاسيما في روايتيه: "التفكك"، "ليليات إمرأة أرق". فهاجس المرأة المتمردة في هاتين الروايتين ينبع من نظرتها إلى نفسها في محيط يسود فيه الرجل و يبسط سلطته عليه، ولذلك ترى المرأة هذا المجتمع مجتمع رجال ولا حظ فيه للمرأة، و لعل هذا كان من دواعي تمردها أيضا، إذ كانت ترى في تمردها تحقيقا << لذاتها>> التي لم تستطع التعبير عنها بصراحة، فإن المدينة ملأى بالرجال الذين ليس لأكثرهم من شغل سوى الإصطفاف أمام المقاهي وعلى طول الشوارع للتمتع بالنظر إلى الفتيات الغاديات الرائحات بزينتهن وعطورهن إذ << يسقط الليل بسرعة و ترى سالمة فوانيس اللوعة و الشهوة المضاءة في عيون المارة فيصعد الغثيان إلى صدرها و الدموع الى حنجرتها>>(1)، وقد بدأ تمرد سالمة على أسرتها إذ ظلت دوما ترفض تسلط أخيها، تخرج متى تشاء وتعود متى تشاء، تعيش في غرفة من الدار و تتنقل بحركة مستمرة بين ثلاث نقاط: البيت، ومقر العمل و بيت الطاهر القصديري << سالمة تعيش بين مكتبها في الخزانة العامة التي تشرف عليها بإحكام وضمير مهني نادر و بين دار الطاهر الغمري القصديرية و منزل أبويها>>(2) وأثناء ذلك كان لابد عليها أن تمر بشوارع المدينة << و بعد العمل كانت تذهب إلى المستشفى، تعبر المدينة وشهوة الذكور المتراصفين يمينا و يسارا محاولين قنصها>>(3) أما موقفها من سلوك هؤلاء فكان يطبعه الكثير من التحدي والإستفزاز إذ كانت <<تستفزهم وترمي بأنوثتها في خضم الشارع و تسلط الفزع و الولع على أولئك الرجال الذين يحومون في المدينة>>(4)، و مظهر التمرد الآخر هو ترددها إلى دار الطاهر الغمري بعد إذ إكتشفته و عدم التحرج من دخولها و الإنفراد به، بل لم

---

(1). التفكك: ص188.

(2). المصدر السابق: ص168.

(3). المصدر السابق: ص166.

(4). نفيه.

المدينة الحلم التي تراها بديلا لهذه الفوضى و هذا الإزدحام: <<لو كان جميع الموظفين مثلي لكانت المدينة في هذه الساعة تبرق برقا، عوضا من تخبطها في أوحالها وقذاراتها وبالوعاتها، لقد كتبت في تقريري أن تورمها الدسم و فوضى سكانها إنما سيقضيان عليها>>(1).

بقيت إشارة الى أن رشيد بوجدرة في رواياته يقدم صورة لمدينة ومجتمع رجاليين، فالرجل يهيمن على مساحات الواقع والحياة في المدينة حتى ليخيل إلينا أن ثمة تفوقا من حيث العدد للرجال على النساء في المدينة. والواقع أن هذا تصور مخالف للنظرة العلمية إلى سكان المدينة ، فقد أفادت الدراسات الإجتماعية التي أجريت على مدينة الجزائر أن هذه المدينة من الناحية الكمية ليست بعالم رجال مع تقدير نسبة هي: <<105 نساء لكل 100 رجل>>(2) كما أن هذه الغلبة للنساء على الرجال من حيث العدد نجدها في عالم الريف و ثمة أسباب كثيرة تؤدي إلى هذا التفوق ليس ذكرها ههنا مماتختص به هذه الدراسة لكن يجب التوكيد على أن المجتمع الجزائري ليس بمجتمع ذكور إذا قدرنا النسبةالعددية وأن ما تتوهمه الرواية من غلبة عدد الرجال إنما مرده إلى موقع المرأة و وظيفتها في المجتمع الجزائري إذ <<يجب ملاحظة أن النساء لهن عالم خاص بهن وأن هذا العالم يوجد في مكان مخفي عن الأنظار في المجتمع الجزائري: داخل أحضان العائلة>>(3). ويشيرهذا التباين بين الحقيقة الفعلية لواقع مجتمع المدينة والصورة التي ترسمها له الرواية إلى قضية مهمة و هي: حدود <<الواقعي>> في العمل الإبداعي. وهذا مايدفعنا إلى التساؤل: هل العملية الإبداعية – سيما في مجال الرواية– تكون بالضرورة تجاوزا لواقع فعلي؟ و هل أن ملحمة المجتمع البرجوازي –على حد تعبير جورج لوكاتش– وهيغل من قبل يجب أن تقفز فوقه لتقدم لنا صورة مضطربة غير متماسكة عنه؟.

(1).المصدر السابق: ص117.

(2).العائلة الجزائرية: ص75.

(3).المرجع السابق: ص76.

مشهورة ومن ذلك مثلا هذا الذي ورد في رواية البزاة: <<فقد انتقل المعلم إلى عصور ما قبل التاريخ وجعل يتحدث عن قوم يسمون بالبربر جاؤوا من المشرق العربي واستوطنوا منطقة الجزائر في حقبة موغلة في القدم>>(1) ويولد لدى مراد من هذا وعي بالتاريخ فإذا به يكتشف أن <<التاريخ لا ينطلق من بلاد الغال ولا من فرنستجيتو–ريكس وهو لا يبدأ أيضا من السيرة النبوية وحدها إنه موغل في القدم>>(2).

تكون الإستعانة في هذا الموضع من الدراسة بأربعة نصوص هي: البزاة ورائحة الكلب، وحمائم الشفق، وفوضى الأشياء.وهذه النصوص يقصر إهتمام أصحابها على مدينة الجزائر وحدها وترد الإشارة إلى محطتين إثنتين من تاريخها أما أولاهما فهي الحقبة التركية: إذ نجد في رواية <<حمائم الشفق>> تلميحا إلى نجاح المدينة في التصدي لإحدى الحملات التي كان يشنها عليها الأوروبيون من البحر، <<والحق أن المدينة كانت قد بنيت على رواسب رملية مهزوزة غداة إنحسار البحر في تلك الواقعة التي أودت بالغزاة الشماليين إلى الأعماق السحيقة>>(3) ولعل الواقعة المقصودة هنا هي حملة شارل الخامس المشهورة التي تصدى لها سكان مدينة الجزائر بمساعدة الأخوين خير الدين وعروج فأحبطوها ودحروا الإسبان فعادت البقية من جيوشهم من حيث أتت وتلك حادثة تذكرها معظم كتب التاريخ التي سلطت الضوء على مدينة الجزائر في هذه الحقبة من تأريخها. وقد ثبت تاريخيا أيضا أن المدينة كانت عرضة لحملات متتالية وعديدة شنها عليها الأوروبيون قبل الأتراك وقلت حدة وعددا أثناء الوجود التركي بها إبتداءا من القرن السادس عشر الميلادي، وقد إلتفتت بعض النصوص الروائية إلى هذه الظاهرة ومن ذلك: <<لم تكن تمر عشرية دون أن تتعرض المدينة

---

(1).البزاة: ص98.

(2).المصدر السابق: ص99.

(3).حمائم الشفق: ص78.

أما المحطة الثانية من تاريخ مدينة الجزائر في الروايات المدروسة فهي لحظات الإحتلال الفرنسي للمدينة حيث نجد فيها ثلاث نقاط هي:

– ما قبل الإحتلال، ولحظات الغزو و المقاومة، ثم حالة المدينة وسكانها بعد الغزو.

تشير رواية<<رائحة الكلب>> إلى النقطة الأولى، وترد حادثة المروحة الذ ي يجمع كثير من المؤرخين على إعتبارها من أسباب الحملة الفرنسية على منطقة سيدي فرج التي كانت بداية الإستيطان الفرنسي بالجزائر، تقول الرواية:<<...ذات صبيحة أمس حار خانق انزلقت فيه المروحة من يد شيخ البلدية العرقى اللزجة فأصابت خد قنصل الألوان الثلاثة، البحر الدم الإستسلام بينما هو يستمتع بلذة الإنبطاح على البطن في ظل عقفتي شارب شيخ البلدية>>(1)، وقد حددت رواية <<حمائم الشفق>> الحملة عدة وعددا ومكاناً في الإشارة التالية <<وقد رست بعرض الميناء مخفية رأسي الخليج شرقا وغربا، خمسة وسبعون قادسا وأربعمائة وواحدة وخمسون سفينة تقل خمسة وثلاثين ألف غاز يشهرون سيوفهم...ويسددون إلى الساحل الصخري مدافع قوادسهم>>(2) أما مكان نزول الحملة الذي هو شاطىء سيدي فرج فنجد الإشارة إليه في الموضع التالي: <<حنزلت جيوش الغزاة غرب المدينة معتقدة أنها قضت على أولى دفعات المقاومين>>(3) ثم اتجهت الجيوش الفرنسية شرقا دون مقاومة فعالة ورست السفن قبالة المدينة وقصفتها قصفا <<أرعد نهارها فأضاء مدينتكم ممطرا بوابل من القذائف النارية أسوارها العتيدة وبيوتها المحدبة وأزقتها الضيقة >>(4).

وتنقل رواية <<البزاة>> صورة للمقاومة الشعبية غداة الغزو وتصدي سكان المدينة الذين انتظموا دفاعا عنها، للهجمات الفرنسية التي كانت تنطلق من عرض

---

(1).رائحة الكلب: ص93.

(2).حمائم الشفق: ص153.

(3).المصدر السابق: ص154.

(3).المصدر السابق: ص157.

البحر، وقد شاب هذا التصوير كثير من القداسة والأسطورية حملهما عقل مراد الطفل الثائر ومنبع <<الأسطورية>> في ذلك <<قلعة الأمبراطور>> المعروفة التي وقع عليها بصر مراد منتصبة فوق الربوة والتي سجل فيها المجاهدون حدثا بطوليا ليلة تعرض المدينة للغزو <<ولعل أشهر حكاية عن هذه هي تلك التي تردد مآثر ذلك الجمع من المجاهدين البواسل الذين صمدوا في وجه الجحافل الفرنسية حين هجومها على القصبة من ضواحي سيدي فرج>>(1) وقد اتخذت قلعة الأمبراطور تسمية <<برج بوليلة>> منذ تلك الحادثة التي تناقلت الألسنة روايتها، وتفيد الحكاية المتداولة أن <<هؤلاء المجاهدين قضوا ليلة كاملة في بناء البرج...بات ساكنو القصبة ليلتهم في خوف من الجحافل الفرنسية غير أن جماعة المجاهدين التي اجتمعت وراء أسوار البرج طمأنت السكان وعقدت العزم على مواجهة تلك الجحافل أو الموت دفاعا عن المدينة... وحين اقتراب المغيرين آثر هؤلاء المجاهدون نسف البرج والإستشهاد داخله>>(2).

وثمة صور أخرى للمقاومة والصمود ينقلها لنا الجيلالي خلاص في روايتيه، فسكان المدينة دأبوا على التصدي لأعدائهم ورد هجماتهم منذ أن أصبحت مدينتهم مطمعا للغزاة الوافدين إليها من البحر شمالا، ومن هذه الصور <<وسرعان ما انتشرنا عبر شوارع المدينة وأزقتها مطاردين العدو أينما إختفى>>(3)، <<ولاريح إلا أنتم وقد ركبكم جنون الإستماتة ذودا عن المدينة المحبوبة>>(4)، ودفاع السكان عن مدينتهم لم يكن -كما يذكر الكاتب دفاعا عن مصالح فردية ونفوذ شخصية وإنما كان بدافع من عشقهم إياها، وهكذا يرتبط الإنسان بالمدينة عبر التاريخ ويسهم هو، قبل غيره من العوامل، في صناعة تاريخها وصبغها بالصبغة التي يريد، فالجزائر، إذا عرفت بالمدينة الأكثر عرضة للغزوات منذ

---

(1). البزاة: ص56.

(2). المصدر السابق: ص56 - 57.

(3). حمائم الشفق: ص15.

(4). المصدر السابق: ص156.

القدم، فإنها أيضا المدينة الأكثر صمودا ورفضا للرضوخ، ولقد شهدت على ذلك الصمود الحروب <<الطويلة التي خاضها سكان المدينة ضد الغزاة الشماليين>>(1) .

ولما تم الغزو وبسط الفرنسيون نفوذهم على المدينة بعد أن أخفق السكان في ردهم هذه المرة بسبب تقاعس الحكام في الدفاع عنها تقاعسا شبيها بالخيانة والتواطؤ -كما يصفه بعض المؤرخين ويراه بعض الكتاب-، ساءت أحوال المدينة ووقعت المظالم على أهلها الذين اضطر الكثير منهم إلى مغادرتها، وكان أول ما عمد إليه الغزاة تغيير ملامحها و الإستيلاء على ممتلكات الأهالي من قصور ودور وأموال خاصة وعامة وتذكر بعض المصادر حقائق كثيرة عن هذه العمليات البربرية التي تتنافى و مزاعم الفرنسيين بأنهم أمة حضارة ومساواة وحرية وأخوة. وقد ذكر صاحب <<المرآة>> كثيرا من هذه المواقف و الأعمال المخالفة لمبادىء <<الثورة الفرنسية>> وأسسها، وقد أنكر هو ذاته على الجيوش الفرنسية ذلك، وهو من هو بالنسبة إلى فرنسا آنذاك. وقد حاول بعض الروائيين أن يقفوا على جانب مما حدث للمدينة وسكانها بعد الغزو، وإن لم يحظ ذلك بتفاصيل كثيرة. <<وهي لاتنفك متربعة على الصخرة المنيعة أو المزعومة مناعتها حتى يومنا هذا وحتى بعد إقتحام الأجانب حرمتها فأرضخوها وأطاعوها ونهبوها ففعلوا ما فعلوا واستعمروا ماالستعمروا>>(2) وتذهب رواية <<حمائم الشفق>> إلى إعتبار غزو الفرنسيين لمدينة الجزائر إنتقاما وحقدا على تاريخها والحضارة الإسلامية التي تنتمي إليها، وهذا ما يضفي على الغزو الفرنسي لها الصبغة الصليبية الحاقدة ذات الجذور التاريخية والأسباب الدينية و الحضارية التي غذاها الصراع العنيف والمتواصل على امتداد قرون من الزمن بين الشرق الإسلامي و الغرب المسيحي، و قد شوه الغزاة وجه المدينة و بدلوا في كثير من معمارها: فحولوا المساجد إلى كنائس و سكنوا قصور الأثرياء الذين هجروها

---

(1) رائحة الكلب: ص98.

(2) فوضى الأشياء: ص15.

ذعرا أو اخرجوا منها قهرا ودمروا كثيرا من المباني ليمدوا مكانها الطرقات أو يقيموا المنشآت العسكرية التي يحتاجون إليها، و هذا مشهد من مشاهد التدمير والتخريب اللذين ينمان عن حقد دفين <<أحرق السلاليم الخشبية المنقوشة بآيات الدم المعصور من قلوب عهود المجد و اقتلع الفيسيفساء المزركش من على الجدران و الفورات و الأقواس...لا شيء كان يشفي غليل الغزات كتشريح جسد تلك المدينة الأخطبوطية التي أرهبتهم بأنافاتهاالأسطورية و مناعاتها الخالدة>>(1). و على المستوى الاجتماعي، فقد عانى السكان كثيرا من الظلم وذاقوا ألوانا من المهانة و ساءت أحوالهم المادية و المعنوية بسبب ما كانوا يلقون من الاضطهاد و الطرد، فكثر عدد الفقراء فيهم و انتشرت المجاعات و<<الأروبيون هم سبب هذا الشبح المخيف الذي يقض مضجعه و يهدد مستقبل أسرته. و من حقه أن يبادر الى مقاومتهم. و الأروبيون هم السبب في البؤس الذي يعاني منه محمد الصغير و رفاقه من أطفال الحي. و هم السبب في الفقر على طول البلاد و عرضها>>(2)، كما أنهم السبب في إنتشار بعض الأمراض الدخيلة على مجتمع مدينة الجزائر كالقمار و مصاحبة الخليلات علانية <<هؤلاء الأروبيون يكرهوننا منذ القدم و ينقمون علينا باستمرار>>(3) و هم <<السبب الرئيسي في دخول لعبة القمار هذه إلى الجزائر>>(4).

3- المدينة و الريف:

إن العلاقة بين المدينة و الريف قديمة و مستمرة، ذلك ان المدينة تعتمد على الريف منذ ظهورها، فهو الذي يمد سكانها بما يضمن لهم البقاء و الحياة، و من ناحية أخرى، فقد اقتضى تطور الانسان في العصر الحديث ان تتحول المدينة إلى

---

(1).حمائم الشفق: ص160.

(2).البزاة: ص38.

(3).المصدر السابق: ص152.

(4).المصدر السابق: ص22.

ظهير حقيقي للريف الذي أصبح سكانه يعتمدون كذلك على ما تنتج المدينة من اللباس و الآلات و بعض الأطعمة التي لا يوفرها الوسط الريفي بامكاناته الزراعية الطبيعية، و ارتباط الريف بالمدينة على هذه الصورة لم ينشأ إلا في ظل التقدم العلمي و التكنولوجي الكبير الذي احرزته المدينة، و دون أن تستطيع هذه التخلص مطلقا من تبعيتها للريف، و قد كان، ماضيا، بإمكان الريف الاستغناء عن المدينة ما دامت هذه لا تشكل عصب حياته، و ما دام انسان الريف قادرا على تسيير حياته الخاصة و ضمان قوته و لباسه بنفسه، و لعل حاجة الريف إلى المدينة تضاعفت و اشتدت منذ الثورة الصناعية في أروبا، حيث سخرت الصناعة لخدمة الزراعة فتطورت صناعة الآلات ذات الوظائف الزراعية التي يسرت كثيرا على الفلاحين في الأرياف أعمالهم و زادت من انتاجهم، و قد كانت المدينة مصدرا لكل الصناعات. لكن <<المدينة بخدمتها للريف تس تفيد هي الأخرى من الأرباح التي تجنيها و تحققها من الاتجار و بيع المحاصيل المختلفة>>(1)

وهذه العلاقة التكاملية بين المحيطين تطورت بصورة مستمرة حتى أصبح من غير الممكن اليوم أن يتراجع أحدهما عن الآخر و ينفصل عنه إلى درجة أنه لم يعد ثمة من فرق واضح بينهما اللهم إلا فيما يختص به الريف دون المدينة من طابعي زراعي و ما تختص به المدينة من طابع عمراني و بشري و علمي وتكنولوجي، أما خاصية الصناعة، فلم تعد اليوم حكرا على المدينة وحدها إذ نجد مصانع كثيرة منتشرة في الأوساط الريفية مما يسهل على الفلاحين أعمالهم ويوفر عليهم المشقة و التنقل.

و على مستوى آخر، فإن الريف ظل مصدرا قويا لليد العاملة، يمد المدينة بها ويسهم بذلك في توفير الرأسمال البشري الذي بإمكانه أن يستجيب لحاجات

---

(1).أزمة المدينة العربية: ص55. — عبد الإله ابو عياش / وكالة المطبوعات / الكويت / ط/ ١٩٨٠

التطور السريع الذي تشهده المدينة. و قد أدى ذلك أحيانا إلى نزوح ريفي نحو المدن اتخذ أحد نمطين: إما نزوح مؤقت أو هجرة يومية أو فردية و إما نزوح دائم بغرض الاستقرار نهائيا في المدينة، و هو ما يؤدي الى عواقب وخيمة على الوسطين معا تظهر في التفاقم الاجتماعي الذي يعرفه عالم المدينة، و التراجع الإقتصادي، سيما الزراعي، الذي يشهده الريف، و هذه ظاهرة متفشية في البلاد النامية. أما في الدول المتقدمة فهي أقل حدة نظرا إلى التوازن الذي حدث في حياة الريفيين والمدينيين على حد سواء. بل إن هناك في أروبا و أمريكا من يفكر في الهجرة المعاكسة: أي من المدن إلى الأرياف <<فالبحث و التمسك بالإقامة في الأرياف هي ظاهرة يسعى نحوها الكثير من سكان المدن تهربا من ضجيج المدينة وازدحامها>>(1). و قد يؤدي تدفق الريفيين على المدن إلى تزايد مستمر في عدد السكان مما يحتم على المدينة أن تتوسع في مجالها و تضم إليها مناطق مما يشكل مجال الريف لتلبية حاجاتها المستمرة فتكتسب من ذلك علاقة <<إستيلاء>> حين <<تهاجم الريف و تفقد دورها التقليدي. هذا الهجوم مجالي واجتماعي، مجالي حول النواة المركزية المختنقة بالنشاطات و الخالية من الإقامات...اجتماعي لأن هذه الأشياه الحضارية و هي الضواحي، نصفها حضاري و نصفها ريفي،تجمع بين مساوىء و محاسن الحالتين>>(2).

و جملة القول في العلاقة بين الريف والمدينة، من وجهة نظر اجتماعية ما ورد في مدينة الفارابي الفاضلة التي سبق فيها برأيه ما خلص إليه بعض العلماء والدارسين حديثا، إذ ينظر الفارابي إلى هذه العلاقة على أن <<المحلة والقرية هما جميعا لأهل المدينة: إلا أن القرية للمدينة على أنها خادمة للمدينة. والمحلة للمدينة على أنها جزؤها..>>(3).

---

(1).الجغرافيا الحضرية: ص392.

(2).المرجع السابق: ص406.

(3).المدينة الفاضلة -علي عبد الواحد وافي-: ص35.

و قد حافظ الريف و المدينة الجزائريان على هذه العلاقة إلى وقت متأخر، لكن الوجه المعاصر الذي طبعت به المدينة، ذا المظاهر المغربة، جذب إليه أعدادا هائلة من سكان الأرياف <<ففي خمسة و عشرين عاما، انتقل مركز الثقل في الجزائر من الأرياف نحو المدن التي كان يعيش فيها نصف السكان... وهذه العملية قد بدأت قبل عام 1954 غير أنها ازدادت مع الدرب>>(1) ثم شهدت الجزائر حركة نزوح أخرى بعد الاستقلال كانت أكبر من سابقتها لأن الأمر، كان هذه المرة، يتعلق <<باحتلال مكان المستعمر و الدخول في العالم الذي كان قديما ممنوعا من الآخر والإستفادة أيضا من التحديث المكتسب>>(2) ثم كانت موجة ثالثة مع شروع الجزائر في التصنيع، و رابعة اقتصرت على الاطارات والمثقفين ذوي الأصول الريفية.

و إذا كانت العلاقة بين الأرياف و المدن في كثير من بلدان العالم، تواصلية تكاملية و نفعية، فإن بعض الدارسين لشؤون المجتمع الجزائري يرون أن ثمة قطيعة تامة بين الريف و المدينة الجزائريين و منهم مصطفى الأشرف الذي يرى أنه <<من النادر أن تجد في أي بلد، ما يمكن أن تجده في بلادنا. حيث حصلت القطيعة بين الحواضر و البوادي وأصبح الهم الوحيد بالنسبة لأهالي البادية هو النزوح إلى المدن>>(3)، ومفهوم القطيعة هنا لايبدو واضحا ولادقيقا، إذ أثبتت الدراسات أنه يستحيل على الريفي النازح إلى المدينة أن ينقطع جذريا عن أصوله الريفية، إذ يظل محافظا على ثقافته الريفية، وقد خلصت دراسة أجريت في هذا المجال إلى أن السكان الريفيين <<مرتبطون بصفة محسوسة بأصولهم أكثر من السكان "الحضريين" الذين اكتسبوا صفة الحضرية منذ القديم>>(4).

وعلى مستوى الإبداع الأدبي، في مجال الرواية، فإن العلاقة بين المدينة

---

(1) تاريخ الجزائر الحديث -د.عبد القادر جغلول- ترجمة: فيصل عباس -الطبعة الثانية- دار الحداثة - بيروت:1982- ص266.

(2).نفسه.

(3).الجزائر: الأمة والمجتمع: مصطفى الأشرف- ترجمة: د.حنفي بن عيسى -المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر:1983- ص38.

(4).العائلة الجزائرية: ص118.

والريف لاتتحدد بصورة مباشرة، لكن ملامحها تستقى من خلال بعض المشاهد التي يركز عليها بعض الكتاب والتي تنم أيضا عن موقف منهم إزاء هذه العلاقة. هناك نزعة إلى عقد مقارنة مباشرة بين العالمين، وثمة تصوير لعقلية ريفية في المدينة، وبين ذلك يتأرجح الموقف بين رفض المدينة وقبولها، ولكن الغالب على تصور الكتاب أن المدينة يمكن أن توجد عالما مستقلا عن الأرياف، ويمكن الإنسان الريفي أن يتخلص من حياة الحرمان التي يفرضها عليه الريف وينفتح على عالم جديد يغمره سعادة ورفاهية، ومن وجهة الرغبة هذه، يبدو الأمر مطابقا لرأي الدكتور مصطفى الأشرف السابق، لكن اللاشعور، والوجدان العميق للإنسان، سرعان ما يكشفـأ زعن وجه آخر له، فإذا به يكتشف أنه لايمكنه أبدا إلا أن يسلك سلوك منبته ويفكر وفق عقليته الأولى التي إكتسبها من وسطه الريفي الأصل.

وفي أغلب النصوص الروائية الجزائرية يلاحظ أن معظم الشخصيات فيها نازحة من الريف إلى المدينة نزوحا دائما بقصد الإقامة النهائية بها، ولا نعثر على هجرة يومية بحكم العمل اليومي في المدينة، كما لا نعثر على هجرة من المدينة إلى الريف، فقدور ومسعودة والشيخ علاوة والطاهر الغمري وعاشور الماندرينا، وجدة مراد ونعيمة وغير هؤلاء، كلهم قدموا إلى المدينة من الأرياف ومنهم من إستقر بها إستقرارا نهائيا.

ويمكن، من جهة أخرى، ملاحظة الجذور الأولى لوجود الريفيين في المدن: فنجد، من بين هذه الشخصيات الروائية ثلاثة أصناف من المهاجرين: صنف هاجر قبل الإستقلال: كقدور ومسعودة في رواية: <<غدا يوم جديد>> وعبد المجيد بوالأرواح في <<الزلزال>> وعائلة مراد في <<طيور في الظهيرة والبزاة>> وصنف إستقر بالمدينة غداة الإستقلال كعائلة الشيخ علاوة في <<بان الصبح>> التي <<خلفت>> المعمرين في مسكنهم، وصنف ثالث توافد على المدينة مع التحول الصناعي والثقافي الذي شهدته الجزائر في نهاية الستينات

وبداية السبعينات وهو ما يمثلــه مجموع النـاس الذين كـان يصـادفهم عبد المجيد بوالأرواح في مدينة قسنطينة، والصحفي المثقف في رواية <<رائحة الكلب>>.

و تبدو هذه الأصنــاف مطابقـة للموجـات الثـلاث التـي عرفتهـا حركـة الـنزوح الريفي إلى المدن و التي حددها الدكتور عبدالقادر جغلول، أعلاه، فهـل يعنـي هـذا نقطـة تقـاطع بيـن الدراسـة الإجتماعيـة و بيـن الروايـة جنسـا أدبيـا ألصـق بواقــع المجتمع أكثر من غيره من الأجناس؟.

و الأهـم بعـد هـذا العـودة إلـى النصـوص الروائيـة الجزائريـة و إبـراز حـدود العلاقة بين المدينة و الريف فيها، و قد اقتصر التمثيل عل ى نصين همـا: <<غـدا يوم جديد>> و <<الزلزال>>. فف ي الروايـ ة الأول ى ينصـ ب الحديـ ث علـ ى شخصيات و كاتب من أصل ريفي، و هو مـا تؤكـده مسـعودة و هـي تتحـدث إلـى الراوي الذي لا يكون سوى الكاتب: <<أنت مثلي. كما قيل لـ ي. عشـت فـي قريـة جبلية من تلك القرى التي تستضيىء بـالنجوم. هـل عرفـت القـرى و هـي مغطـاة بالثلوج؟>>(1) فإذا كانت مسـعودة نموذجـا لتلـك المـرأة الريفيـة المتعطشـة لحيـاة المدينة و زوجها قدور مثالا لليد العاملة التي يزود بها الريف المدينة، فإن الكـاتب يمثل نموذج المثقفين الجزائريين ذوي الأصول الريفيـة الذيـن شـغفوا بـالعيش فـي المدينـة لمـا تتوفـر عليـه مـن وسـائل مناسبة لممارسـة نشـاطهم الثقـافي و الأدبـي والعلمي، و الريفي في المدينة يعيش دائما على المقارنة بين صـورتيـن متنـاقضتين أولاهما لعالم <<طارد>> و الثانية لعالم <<جاذب>> و تـرد هـذه المقارنـة علـى عـدة مستويات: إذ نجـد <<قـدورا>> يقـارن بيـن المظـاهر فـي كـل مـن القريـ ة والمدينة <<حاول قدور أن يفهم عمتـ ه بـأن حيـاة المدينـة غـير حيـاة الباديـة، وأن الأروبييـن يسـخرون مـن حيـاة المـرأة ذات الوشـام و أن النسـاء المحترمـات

---

(1).غدا يوم جديد: ص14.

بالمدينة لا يشمن>>(1). و ترد مقارنة أخرى بين الأمكنة التي تؤدي الوظائف نفسها، على اختلاف في طبيعتها و من ذلك مثلا المقارنة بين العين في الدشرة والحمام في المدينة <<إن العين في الدشرة كالحمام في المدينة، فيها تتبادل الأخبار و المعلومات بين نساء الدشرة و يتعرفن على ما يجري في وطنهن الصغير، و فيها أيضا تتناقل الإشاعات و الغراميات و الإتفاقات>>(2). و لعل هذه المقارنة يكون من دوافعها صعوبة التخلص من صورة الريف التي ظلت عالقة في ذهن المهاجر إلى المدينة، فهو يرى أنه ما من شيء فيها إلا ويشبه آخر في الريف، ومن هذا النموذج ماستقر في خيال القروي من تشبيه البحارة بالرعاة <<"الدشرة" كدور "عوينة الرومية" والبحارة هنا هم الرعاة>>(3) مع ما يلاحظ من فرق كبير بين البحارة والرعاة من حيث الوظيفة والهيئة و الملامح.

وقد يذهب الأمر بالقروي إلى حد التعالي على أهل قريته حين ينتسب مرة إلى المدينة فيحقق بذلك تلك القطيعة المزعومة التي تحدث عنها الدكتور مصطفى الأشرف ، وهو لذلك يترفع عن عاداتهم وسلوكهم التي كانت يوما ما عاداته وسلوكه هو ذاته، وخير من يمثل هذا النموذج قدور في الرواية نفسها: <<ماذا يصير في هذه الدنيا ماذا؟ قدور يأتي من الجزائر ليكون شماتة للدشراويين، عبيد الشنبيط والدرك والقائد! قدور يأتي من الجزائر لتسخر منه قروية جعلت من وجهها فراشا>>(4)، والفراش هو الوشم الذي كان قدور يأنف منه لأنه لم يره على وجوه نساء المدينة وهو بذلك رمز للريف ونسائه اللائي لا يرقين -في نظره- إلى درجة المدينيات، ومن أجل ذلك رفض الزواج من خديجة لأنها أخلت، بوشمها، بأحد شروط العيش في المدينة، وقد تجبر المدينة الريفي على تغيير سلوكه، فهذا عزوز يتغير سلوكه في نقلة من الريف إلى المدينة من وجهة نظر

---

(1).المصدر السابق: ص136.

(2).المصدر السابق: ص146.

(3).غدا يوم جديد: ص151.

(4).نفسه.

مسعودة -ربيبته- <<لكن عزوزا في المدينة لم يكن عزوز الريف الذي تعرفه>>(1). وثمة مقارنة أخرى على المستوى التجريدي، هناك تباين في الإحساس بالزمن بين الريف و المدينة، فقد أفضى التغيير في المعيشة والسلوك والتفكير إلى تغيير في العمق الإنساني، والتعامل مع الزمن تعاملا مغايرا، مسعودة تدرك هذا الإحساس الجديد بالزمن وتكتشف أن زمن المدينة لم يكن كزمن الريف، هناك فرق في إدراكه وفرق في إستغلاله: <<في الدشرة لم نكن نعرف الزمن. عرفته هنا في المدينة. كنا نعرف أوقات الصلاة، الصيام، العيدين، رأس العام الهجري يوم الجمعة ويوم السوق. لم يكن الزمان إمتدادا، كان يدور: الربيع، الصيف، الخريف، ثم الشتاء>>(2) وهذا الشكل الإمتدادي المستمر الذي إتخذه الزمن في المدينة أوحت به ظروف الحياة فيها، حيث لاوقت يضيع سدى، ولافراغ ولا مجال لإنتظار يوم ما أو ساعة من الزمن أو مناسبة من المناسبات والإستعداد لذلك طويلا، فكل شيء في المدينة يذهب سريعا ويأتي سريعا خلافا لما هو سائد في الريف حيث يفضي الفراغ الرهيب الذي يعانيه الإنسان هناك، على قلة ما يشغله وضيق مجاله الحركي، إلى إنطباع أن الأيام واللحظات متشابهة، وحركة الزمن دائرية ما دام يترقب الأيام ذاتها والمناسبات نفسها.

أما في رواية << الزلزال >> فإن المدينة تكاد تفقد طابعها الحضري، فلا تحتفظ منه سوى بعمرانها الذي بقي وحده يقاوم عملية <<التريف>> التي شنها عليها النازحون إليها من القرى والمدن الصغيرة، وقد كان يخيل إلى عبد المجيد بوالأرواح، وهو يتجول فيها ويكتشف وجهها الجديد من خلال الملامح المختلفة والمتناقضة، أن القرى والأرياف إرتحلت إلى المدينة، فقد نقل إليها النازحون ما طبعوا به أريافهم من سلوكات ولهجات وأنشطة إقتصادية وعادات في الملبس والمأكل، وبالجملة <<لقد أقاموا في كل شبر من المدينة الحياةالتي كانوا يحيونها

---

(1).غدا يوم جديد: ص170.

(2).الرواية: ص37 - 38.

في قراهم وبواديهم. لقد أسسوا في كل ركن من قسنطينة قرية أو دشرة. لاعلاقة لأحد منهم بالآخر سوى البيع والشراء، ولا يضير أحدهم أن يمارس حياة قريته سواء هنا أو في مكان آخر.>>(1).

ويؤيد هذا السلوك ما يذهب إليه أحد الدارسين من أن الوجود الجسماني بالمدينة لايعني بالضرورة الإنتساب إليها، وإنما المقياس في هذا الإنتساب، الذي يعني أيضا إكتساب صفة التحضر، يتحدد في مدى تخلي القادم إلى المدينة عن ذهنيته وممارساته الريفية واستعداده للتأقلم مع معطيات الحياة الجديدة. ولعل سلوك أولئك القادمين إلى قسنطينة من القرى والأرياف والمدن الصغيرة هو الذي أدى إلى إقامة حاجز ثقيل بينهم وبين أهل المدينة وسكانها الأصليين: <<كل سبب كراهية الحضريين للأفاقيين، وهو وجه جديد>>(2)، ومن شأن هذا الحاجز أن يعطي العلاقة بين الريفي والمديني طابع الإنحسار ولا يشجع كثيرا على ذوبان الريفي في مجتمع المدينة وتقبل المديني للوافد إليه من الريف.

وعلى مستوى آخر، وعلى سبيل المقارنة مرة أخرى، فإنه يبدو أن الطابع الإنسجامي الذي يطبع المجتمع الريفي لا يتحقق في مجتمع المدينة الذي يعيش على الإنشطار المستمر وتفكك عرى الأسرة وبروز النزعة الفردية وطغيانها على سلوكات الإنسان في تعامله مع محيطه، وقد نجد في النصوص الروائية نماذج لذلك، ليس هذا المقام مناسبا لسردها.

ونخلص إلى أن: علاقة المدينة بالريف في الرواية الجزائرية نفعية محضة وتكاد تكون أحادية الجانب: بمعنى أن الريفي وحده يأتي المدينة ولا ينتقل المديني إلى الريف، وهجرة الريفي تكون بدافع تلبية حاجاته الخاصة والتي يقف في مقدمتها تحقيق مستوى أحسن للحياة. ولا توضح الرواية الجزائرية الطابع

---

(1). الزلزال. ص57.

(2). نفسه.

الإقتصادي الذي تكتسبه العلاقة بين الريف و المدينة كما تؤكده الدراسات الإجتماعية المختصة في هذا المجال. وقد إهتمت أيضا بالإنسان الريفي في المدينة إهتماما غيب المديني فيها.

4- المدينة و الثورة التحريرية:

من الثابت في تاريخ الجزائر الحديث ان المقاومات الشعبية و الثورات التي اندلعت ضد الاحتلال الفرنسي منذ دخوله إلى تراب الجزائر احتضنتها الأرياف والبوادي و الجبال، و لم يكن للمدن حظ كبير منها، و لعل لذلك أسبابه الموضوعية و التاريخية: فالمدن الجزائرية القديمة ظلت تتحمل وحدها الضربات المتتالية التي كانت تشنها الحملات الأروبية الكثيرة و كانت ترد بعضها و تغرق تحت وطأة البعض الأخر بحسب ظروف قوتها أو ضعفها، بينما لم تعرف الأرياف و البوادي مثل هذه الهجمات، و كان الصدام بينها و بين قوات الجيش الفرنسي أول ما حدث لأغلبها من مواجهة مع عدو أجنبي، و قد رأت في هذا العدو أكبر دافع لها على النهوض موحدة قصد التصدي له، إلا أن التاريخ أثبت ما آلت إليه المقاومات الشعبية في الأرياف و البوادي من الإخفاق نتيجة أسباب موضوعية و تاريخية أيضا.

و في المدن لم يثن إخفاق مقاومة الاستعمار التي خاضها السكان في بداية امر الاحتلال، الحضريين عن الاستمرار في رفض الوجود الفرنسي، و إن اتخذت المقاومة شكلا آخر غير السلاح و نعني به النضال السياسي ذا الأوجه المتعددة و«تغير ابتداءا من العام 1918 مركز الثقل للحركة الوطنية، فالنضالات الحضرية قد شدت الانتباه خاصة (الانتخابات، و المظاهرات، و الإضرابات

العمالية). و فعلا فقد تكون في المدن أشكال من التنظيمات العصرية للنضال ضد المستعمرين: الأحزاب الوطنية و النقابات>>(1).

و قد نشطت الحركة الوطنيةالجزائرية في المدن مع بدء ظهور الأحزاب السياسية الوطنية منذ العشرينيات و تنامي الفكر الوطني القومي على يد نخبة من المثقفين الوطنيين، و كان من مظاهر هذا النشاط إنشاء الصحف و النوادي والجمعيات الثقافية التي تبلورت في أوساطها فكرة التحرر و الاستقلال عن فرنسا وتحقيق الهوية الوطنية ذات الأبعاد المتميزة. وكانت الجزائر العاصمة من أهم مراكز النضال السياسي و نواة الاشعاع الفكري و الثوري التي تنبثق منها أشكال رفض الاستعمار المتعددة، و لم تقل عنها مدينة قسنطينة شأنا، كونها كانت مهد الحركة الإصلاحية بزعامة الإمام ابن باديس والشيخ الإبراهيمي، ثم مدن أخرى كوهران وتلمسان وعنابة و بسكرة وميزاب وغيرها.

و الثابت في التاريخ أن هذا الوعي السياسي الذي نشأ ونما واكتمل في المدن لم يؤد إلى قيام الثورة بها، بل إن الثورة التحريرية الجزائرية لعام 1954 قامت بالجبال ومنها كانت تنطلق كل العمليات العسكرية التي استهدفت الاحتلال الفرنسي والمعمرين الأروبيين، ولم تمتد إلى المدن إلا في مرحلة لاحقة وحين اشتد لهيب الثورة في الجبال.

و الواقع أن <<الحركة القومية التي نشأت في هذه الحواضر يغلب عليها الطابع البرجوازي. و قد اخذت بالفعل تقاوم الإيديولوجية الإستعمارية>>(2)، وهذه المقاومة التدريجية كان من نتائجها إبان الثورة التحريرة أن تأخرت المدن عن الأرياف والجبال في تلقف الثورة و القيام بالعمليات الفدائية، لكن المؤكد أن أهل المدن لم يقفوا بمعزل عن الثورة في لحظاتها الأولى ذلك أن <<العديد من أهل

---

(1).تاريخ الجزائر الحديث: ص130 – 131.

(2).الجزائر: المدينة والمجتمع: ص38.

المدن قد صعدوا إلى الجبل>>(1). و لعل تغلغل ثورة التحرير الجزائرية داخل المدن تبرز مظاهره في العمليات الجريئة التي كانت تستهدف بعض المنشآت والمباني الإستعمارية وفي أشكال التعبير عن الثورة والرفض الأخرى <<ولنتذكر مثلا الإضراب العام في عام 1956 ومظاهرات أهل المدن الكبيرة في كانون الأول 1960>>(2).

ولقد كان للثورة التحريرية صدى واسع في الأعمال الأدبية الجزائرية شعرا ونثرا سواء في تلك التي ولدت متزامنة مع الثورة أم تلك التي أبدعت في السنوات التي أعقبت الإستقلال الوطني و<<لقد عبر الأدب الجزائري قصة ورواية عن الحرب التحريرية أحسن تعبير، لكن في عالم واحد هو عالم الريف، حتى لكأن الريف وحده هو الذي خاض الثورة، ولكأن المدينة ظلت تلكم الفترة نائمة لا تحيا لا سلبا ولا إيجابا>>(3).

ولعل أول نص روائي جزائري تحدث عن الثورة في المدينة هو طيور في الظهيرة ثم البزاة وقد <<أراد أن يتحدث عن ه ذه الذورة في روايته من وجهة نظر شباب المدينة وطفولتها>>(4) لكن رواية <<طيور في الظهيرة>> لا تصور شيئا كثيرا عن أجواء الثورة في المدينة في مرحلتها المتطورة أما رواية <<البزاة>> والتي ستكون و<<طيورفي الظهيرة>> مبلغ إهتمامنا في ه ذا الموضع من الدراسة، فقد وردت بعض إشارات إلى الثورة في مرحلتها المتطورة.

وتباشير الثورة الذ ي نقف عليها في رواية <<طيور في الظهيرة>> نجد ملامحها واضحة في علاقات الناس بعضهم ببعض، أما على مستوى الظاهر والمرئي فلا شيء يمكن تسجيله إذ لم يحدث أي تغير في حي القصبة وكان مراد قد <<حتناهى إلى مسامعه أن العساكر يفتشون كل داخل إلى القصبة، لكنه لم

---

(1)(4)تاريخ الجزائر الحديث: ص136.

(2).نفسه.

(3).طيور في الظهيرة -مقدمة الطاهر وطار: ص9.

(4).الرواية العرلابية الجزائرية الحديثة: ص212.

يبصر شيئا من هذا القبيل. الناس يتحركون كعادتهم والأطفال ذاهبون إلى المدرسة.>>(1) وظل كل شيء كما عهده مراد من قبل: مركز الشرطة، المقاهي العامرة بروادها، صاحب الشواء، والباعة يباشرون أعمالهم كما دأبوا قبل ذلك اليوم، لكنه <<لاحظ شيئا واحدا: هو أن حراسة سجن <<بربروس>> كانت أقوى من المعتاد>>(2) أما التغير الحاصل على مستوى العلاقات بين الناس فتترجمه سلوكاتهم تجاه بعضهم البعض حيث <<لاحظ أن بعض الناس يتهامسون فيما بينهم بدلا من أن يرفعوا أصواتهم الجهيرة كعادتهم>>(3)، ولأول مرة يشاهد مراد دورية عسكرية في الزقاق تفتش المارة، وهو ما يدل على تغير آخر أكثر تطورا، لكنه لم يبلغ بعد درجة إدراك الأطفال له. ويصل التغير إلى درجة أرقى في رواية <<البزاة>> حيث تصدير الثورة في المدينة واقعا مشهودا، غير أن الكاتب مرزاق بقطاش يتتبع في هذه الرواية نسقا منتظما ومتصاعدا تتطور وفقه الأحداث في المدينة من تسجيل التغير الحاصل على مستوى الظاهر والمسموع إلى إدراك الثورة ومعايشتها حقيقة كحقيقة وجودها في الجبال.

فبداية الثورة في المدينة كانت إنطلاقا من التغير الذي لاحظه مراد في الحي الذي يقطنه إذ أن <<وضعية الحي بأكمله تغيرت تماما منذ الإحتفال بالذكرى الثانية لأول نوفمبر، فالدوريات العسكرية صارت تطوف به أكثر فأكثر، وتتحرش بساكنيه دونما سبب ظاهر>>(4). وقد مس التغير الأطفال أنفسهم <<فلم يعد يجمعهم شمل كما مضى، ولم تعد حناجرهم تنطلق بالنشيد>>(5). وقد مس هذا التغير <<مرادا>> ذاته، إذ اضطر والده إلى إدخاله إلى المدرسة العربية التي تقع في أعلى الحي، وانقطع بذلك عن سلوك مسلكه المعتاد الذي كان يؤدي به يوميا إلى مدرسته القديمة.

---

(1).طيور في الظهيرة: ص62.

(2).نفسه.

(3).المصدر السابق: ص63.

(4).البزاة: ص14.

(5).نفسه.

وعلى مستوى التحركات العسكرية فقد تعززت القوات الفرنسية بعدد كبير من العساكر إنتشرت في الأحياء و الطرقات والأماكن العامة، وذلك مما قلص أيضا من تحركات الناس في المدينة وحد بالتالي من علاقاتهم بعضهم ببعض و<<لقد جاء العساكر ذوو القبعات الحمراء واستقروا في فيلا يمتلكها تاجر معروف في الحي>>(1)، وكان أول ما قام به هؤلاء العساكر أنهم سيجوا الغابة المجاورة للحي بالأسلاك الشائكة حتى لا يدخلها أحد، وقد شهدت هذه الغابة أحداثا خطيرة قبل أيام من ذلك. ومع ذلك كله فلا شيء محسوسا يؤكد وصول الثورة إلى المدينة، فقد إقتصر وجودها، إلى ذلك الحين، على مستوى ما كان يصل من أخبارها من الجبال، وكان الطفل مراد يرغب في إمتدادها إلى المدينة لتغيير ما لحق بها من ضائقة و قمع فتمنى أن يصيبها إنفجار عنيف يمسها بكاملها لأن <<الإنفجار هو الطريقة المثلى للقضاء على المآسي>>(2)، لكنه كان يدرك أيضا أن هذا الإنفجار المأمول لن يحدث مادام <<المجاهدون يقصرون ضرباتهم على الجبال>>(3).

إلا أن تأخر المدينة عن الثورة لم يدم أكثر من عامين، فقد حدثت في ذلك الشتاء أشياء كثيرة، فعاش سكان المدينة الثورة واقعا ملموسا. وفي الرواية تتصاعد أحداث الثورة في المدينة، إذ تبدأ أعمالا فردية ثم تصبح حالة عامة.

ولعل من أهم الأعمال الفردية التي تمثل المظاهر المتطورة للثورة التحريرية في المدينة ما يلي:

- نسف المقاهي وإغتيال الخونة فقد كان مراد <<يسمع بين الحين والآخر أخبارا عن الخونة الذين يلاقون مصرعهم في المدينة وعن بعض القنابل اليدوية التي تنفجر في المقاهي الأوروبية>>(4)، وإن كان مثل هذه الأعمال دليلا على إمتداد الثورة إلى المدينة فإنه يظل في ذهنية مراد غير كاف لأنه لا يصل بالمدينة إلى

---

(1).المصدر السابق: ص15.

(2).نفسه.

(3).نفسه.

(4).المصدر السابق: ص58.

درجة التفجير المأمول، ولقد آمن بالقوة صغيرا وبالعنف الذي لا يرى للبلاد بديلا عنه إذ ا أرادت أن تتحرر.

- حادثة إستشهاد الطفل عبد الرحمان الذي ألقى عليه العساكر القبض واستنطقوه ثم عذبوه وقتلوه شر قتل ة، إذ <<طعذوه في جانب رقبته ثم علقوه مثلما تعلق الأنعام المذبوحة>>(1)، وظل معلقا بالقصابة التي كسروا بابها، وعذبوه بخيوط الكهرباء المتفرعة من محرك المبرد.

- إعتقال المعلم بالمدرسة التي كان يختلف إليها مراد حيث <<كان الهزال باديا على المعلم بعد أن قضى ستة عشر يوما في محتشد يقع في الطرف العلوي من المدينة>>(2).

- حادثة السوق: التي رواها الطفل محمد لمراد الذي زعم أنه <<رأى بأم عينيه كيف أخرج فدائي مسدسه بالقرب من السوق الذي يعمل فيه وكيف وقعت أنظاره على ذلك الفدائي فغمزه بأن يسكت ويبتعد عن المكان. ثم أنه رآه يقترب من شخص ما بين الأربعين والخمسين ويطلق عليه رصاصة فتصيبه في يده اليسرى>>(3).

لكن هذه العمليات الفدائية الفردية سرعان ما تعززت بعمل ثوري جماعي أنيط به كل الوطنيين من أبناء المدينة و تجسد ذلك في الرواية في مظهرين:

- تحول القصبة كلها إلى معقل للثورة ومنطلق للثوار الذين بدأت أسماء بعضهم تنتشر بين الناس فيتحدثون عن بطولاتهم وشجاعتهم ويتمنى الأطفال رؤيتهم والإلتحاق بهم، هذا التحول يشير إليه هذا المقطع من الرواية: <<فأضحت القصبة رمزا للكفاح، حتى أن الأخبار المتواترة على ألسنة الناس لم تكن تدور إلا على بطولة <<علي لابوانت>> الخارقة وجماعة الفدائيين الذين إتخذوا القصبة مركزا لهم>>(4).

---

(1).المصدر السابق: ص85.

(2).المصدر السابق: ص118.

(3)).المصدر السابق: ض168.

(4).المصدر السابق: ص165.

- الإضراب الذي شنه التجار وحاولت القوات الفرنسية تكسيره بالقوة فأرغمت بعض التجار على فتح محلاتهم وهدمت أبواب محلات أخرى بالدبابات، ومن مظاهر القوة في تكسير الإضراب: <<حبأن العساكر قد أخرجوا القصاب من داره، وأرغموه على الجلوس داخل قصابته التي هدموا بابها، وفعلوا نفس الشيء مع الحلاق وبائع الفحم>>(1)، كما أن مرادا ذاته شاهد <<إحدى الدبابات كانت تكسر بخرطومها الحديدي أبواب الحوانيت المغلقة في قلب الحي>>(2).

ولقد كان لتصاعد العمل المسلح في المدينة وإشتداد لهيب الثورة أثره على فرنسا التي ذهبت إلى الإستعانة بقوات إضافية وقف عليها مراد وهو يصحب أباه في جولة بالقارب إذ لاحظ <<وهو يقفز داخل القارب أربعة من الطرادات الحربية بالقرب من مباني الأميرالية...قال والده... بأن تلك الطرادات مكلفة بحراسة الميناء وخاصة تلك البواخر الكبيرة التي تأتي بالعتاد الحربي بين الوقت والآخر>>(3).

ومما نخلص إليه في خاتمة هذا العنصر أن مرزاق بقطاش في ثنائيته يتتبع الثورة في مدينة الجزائر منذ أن كانت أخبارا ترد إلى آذان السكان من الجبال إلى أن وصل صداها إلىالمدينة في شكل عمليات فدائية أول الأمر إلى أن صارت عملا مسلحا ومقاومة شعبية جماعية أفرزت صورا للشجاعة والبطولة. وهذا ما يتفق إلى حد بعيد مع رأي الأستاذ عبد القادر جغلول السالف من أن الحواضر قد عرفت المقاومة تدريجيا.

---

(1).المصدر السابق: ص214.

(2).المصدر السابق: ص213.

(3).المصدر السابق: ص155.

5 المدينة والزمن:

إن الديمومة التي تميز الزمن تمنح الحياة، في مختلف صورها، مجالا أكبر للحركية والتغير، و من طبيعة هذه الحركية التجديد الذي تنتفي معه خاصية الثبات والتكرار، وإذا كان <<الزمان كحركة قبل المكان>>(1) فإنه من الواضح أن الإنسان ليس بمقدوره العيش دون هذين العنصرين مجتمعين، ولذا يصير إرتباطهما به وإرتباط أحدهما بالآخر أمرا حتميا، وإذا كان الإحساس بالزمن أحد أهم خصائص الوجود الإنساني، فإن الإحساس بالمكان خاصية مكملة وتلقائية لتحقيق ذلك الترابط الضروري بين الإنسان وبعديه اللذين يتحرك في إطارهما. ويبدو أن<<هذا الفهم للزمان والمكان ضروري عند الحديث عن الرواية التي هي مفعول زمني>>(2)، وتكمن أهميته في نقطتين اثنتين:

1- أولاهما هي أن الرواية بناء ذو أبعاد ليس المكان ولا الزمان مفصولين عنها.

2- إن للرواية خاصية الحركية و الديمومة كالزمن الذي يدركه الإنسان.

ولعل قضية الزمن هي من أكثر القضايا تعقيدا وتشابكا وقد أولتها الكتابات الإبداعية الحديثة أهمية خاصة وعدت في كثير منها ظاهرة تقنية أكثر حساسية من كثير غيرها.

وعلى مستوى الرواية، فإنه <<لم يكن الزمن يشكل قضية صعبة في الرواية الكلاسيكية ولكنه في الرواية الحديثة أصبح مشكلة صعبة>>(3)، وكثيرا ما أثيرت مع هذه الصعوبة قضايا ذهنية وفلسفية كبرى يرتبط بعضها بالكون والإنسان. بينما يرتبط بعض آخر بالميتافيزقيا والنظريات العلمية الحديثة أو التصورات التي تحاول أن ترتكز إلى فرضيات علمية تجد في الخيال العلمي مجالا خصبا وتجنح في ذلك كله إلى التجرد من بعدي الزمان والمكان، ويكون بذلك <<كل إنتقال في

١٨٠

(1).نجيب محفوظ في مجهوله المعلوم: ص23.

(2).نفسه.

(3).دراسات في روايات نجيب محفوظ الذهنية: ص107.

المدى يفرض تنظيما جديدا للمدى الزمني>>(1)، وقد يؤدي ذلك إلى حتمية التطور المكاني مع الحركية الزمانية بغض النظر عن المدة التي يستغرقها ذلك التطور، وهو ما يحمل على القول بجدلية التحول المكاني والزماني على مستوى الواقع وعلى مستوى النص الروائي أيضا إعتبارا من خاصية الحركية السابقة. فإلى أي مدى يحدث التحول الزمني تحولا في المكان؟ وما حدود ذلك في الإبداع الأدبي؟ وهذا ما نحاول أن نبحثه في هذا الموضع من الدراسة ونقتصر، على المدينة من جملة أنواع المكان، فيكون السؤال مصوغا على النحو الآتي: ما العلاقة بين حركية الزمان و المدينة؟ إلى أي مدى تحققت حركية المدينة أو لم تتحقق مع حركية الزمان؟ ما مجالات هذه الحركية؟ .

وتكون الإستعانة في توضيح ذلك بثلاثة من النصوص الروائية الجزائرية العربية التي شملها هذا البحث و هي <<الزلزال>>، <<فوضى الأشياء>>، و<<غدا يوم جديد>>.

وقد كان تعامل هؤلاء الكتاب مع علاقة المدينة بالزمن من ثلاث زوايا:

- المدينة ماضيا.
- المدينة حاضرا.
- المدينة بين الماضي والحاضر.

والماضي في هذه الروايات هو في الغالب تلك الفترة الممتدة إلى ما قبل الإستقلال الوطني، أما الحاضر فينحصر في مرحلتين: بداية السبعينيات في رواية <<الزلزال>> وهو زمن الخلق والزمن الخارجي أيضا(2)، و مرحلة ما بعد أكتوبر 1988 في <<فوضى الأشياء>> و<<غدا يوم جديد>> مع تداخل واضح بين الماضي والحاضر في هاتين الروايتين. وقد يستغل حاضر المدينة لإستحضار

---

(1) بحوث في الرواية الجديدة -ميشال بوتور- ترجمة: فريد أنطونيوس -الطبعة الثانية- منشورات عويدات: بيروت - باريس- ص104.

(2) ينظر: دراسات في روايا نجيب محفوظ الذهنية: 107 - 119.

ماضيها على سبيل المقارنة والمفارقة بين واقعها الذي تغير عمرانا واجتماعا وذهنية، أو حافظ على ثباته في ناحية من هذه النواحي الثلاث وتغير في نواح أخرى.

يقدم الطاهر وطار في <<الزلزال>> صورة عن مدينة قسنطينة زمن الفرنسيين حيث <<كانت هادئة. هادئة بشكل ملفت للنظر. تدب فيها الحياة مع مطلع النهار، رويدا رويدا، وتزدهر بين العاشرة ومنتصف النهار، ثم تخفت فجأة، حتى الساعة الثالثة لتستأنف تصاعدها...>>(1). وقد كان للمدينة وضع إجتماعي مغاير يتميز بعدم التجانس الطبقي والعرقي فضلا عن وجهها الفاخر ذي المظاهر الفخمة <<هنا كان الملتقى. الموظفون المسلمون، كبار الفلاحين والمعمرين، الآغوات والباشاغوات. كبار أصحاب الأعمال والتجار. هنا كان الدخول ممنوعا على الرعاع...ستائر البلور والحرير ترفرف وروائح عطورباريس تعبق...>>(2). وفي المدينة حاضرا أمكنة كبيرة تبعث على إستحضار صور لأشخاص كان لهم جاه وصيت ماضيا، ففي رأس أحد الشوارع تقع مكتبة <<مامي اسماعيل>> التي تغيرت صورتها ووظيفتها عما كانت عليه من قبل وأمسى صاحبها بلا جاهه القديم وبلا صيته، فقديما <<النواب والآغوات والباشاغوات والقياد كانوا يعينون من مكتبته والأمور الكبيرة كان يفصل فيها ههنا>>(3). أما في شارع فرنسا سابقا فقد <<كان الحب والغرام والحبور والمرح يشع من عيون الغادات الأوروبيات والإسرائيليات. هنا ما كانت تتقطع روائح عطر الياسمين، وعطر حلم الذهب، وعطر البيان>>(4).

غير أن التحول التاريخي الكبير الذي شهدته الجزائر إبتداء من سنة 1962 لم يبق للمدينة على كثير من هذه المظاهر، فقد أدى هذا التحول إلى إنقلاب عميق

---

(1). الزلزال: ص12.

(2). المصدر السابق: ص71.

(3). المصدر السابق: ص42.

(4). المصدر السابق: ص35.

تتجلى مظاهره في الحالة التي آلت إليها المدينة إلى الفترة التي كتبت فيها الرواية، لقد أحس عبد المجيد بوالأرواح بأن تقلب الزمن على المدينة قد أحدث تغيرا كبيرا عليها، سيما على المستوى الإجتماعي من حيث علاقة الناس بعضهم ببعض وعلاقتهم بالمدينة، لقد كان للزمن مفعول سلبي تجاه هذه المدينة، أو بالأحرى فإن الناس فيها لم يحسنوا إستغلال الزمن بما يسهم في الحركية الإيجابية للمدينة التي تدهورت حالها –في نظره– ولم يعد بالإمكان العيش فيها. ومن مشاهد التدهور الذي أصاب المدينة ماورد في هذه المقاطع من الرواية: <<تأمل مدخل المطعم فلم يصدق عينيه، المكان هو المكان لكن حاله تغيرت كثيرا...

<< إلتفت إلى المقهى المواجه، ألفاه في موضعه، لكنه متدهور بشكل فظيع،...

<<نزل درجة إلى اليمين ليجد نفسه داخل المحل. طلاء الجدران ذائب إلى درجة فقد معها لونه، المقاعد اختفت وحلت محلها مصاطب خشبية متداعية، والمناضد المستديرة، حلت محلها رفوف زنكية على الجدران>>(1).

وأمام هذا الموقف المحير لم يملك عبد المجيد بوالأرواح إلا إبداء الدهشة وعلق على ذلك كله وكأنه مازال غير مصدق مارأى بعينيه: <<لا حول ولا قوة إلا بالله، أحقا هذا هو مطعم بلباي الذي عرفت فيه الآغوات والباشوات والمشائخ وكبار القوم، أصحاب الأرض والأغنام>>(2).

وقد رسخ تغير الأمكنة المألوفة لدى بوالأرواح في ذهنه إحساسا بأن المدينة كلها تغيرت و<<انقلبت رأسا على عقب>> وانتهت مدينة قسنطينة بانتهاء زمنها الأول الذي أكسبها فيه الفرنسيون والأوروبيون وجها زاهيا، وانتكست في زمن الحاضر الذي يراها فيه ويتفقد أحوالها التي آلت إليها: <<قسنطينة الحقيقية إنتهت...أين قسنطينة بلباي وبالفقون وبن جلول وبنتشيكو وبنكرارة؟ زلزلت

---

(1).الزلزال: ص23.

(2).نفسه.

زلزالها، زلزلت زلزالها وحل محلها قسنطينة بوفنارة وبوالشعير وبوطمين وبوكل الحيوانات والنباتات>>(1)، ولم يبق في قسنطينة القديمة شيء ذلك أن القادمين إليها من قراهم ومدنهم الصغيرة المجاورة لقسنطينة أو البعيدة منها قد <<هدموا عالما وأقاموا آخر. داسوا فوق روح عنق قسنطينة، وراحوا يضغطون، وهاهم يضغطون أكثر فوق صخرتها>>(2).

أما في رواية <<فوضى الأشياء>> فتعيش المدينة، على آثار مظاهرات أكتوبر 1988، ويحيل الكاتب، كل مرة، إلى لحظاتها البعيدة نسبيا، الممتدة إلى زمن ما قبل الإستقلال، وحاضر مدينة الجزائر لا يختلف كثيرا عن بعض محطات ماضيها سيما تلك التي عرفت إشتداد وطيس الثورة التحريرية، حيث تتكرر في هذا الحاضر مشاهد عاشتها في ماضيها، سيما تلك التي تحمل الخراب والدمار. <<كانت المدينة تظهر وكأنها أنيقة أو -بالأحرى- هادئة أو شبه ساكنة على الرغم من الدبابات الرابضة في النقاط الحساسة منها والركام والحطام والواجهات المحروقة والبنايات المحطمة والزجاج المبعثر وشظايا الفلز المهشمة والسيارات (أو ماتبقى منها) المكلسة...>>(3) وثمة حالة من الإهمال تسود المدينة إنعكست مظاهرها في ما إنتشر عبر أزقتها وشوارعها من الأوساخ والقاذورات <<وسرعان ما تتلاشى المظاهر المرئية فتحل محلها وشائج الروائح النتنة...بل تتزاحم العفونة القارسة والبالوعات المغثية والأسماك الطازجة والمبولات المعفنة بسوائلها المتسربة في الأزقة والشوارع والنفايات الفائحة والقمم الفغرة..>>(4)، ولعل أحسن ما يعبر عن خراب المدينة هذا والحالة التي آلت إليها بعد أحداث أكتوبر، هذا المقطع <<والمدينة -إذن- فقدت صبغتها الفطرية وأصبحت عبارة عن سقط معماري، عن نفاية إجتماعية، عن حثالة بشرية، عن

---

(1).المصدر السابق: ص28.

(2).المصدر السابق: ص39.

(3).فوضى الأشياء: ص12 - 13.

(4).نفسه.

شبه رسم بياني غير نافع ومملوء أوساخا وملطخ بالأقذار ومغطى برقاقات الزجاج المتكسر>>(1)، وفي مواضع أخرى كثيرة، تقدم الرواية صورا لوضع مترد تعيشه المدينة في حاضرها، ويهيل الكاتب على هذه الصور مساحات من التهويل والرثاء والنقمة حتى تغدو المدينة وقد فقدت كل شيء يتصل بكيانها حاضرا ولم تصبح أكثر من خرقة بالية لاتنفع لشيء.

ويستحضر الكاتب في مواضع أخرى، يتقاطع فيها الحاضر مع الماضي، حالات للمدينة في زمانها السابق إن على سبيل الذكر أو بقصد المقارنة، والظاهر أنه كان للزمن مفعول سيء على مدينة الجزائر، إذ تكاد المدينة تتشابه حالتها بين ماضيها وحاضرها، ويكفي الإشارة إلى هذا المقطع من الرواية لندرك قتامة الصورة التي كانت عليها مدينة الجزائر العتيقة قديما، زمن الإستعمار الفرنسي: <<فكنا ندخل في متاهات وتعرجات وخلفيات أزقة المدينة القديمة حيث يطفو عليها دائما مزيج من الزيت المحروق والغسيل الزنج والسردين السنخ والخمير القنة والطبخ القديم، أي تطفو منها رائحة الفقر التي تفوح من جميع الأحياء الفقيرة في جميع المدن في العالم>>(2)، هذه الصورة العامة لماضي المدينة التي تتكرر في حاضرها أيضا تختزلها مقارنة بين وجهين لمكان واحد وهو المقهى: وجه ماض وآخر حاضر، لكن الفرق بينهما لا يعدو الفارق الزماني: لم يتغير المقهى في حاضره، لقد اكتسب أيضا صورة الدمار التي عرفها ذات يوم ثورة وهو يدك بفعل قنبلة وضعها فيه أحد الفدائيين، واليوم ينسف أيضا ويدمر في زخم المظاهرات وأساليب الرفض العنيفة <<وكان هذا المقهى لثلاثين عاما مضت قد تحطم تحطيما هائلا بتفجير قنبلة ضاربة ناسفة. أما الآن فقد أحرق من جديد ودمر شر تدمير فتحول إلى ركام حجرا وحديدا وخشبا>>(3)، ويبدو، من هذا،

(1). المصدر السابق: ص39.

(2). المصدر السابق: ص144.

(3). فوضى الأشياء: ص11.

أن سيرورة الزمن وحركيته أفضت إلى تكرار الأحداث عوض تطورها وعودة المشاهد الماضية لتمثل هي ذاتها في المدينة، وهو ما يحمل على الإعتقاد في أن حركية الزمان لا تؤدي بالضرورة إلى حركية المكان -حسب الرواية- ولعل المظهر الوحيد الذي نلمس فيه خاصية التغير في مدينة الجزائر تلك المقارنة بين تمثالين في رحبة واحدة: <<كان في نفس المكان لثلاثين عاما مضت تمثال آخر يحاكي هذا التمثال ضخامة ويهيمن على الساحة هيمنة عشوائية فيزيد ضيقا على ضيق، لافرق بين التمثالين سوى أن الأول كان يمثل جنرالا فرنسيا يرتدي زيا عسكريا وقبعة عسكرية ويمتشق سيفا عسكريا، فيما هذا يمثل أميرا جزائريا يرتدي برنسا عربيا ويمتشق سيفا عربيا>>(1).

وصورة المقهى والتمثال حاضرا، تحيل إلى أحداث ماضية يتحدد إطارها الزماني بالقياس <<ثلاثين عاما>> أو بالإشارة إلى العشرية بالتحديد <<وكأني بفيلم تتسلسل صوره الرديئة أمامي قد ألتقطت من الخمسينات>>(2)، وواضح من هذاأن هذه <<الثلاثين عاما>> تعود بدايتها إلى <<الخمسينات>>.

وما يستنتج في هذا الموضع أن علاقة مدينة الجزائر بالزمن، تقوم على الثبات والتكرار، وتنتفي فيه خاصية الحركية والتغير التي ينبغي أن تصيب مكانا كالمدينة تمشيا مع حركية الزمن، لاشيء يتبدل في المدينة: الأماكن ذاتها والعمران ذاته والأحداث ذاتها والمشاهد نفسها تعاد بدمارها وخرابها بعد ثلاثين عاما، والمدينة تعيد مشهدها العام بقذارته وروائحه القديمة المستمرة في الإنتشار إستمرارية الزمن في ديمومته، لكن هذه النظرة يجب أن تؤخذ دائما على أنها موقف كاتب، ورؤية أملتها ظروفه الخاصة: النفسية والثقافية والفكرية، كما أملت، على الطاهر وطار، ظروفه هذه: أن يرى مدينة قسنطينة وقد أحدث فيها تبدل

---

(1).فوضى الأشياء: ص11.

(2).نفسه.

الزمـان تغيرا فـي الملامـح، حتـى وإن كـان سلبيا علـى غير النحـو الـذي يريـده بوالأرواح.

وفي رواية <<غدا يـوم جديد>> ترتبـط مدينة الجزائر بالزمن مـن خلال فترات ثلاث متقاطعة ومتداخلة ومتواصلة: هي فترة مابين الإستقلال، ومرحلة 19 جوان 1965، ومرحلة مل بعد أكتوبـر 1988 إلـى جـوان 1991، والملاحـظ فـي هذه الرواية أن الأحداث في المدينة لا تتكـرر كاملـة عبر هـذه المراحل الزمنيـة، وإن كان منها ما يرد على سبيل المشابهة والمقارنة، ومـاضي المدينـة الـذي تمثلـه الفترتـان الأولـى والثانية يمثل فـي ذاكرة مسـعودة <<أتذكـر المدينـة بسـكانها الأجانب،عندما كانت للأجـانب، وكنـا فيهـا نحـن الأجـانب، أتذكـر القصبـة يـوم أن كـانت ممـرات للأغنـام والبحـارة الأجـانب، يـوم كـانت دورهـا محـارب ومقـابر ومعاهر، ثم لما صارت خنادق للصمود والتضحيات والبطولات>>(1)، وعلـى المستوى السياسي في تلك المرحلة تشير الرواية إلى بعض مظـاهر النضـال التـي كـانت تلمس فـي بعض الأنديـة الثقافيـة كنـادي الترقي الـذي كـان يختلـف إليـه <<قدور>> ليستمع إلى محاضرات الشـيخ العربـي التبسـي: <<في الجزائـر يتحدثون كثيرا عن السياسة. كم مرة سمع الناس يقولون إن الوطن أخذ بالقوة ولـن يعود إلا بالقوة. سمع ذلك في نادي الترقي، في بعض المقاهي <<الوطنيـة>> بـل حتى في المرسى مـن بعـض النقـابيين الجزائريين>>(2)، ومـن جهـة الإسـتعمار الفرنسي فإن المدينة كـانت تفقد صبغتهـا الحضاريـة والقانونيـة عندمـا توكـل إلـى القرى مهمة المحاكمات السياسية خوفا من إثارة الرأي العام، فموقع القـرى البعيـد عن المدن يسهل هذا النوع من المحاكمات الذي ينتهي عادة على النحو الذي تريده السلطات الإستعمارية دون حدوث معارضة للأحكام الجائرة.

---

(1). غدا يوم جديد: ص122.

(2). المصدر السابق: ص62.

أما الفترة الثانية <<19 جوان 1965>> فلا تعدو الومضة السريعة إستدعاها مشهد وقعت عليه عينا مسعودة رأت فيه شبها بينة وبين مشهد آخر مماثل إستقر في ذاكرتها من ذلك اليوم <<كنت ذات يوم مارة من هناك كعادتي، وإذا بـ ي أرى على مثلث الأزهار دبابة. كان ذلك في 19 جوان 1965 وفي 19 جوان من هذه السنة بنفس المكان، رأيت، وأنا مارة من هناك في سد يارة، دبابة>>(1) وإذا كان هذا الفارق بين الزمنين (1965 - 1991) قد أنتج مشهدا واحدا متكررا، فإن التحليل قاد مسعودة إلى إدراك الفارق بين أسباب هذا المشهد قديما وأسبابه حديثا، وهو ما يحيل إلى تطور ظاهر في مستوى الرؤية من الداخل لما يرى من الخارج، وهذا ما يرد في المقطع الموالي <<في 19 جوان 1965 كانت شوارعنا هادئة، كان الأمل يجلل وجوه الناس، تلك الأحداث التي جاءت بالدبابة إلى مثلث الأزهار لا تهم إلا قلة من ذوي القصور الجديدة. أما في 19 جوان من هذه السنة، فشوارعها كلها سواء، القاذورات تمتد على طول الأرصفة، الوجوه سوداء، تذكر بقرون الظلام والإنحطاط بعد دخول المغول إلى بغداد كما يحك ي التاريخ>>(2)، وواضح من هذا أن تكرر المشهد في فترتين متباعدتين قد لا يفضي بالضرورة إلى النتائج نفسها، وهو ما يحملنا على إستنباط أن حركية الزمان قد ينتج عنها تطور لسلوك الإنسان في تأثيره على المكان.

والرواية تخصص حيزا كبيرا للذاكرة، لذا كان حظ الحاضر فيها يسيرا، ولكن مساحة الحاضر هذه على ضيقها، تفتح بابا واسعا لملامسة الحقيقة والكشف عن التحول السياسي المهم الذي حدث في الجزائر بعد 5 أكتوبر 1988، وإنعكاساته الجلية على مجتمع المدينة التي ظلت، بعد ثلاثين عاما من الإستقلال، تئن تحت وطأة الفقر والحرمان في الأحياء القصديرية، فكان ميلاد <<الأطفال الذين ولدوا

(1).المصدر السابق: ص305.

(2).نفسه.

في الأكواخ القصديرية التي بنتها لهم قصور الإستقلال>>(1) هو الذي فجر ذلك الغضب العارم الذي شهدته المدينة في ذلك اليوم وترجمته <<أكواخ الزجاج التي ملأت الأنهج. أدخنة الغازات والسيارات والبنايات المحترقة>>(2). وهذا المشهد الأول في المدينة يحيل على مشهد آخر مماثل له لا يقل عنه قوة وعنفا مع فارق في الزمان والظروف السياسية المحيطة، هو مظاهرات 11 ديسمبر 1960 التي رسخت صورها في ذاكرة مسعودة من بين ما رسخ <<أزيز الرشاشات والبنادق والدبابات ذكرتني في 11 ديسمبر، وأياما أخرى(3). لكن دماء أكتوبر سالت في الشارع الذي بنته الرذيلة والنسيان! دماء ديسمبر سالت في الحلم الآخر! ذلك هو الفرق>>(4).

وخلاصة لما تقدم في هذا الفصل نسجل الإستنتاجات التالية:

1- إن علاقة الإنسان بالمدينة بدأت في صورة حلم راود ذلك الريفي الذي رأى في المدينة خلاصا له من حرمانه وتعطشه للحياة الرخية التي لا يجدها في بيئته الريفية.

2- غير أن هذا الحلم كثيرا ما ينكسر حين يفشل في مواجهة واقع المدينة والإستجابة لظروف حياة مجتمعها فينعكس عليه ذلك إغترابا ووحشة وحنينا إلى ماض عاشه في أنس وبساطة.

3- حاولت بعض النصوص الروائية التصدي لبعض المشكلات الإجتماعية التي يعانيها عالم المدينة كالإزدحام والضيق والنمو الديمغرافي، لكن ذلك لم يشكل موضوعا مستقلا لأي من هذه النصوص.

4- عمدت بعض الروايات إلى إبراز وضعية المرأة في المدينة إبرازا خاصا ورسمتها على صورة المظلومة المضطهدة لكنها لم تقدم لها نماذج متعددة إذ ساد

(1).المصدر السابق: ص13.

(2).المصدر السابق: ص14.

(3).هكذا وردت: والصواب أيام: بجر الميم.

(4).المصدر السابق: ص14.

نموذج المرأة المتمردة في أغلب الحالات.

5- ربطت بعض الروايات بين المدينة والتاريخ ربطا محكما: فوظفته جيدا لتفسير بعض الأحداث الراهنة التي تستند إلى وقائع متكررة في تاريخ بعض المدن الجزائرية، بينما نجد نصوصا أخرى تتعامل مع التاريخ تعاملا عشوائيا ليس فيه قدر كبير من الوعي بطرق الإفادة منه لخدمة الإبداع الروائي.

6- حضور الثورة المتأخر في المدينة، من خلال بعض النصوص الرواية -على قلتها- أعطى المدينة بعدا ثوريا يؤيد الإعتقاد الذي مفاده أن الثورات والمقاومات الشعبية في الجزائر لا تنبع إلا من القرى والأرياف.

7- لقد ظل منطق الريف يسود سلوك الإنسان في المدينة، إذ لم يستطع، بإقامته فيها، أن يحقق لنفسه صفة <<التمدن>>، ذلك أن الرواسب الريفية كانت أقوى من أن تؤثر فيها أسباب التمدن.

الفصل الثالث

فضاءات المدينة في الرواية الجزائرية العربية

احاول في هذا الفصل، بعون الله أن أتعرض للجانب المادي للمدينة في الرواية الجزائرية العربية، و قد بدا لي أن أسمي ذلك "فضاءات المدينة " ، وتستند هذه التسمية إلى اعتبار المدينة " وجودا فيزيائيا " يشغل حيزا من الفضاء المحيط بالإنسان و الواقع في مستوى إدراكه. و حيز المدينة "مصطنع " إذ أن البيئة الحضرية يوجدها الإنسان ولا توجد بذاتها كما هو شأن الطبيعة مثلا ، و من ذلك يكون للمدينة وجوه كثيرة و منشآت متنوعة بحسب رغبات الانسان وحاجياته و ذوقه و مستوى فكره. إن الحاجة هي التي تتحكم في سلوك الانسان و عمله، وعليها تترتب طبيعة الشيئ المطلوب و شكله، فلا عجب إذا اختلفت المدن في تصميمها و مرافقها ووظائفها.

و المدينة، من ناحية كونها " وجودا فيزيائيا ماديا " تعتبر " بنية " أفرزتها حاجة الانسان في ظروف ما، إلا أنها لا تكتسي مفهوم "البنية " هذا إلا بالإرتكاز على عناصرها، و يكون بالتالي مستبعدا إيجاد "بنية "من دون عناصرها، إن على المستوى التجريدي النظري أوعلى مستوى التجسيد الواقعي. وإذا صح إعتبار المدينة بنية فإن عناصرها تمثلها المنشآت و المرافق المختلفة التي تكون المدينة و تعطيها صفتها و وجودها، و يؤدي كل عنصر وظيفة معينة وصولا في نهاية الأمر إلى الوظيفة العامة للمدينة. وسوف نحصل بعد ذالك على بنيات متعددة للمدن تختلف كل منها عن الأخرى بإختلاف عناصرها ووظيفتها. وهذه العناصر تستمد وظيفتها مما يريده الإنسان و مما تستدعيه رغائبه و حاجاته ومن ذلك فإن الإنسان هو المسؤول الأول عن " البنية " التي تتخذها المدينه التي ينشئها.

ولعناصر البنية وظائف متعددة تقف في مقدمتها الوظيفة الإجتماعية التي يفهمها ساكن المدينة: فالحمام يؤدي وظيفة الطهارة و المسجد يؤدي وظيفة العبادة والشارع يؤدي وظيفة العبور و هكذا ... إلا أن هذه الوظيفة الإجتماعية لعناصر بنية المدينة تبقى قاصرة محدودة.لأن المادة لا يقتصر وجودها على بعدها <<المادي >> الجامد بل أن لها إمتدادا في النفس لا يدركه إلا وعي الفنان بحسه المرهف و ذكائه الثاقب، ذلك أنه <<من الأمكنة والأجواء والساعات والفصول والأحوال الخارجية لما يتصل بحبات القلب و مشاعره حتى لتخال الطبيعة جزء من النفس والنفس جزء من الطبيعة.... إن بين الأماكن والأشياء علاقة وثقى>>(1) و للأمكنة عموما آثار مهمة في النفس تؤدي العوامل المختلفة والظروف المحيطة دورا كبيرا في تحديد نوعية كل أثر ودرجة قوته وضعفه في النفس.

و على مستوى الإبداع الأدبي فإن الأمكنة كثيرا ما كانت مثار الشعور والعاطفة ومبعثا للإبداع وهي بذالك تكون أحد الدوافع الهامة للتجربة الفنية ، وإذا كانت تصل إلى هذه الدرجة من الإثارة فإنها تنطوي في حقيقتها على أبعاد وتصورات يدركها الناظر إليها بالتأمل والمتعامل معها بوعي عميق. ولم يستطع الزحف المدني و زخم العمران في المدينة أن يغيب من ذهن الكاتب ما تثيره في نفسه أمكنتها من مشاعر وما تخلفه من آثار وما تحمله من أبعاد يلبسها هو المدلول الذي يقتضيه موقفه منها وعلاقته بها و بعد هذا يمكن أن تثار هذه التساؤلات: هل المكان مجرد شيئ مفصول عن ذات الإنسان؟. وإلى أي مدى يحافظ المكان في المدينة على خصوصيته الشعورية الوجدانية أو يفتقدها: ما هو المدلول الذي يمكن ان يحمله الروائي مكانا في المدينة ؟ وهل ثمة أخيرا تطابق أو إختلاف بين الوظيفة الإجتماعية العامة لأمكنة المدينة وبين وظيفتها في النص الروائي؟.

---

(1)مقومات القصة العربية الحديثة في مصر –د.محمود حامد شوكت: دار الجيل للطباعة– 1974 –المقدمة–.

و ستكون محاولة الإجابة عن هذه التساؤلات، بحكم مجال البحث واختصاصه، محصورة في النصوص الروائية العربية الجزائرية التي شملتها هذه الدراسة.

تتحرك شخصيات هذه النصوص الروائية ضمن مجال المدينة و تختلف إلى امكنتها المتعددة و يمكن أن نحصرها في: الشوارع والأزقة والبيوت والمكاتب والأسواق والبحر والحدائق والجسور والحمامات والمقاهي و الملاهي والمسجد في حالات نادرة جدا وإذا اتبعنا تقسيم المكان لمصطفى التواتي في دراسته لروايات نجيب محفوظ الذهنية فإنه يمكننا تحديد هذه الأمكنة من حيث بناؤها في نوعين. أمكنة مغلقة، وأمكنة مفتوحة.

و سنصنف في النوع الأول: البيوت المكاتب والحمامات و المقاهي و الملاهي والمساجد والسجون والقاعات العامة وغيرها كما نصنف في النوع الثاني: الشوارع والأزقة والحدائق و البحر والعمران والجسور وغيرها. ونحتفظ هنا بالمفهوم المباشر لمصطلحي " الإنفتاح " و" الإنغلاق" من حيث اشراف الأول على الفضاء الخارجي دون غطاء وانحصار الثاني تحت سقف وبين جدران مع ما يمكن أن يثيره المصطلحان من احتمالات للتأويل الفني وسنستعين في ذلك بالنصوص مباشرة دون التفريط في ما يتيح لنا التوضيح والتعمق وتسليط الضوء على جوانب مما نبتغي.

تتجلى الطبيعة لعين الناظر فضاء مفتوحا بره وبحره وجوه وكذلك كانت منذ خلقها الأول ثم كان البيت الذي بناه الإنسان لنفسه أول مجالات الإنغلاق وكانت بعده القرية ثم المدينة ويبدو من هذا أن ثنائية الإنفتاح الإنغلاق بدات بقطبها الأول،وهي الحالة الطبيعية الأولى للكون،ثم ظهر القطب الثاني بظهور الإنسان وتطور حاجاته عبر مسيرة وجوده على وجه الأرض. والمدينة أو التجمع

الحضري بكل أحجامها، هي آخر هذه الحاجات غيرأن طابع الإنفتاح لا ينتفي عن ظاهرة المدينة ما دامت حيزا من الفضاء الكلي للأرض.

تشير بعض النصوص الروائية الجزائرية إلى شكل مدينة الجزائر إذ تظهر المدينة << محدبة >> منحدرة بـ التدرج من أعلىالجبل إلى البحرفتتخذ شكلا مائلا وشكل الأحديداب هذا يتضح للرائي من جهة البحر ومن زاوية بعيدة من الجهة الشرقية ، وقد وردت الاشارة إلى هذا الشكل فى روايات << حمائم الشفق >> و<< ليليات امرأة أرق>> و<< فوضى الاشياء>>، <<المدينة المحدودبة المنحدرة من قمة الجبل الى أخمص قدميه حيث يغسل البحرلفحات نيران الاعداء...>(1).

و تتخذ المدينة شكلها هذا في الرواية من نظرة فوقية أي أن الناظريتمركز في أعلى الجبل <<أما من فوق الجبل فالمدينة تبدو كسديل حمم تتحدر من بركان ضخم خفي مندس تحت الجبل ...>> (2) و في الذاكرة فان شكل التحدب هذا الذي تتخذه المدينة يقترن بقوقعة السلحفات << اسد تحضرت (ذاكرتك) ظهرالسلحفاة فاذا هي صورة المدينة التي كانتتخبو أمام ناظريك >>(3) والنظرة في هذه الحالة تنطلق من البحر، الا أن تنوع الزوايا التي ينظر منها الى المدينة لا تغير شكلها الذي رست عليه في كل الأحوال.

وتشير روايتا رشيد بوجدرة << ليليات إمرأة أرق >> و<< فوضى الأشياء>> الى شكل الإنحدار الذي تتخذه المدينة << أحدس أن المدينة تتحدر من أعلى الهضاب مهرولة نحو البحر مائلة >>(4) و يتجسد هذا الميل أكثر بمدلوله الفني والسياسي في رواية فوضى الأشياء <<أن موقعها الجغرافي زرع فيها ميلا بارزا إلى الهاوية، أي التوجه الفطري إلى الميناء، فاستمرت على حالها كأنها على وشك السقوط في البحر>>(5).

---

(1).حمائم الشفق: ص33.
(2).المصدر السابق: ص78.
(3).المصدر السابق: ص25 – 26.
(4).ليليات إمرأة أرق: ص43.
(5).فوضى الأشياء: ص15.

والواضح من خلال موازنة بين الروايات الثلاث في هذه الظاهرة بالذات، أن شكل الانحدار من أعلى الهضبة باتجاه البحر لا يأخذ في روايتي بوجدرة بعدا دلاليا ذا بال باستثناء ما يمكن استخلاصه كدلالة على السقوط السياسي والاجتماعي في مرحلة تاريخية صعبة مر بها المجتمع الجزائري، ومن الناحية الجمالية، فان شكل الانحدار لا يحيل على مجالات كثيرة التأويل، خلافا لما نجده في رواية جيلالي خلاص "حمائم الشفق". اذ يحمل الكاتب شكل "التحدب " دلالات فنية كبيرة ، فتحدب المدينة أو "تسحلفها" كما يرى ذلك في بعض المواضع من الرواية يوحي بثلاثة مدلولات:

1- أن شكل التحدب عام في المدينة: فتحدبها الخارجي يفرز تحدبا في داخلها، إذ أن كل مبنى فيها يأخذ شكلا محدبا <<حيث أن المنظ ر الخارجي للمدينة يتكرر في منظرها الداخلي من حيث البناء المعماري للبيوت والمحلات و المساجد والكنائس.>>(1)

2- إن شكل التحدب يمتد إلى السكان و فكرهم منذ القديم "قلت أنها تمثل الفكر المقوس المحدب لسكان المدينة الأوائل الشيئ الذي ورثته عنهم ذريتهم المنحنيةالأفكار>>(2)

3- شكل التحدب يدل على استعدادها الدائم للحرب، وهو ما يعني ان المدينة لا تعرف سلاما أبدا اذ أن << السلام الذي يقال أنه يسود المدينة حاليا لن يطول مادامت هي محدودبة اي مستعدة مستنفرة للحرب القادمة>>(3).

وقد تبنى شكل التحدب هذا فنانو المدينة وعكسه بعضهم في لوحاتهم، كما حمله التراث الشعبي للأهالي، و قد عبر عن ذلك مثلهم المتداول " اللي خرج منا ما تعود إلا لينا "، وانتقال فكرة التحدب من جيل إلى جيل، أحال

---

(1).حمائم الشفق: ص34.

(2).المصدر السابق: ص35.

(3).المصدر السابق: ص33.

هذا المثل الشعبي لوحة فنية على يد أحد رسامي المدينة من الجيل الحاضر، فقد جسده في لوحة رائعة حملت نص المثل نفسه عنوانا لها، وهي تظهر المطر و قد تصاعد من البحر وتقوس على المدينة، فيتشكل ذلك قوسا منحنية ، طرفها الأول في البحر وطرفها الثاني في المدينة، ومعنى ذلك <<أن من يخرج من أرض المدينة مهما تطاول عموده عنوة إلى السماء لن يعود إلا لمنطلقه ومنبته>>(1)، وهو ما يعني، من زاوية أخرى، ارتباط الإنسان بالمكان إرتباطا وجدانيا يتخذ طابعا قسريا حتميا.

وقد عبر السكان عن هذا المثل من خلال الشكل العمراني الذي أضفوه على مدينتهم و الذي تغلب عليه الأقواس <<فابتدعوا الأقواس في العمران تعبيرا عن مثلهم الشعبي " اللي خرج منا ما يعود إلا لينا">>(2).

ووقوع المدينة بين نقطة عليا هي الجبل و نقطة سفلى هي البحر يعطي المدينة شكلها المائل ، غير أن بدء الميل و منتهاه في هذه الروايات ليس هو بدؤه و منتهاه في واقع المدينة خلال فترة تكونها الأول : فالحركة في هذه الروايات انحدارية، من أعلى إلى أسفل ، بينما كانت في الواقع تصاعدية، إذ تبين الدراسات والأبحاث أن مدينة الجزائر شهدت حركة عمرانية متصاعدة من القصبة السفلى إلى القصبة العليا ، فقد كانت الظروف الامنية والتوسع العمراني للمدينة و طبيعتها الجغرافية ، كل ذلك كان يحتم على السكان الجدد أن يبنوا مساكنهم إلى أعلى المدينة واستمروا على تلك الحركة المتصاعدة إلى أن بلغوا ذروة الجبل، لكن الظروف الجديدة والتحولات التي شهدها المجتمع الجزائري حديثا والمؤشرات الكثيرة الدالة على التغيير، كل ذلك دفع ببعض الروائيين إلى تغيير حركة المدينة من أعلى إلى أسفل:

---

(1).المصدر السابق: ص34.

(2).نفسه.

إلى العودة بها إلى نقطة الصفر، النقطة التي بدأت منها، والإنحدار: كما سلف، إنحدار الأوضاع الإجتماعية والسياسية والإقتصادية والثقافية والعمرانية المتردية، وكأن المدينة قد بلغت قدرا من الصعود حان وقت تراجعه تحت هذه الاوضاع، فكان أن سقطت هذه المدينة في " فوضى الاشياء" وقد أدرك، قبل ذلك ، جيلالي خلاص أبعاد وضعها المحدودب هذا الذي يعني إستعدادها الدائم للحرب وللخراب و اللااستقرار.

وفضاء المدينة مفتوح مغلق معا: مغلق على الإنسان العادي من جهة الغرب حيث يقف جبل بوزريعة <<وقفة الحامي الطبيعي والسور المنيع الذي وقى مدينة الجزائر من الجهات الغربية>>(1)، ومن جهة الشمال حيث يمتد البحر شاسعا حاميا أيضا، بينما تنفتح مدينة الجزائر على جهتي الجنوب والشرق إنفتاحا كاملا تمثل عتبته السهول الواسعة المغدقة، أما هذا الانغلاق فما هو إلا احتماء بالجبل من الرياح القادمة إليها من الغرب: الرياح الطبيعية والرياح " الحضارية " الوافدة من الغرب بمفهومه الجغرافي والحضاري أيضا، واحتمت بالبحر من كل محاولة لوصل المدينة بالشمال، إن هذين الحاجزين الطبيعيين يمكن أن يفهما أيضا على أنهما حاجزان يصدان عن المدينة كل محاولات "التغريب " و"التصليب" و"التشميل" التي تواصلت ضدها طوال قرون وأخفقت آخرها في هذا القرن، لتبقى االمدينة <<صامدة متربعة على الصخرة المنيعة>>(2).

والانفتاح تجاه الشرق والجنوب ما هو إلا انفتاح على الإمتداد الحضاري والعمق الاصلي للمدينة، فإلى الشرق البعد العربي الإسلامي، وإلى الجنوب البعد الإفريقي، وهكذا يكون بالإمكان التحرك دون عناء نحو هذين الاتجاهين، وحتى الحركة العمرانية التي شهدتها مدينةالجزائر بعد الاحتلال

---

(1).مدينة الجزائر: ص35.

(2).التفكك: ص15.

الفرنسي كان القسط الأكبر منها باتجاه الشرق والجنوب الشرقي وكأنما المدينة العنيدة ظلت تحافظ على انتمائها وتنجذب إليه دون وعي مستغلة في ذلك سذاجة "المحتل" الذي سعى دائما إلى جعلها مدينة "غربية " بما أضفى عليها من طرق العمران وطراز الهندسة التي تطبع المدن الاوروبية.

أما مدينة قسنطينة التي كانت مسرحا لأحداث رواية "الزلزال" فذات موقع مختلف عن موقع مدينة الجزائر، إذ تقع معلقة فوق صخرة يحيط بها وادي الرمال من كل جهة وقد أحسن وصفها فندلين شلوصل في كتابه حيث يقول <<تقع مدينة قسنطينة... فوق صخرة وعرة تحيط بها ثلاثة أرباعها، وفي سفح هذه الصخور يسيل نهر عرضه حوالي 150قدما وعمقه ثلاثة أقدام>>(1)، ولا تقوم المدينة فوق هذه الصخرة على مستوى واحد، و إنما تأخذ شكلا منحدرا إذ تبدو<<مرتفعة في الزاوية الشمالية التي يغادرها منها النهر، ولكنها أقل علوا في الجنوب الشرقي وأكثر إنخفاضا في الجانب الغربي>>(2) وتتصل المدينة بالضفاف الأخرى بواسطة الجسور الممتدة في مختلف جهاتها، ولولاها لكانت مدينة معزولة فوق صخرة محاطة بواد، منقطعة عن العالم، ولا تتصل به إلا عبر الجهة المنخفضة ناحية الغرب. وهذا التدرج المنتظم في الإرتفاع من الغرب باتجاه الجهات الثلاث الأخرى يعطيها – في الرواية – طابع الانحناء، إذ تبدو <<منحنية، وكأنما تود أن تطل على أعماق هذا الأخدود العظيم>>(3) إن ارتفاع مدينة قسنطينة من جهات الشمال والشرق والجنوب يكسبها طابع الإنغلاق والمناعة الذي تتمتع به طوال قرون من وجودها وكان حصنا طبيعيا احتمت به، بينما يتمثل إنفتاحها في إنحدارها غربا، وجهة الغرب هذه أيسر الجهات الموصلة إليها وقد كانت مسلك الغزاة.وفي الرواية نعثر على إرتباط الإنحدار الغربي

---

(1).قسنطينة لأيام أحمد باي: ص73.

(2).نفسه.

(3).الزلزال: ص11.

بالخطر المتواصل <<من هنا، على الضفة الغربية، كان ولا يزال الخطر على قسنطينة. و في الحق، الغرب ظل ولا يزال، مبعث الخطر المهدد للعرب وللمسلمين و لمدنهم وحياتهم و دينهم>>(1)، ويحمل الغرب في هذا الموضع مفهومه السياسي والحضاري المحض، وإذا نظرنا إلى المدينة في إرتباطها بما يشكل إمتدادها الطبيعي فإننا لانعثر على شئ ذي بال سوى ذلك الوادي ، الذي يطوقها من أسفل الصخرة التي تحملها، وهي مدينة يغلب عليها طابع الإنغلاق والعزلة، و ذلك مايحمل، عبد المجيد بوالأرواح في الرواية، على الشعور<<بالوحشة وبالشعور بالإغتراب والانقطاع عن العالم>>(2).

ويظهر من الروايات الأربع أن مدينتي الجزائر وقسنطينة لهما ما يجمعهما وما يفرقهما قياسا إلى موقع كل منهما، وعلاقتهما بثنائية الإنغلاق والانفتاح، وهو ما يتلخص في النقاط التالية:

1) تقع كل من المدينتين على صخرة جبلية تتشكل على طولها من أعلى إلى أسفل أو العكس.

2) يتشكل قطبا الانحدار بالنسبة إلى مدينةالجزائر من الجنوب إلى الشمال، من أعلى الجبل إلى ساحل البحر، بينما تميل مدينة قسنطينة من أعلاها شرقا بإتجاه الغرب.

3) تتكافؤ ثنائية الإنفتاح والإنغلاق في مدينة الجزائر: فهي مغلقة من جهتين هما: الغرب والشمال، ومفتوحة من جهتين أخريين هما: الشرق والجنوب، أما مدينة قسنطينة فيغلب عليها طابع الانغلاق : إذ تنغلق من ثلاث جهات هي: الشمال والشرق والجنوب، ولا تفتح إلا من جهة الغرب.

4) الحركة من أعلى إلى أسفل في مدينة الجزائر تدحرج ينتهي إلى البحر، بينما

---

(1).المصدر السابق: ص46.

(2).المصدر السابق: ص43 – 44.

نجدها في مدينة قسنطينة سقوطا إلى الهاوية السحيقة حيث لا يمثل الوادي أمـرا ذا بال.

وتفضي هذه الملاحظات إلى الإستنتاجات التالية:

1- لقد اثر الانسـان الـذي اسـتوطن المدينتيـن منطقـة منيعـة حباهـا اللـه بتحصيـن طبيعي إبتغاء للإستقرار وطلبا للأمن، فاقترب إنسان الجزائر من البحر لما له فيه من مآرب، بينما اقترب انسان قسنطينة من الوادي ليلبي حاجته من الماء و الري، و العلاقة بين البحر والوادي وطيدة.

2- يسيطر على الروايات هاجس السقوط والانهيار لذلك ينبغـي فهـم الحركـة بيـن قطبي الميـل انحداريـة، مـن أعلـى إلـى أسفل، وعلـى هـذا النحـو تكـون المدينتـان منجذبتيـن إلـى كـل مـن "الشـمال" و"الغـرب" بمفهوميهمـا: السياسـي والحضـاري وموشكتين على السقوط إما في البحر شمالا بالنسبة إلى مـدينة الجزائر، وإمـا فـي الهاوية غربا بالنسبة إلى مدينة قسنطينة، ولا فرق حينئذ بيـن البحـر والهاويـة ما دام كلاهما مسقطا.

3- يفهم من التكافؤ بين الإنغلاق والإنفتاح في مـدينة الجزائـر التنـاقض الصـارخ الذي تحياه المدينة بين طبيعتها وشـخصيتها وامتداداتهـا الحضـاريـة وقوانينهـا ومـا تعيشه في واقعها من المظاهر الغريبة المناقضة، بينما يفهم من غلبة الإنغـلاق فـي مـدينة قسنطينة نزوع كبير إلــى المحافظـة والتقوقـع. وهـذا التـأويل يتنـاقض،على مستوى آخر مع العلاقة بين جهتي الإنغلاق والإنفتاح الطبيعيتين ومدلولهما، وبيـن الحقيقة التي تعيشها كل من المدينتين: فخاصية الإنغلاق الغالب كان من الممكن أن يقابلها إنفتاح مـدينة قسنطينة نحو الشرق أو الجنوب لتماشى ذلك وطبيعة مـا تنغلـق عليه، فيما كان ينبغي أن تنفتـح مـدينة الجزائر علـى إحـدى نقطتـي إنغلاقهـا: نحـو الغرب أو نحو الشمال ليتماشى ذلك وما يطبعها من التناقض.

أولا: الفضاءات المفتوحة :

تنفتح معظم النصوص الروائية المدروسة علىأمكنة مفتوحة داخل المدينة يمكن حصرها في: الشوارع والأزقة والساحات والحدائق والأسواق والجسوروالبحروالمباني... وسأعرض فيما يلي ،لهذه الفضاءات لاستخلاص وظيفة كل منها في النص الروائي وما يمكن أن تحمله من أبعاد ودلالات.

1-الشوارع والأزقة والساحات: يطلق على الشارع والزقاق والساحة عادة بالمكان العام، المكان الذي لا يخضع لملكية أحد ويشترك في <<إمتلاكه>> الناس جميعا وهذه الأنواع من الأمكنة تكاد تقتصرعلى المدينة وحدها. وفضلا عن <<عموميتها>> فانه يتعين أن تكون معروفة باسم ومنها مايكون له تاريخ ووقائع معروفة تبلغ أحيانا درجة << الأسطورية >> وتؤدي هذه الأمكنة – باعتبارها أجزاء هامة من كيان المدينة – وظيفة حيوية في حياة الناس: فهي مسالكهم في قضاء حوائجهم ومعالمهم ومصادر رزق بعضهم. والعمل الفني، والرواية على وجه الخصوص الذي موضوعه المدينة لا يمكنه اهمال دور الشارع أو الزقاق أو الساحة في ماذا اختار الكاتب لروايته أمكنة مفتوحة، وفضل أن تدور بعض أحداث روايتة خارج جدران البيوت و المقاهي و سائر الفضاءات المغلقة. إلا أن هذه الأمكنة قد تكتسي مدلولا خاصا إذا أريد لها ذلك، أو حاولت استنباطه الدراسة النقدية بمناهجها الخاصة لهذا المجال. و الشارع، شأن أي مكان آخر في الرواية، يخضع لتأويلات مختلفة و يؤدي وظائف جمالية ذات شأو بعيد، إذا أحسن اكتشافها، ولم تغب من النصوص الروائية التي يعرض إليها هذا البحث، الشوارع والأزقة والساحات على تفاوت في قوة الظهور وبعد التوظيف، لكن مايلاحظ أن هذه النصوص عرضت لهذه الأمكنة على صورتين:

1- صورة وصفية مباشرة تكاد تكون نقلا <<فوتوغرافيا>> لواقع يومي يسوده العادي الرتيب.

2- صورة جمالية - وهي قليلة - حاولت أن تقدم أبعاد تشكل الشوارع والأزقة ومدلولاتها.

والصورة الأولى ترسم للقارئ شوارع معروفة بأسمائها وساحات طالما ارتادها، والكاتب بذلك ينقل <<الواقعي>> الى مجال <<الفني>> لكنه لا يلبس هذا <<الواقعي>> كثيرا مما يقتضيه العمل الفني، و يغلب وجود ذلك عند الكاتبين: الطاهر وطار وعبد الحميد بن هدوقة، حيث رصد الأول أغلب شوارع مدينة قسنطينة واستعرضها بمظاهرها اليومية وأسمائها المعروفة بها حاليا أو التي كانت تحملها ماضيا، والمقاطع التالية من روايتي <<الزلزال>> و<< بان الصبح >> تبين ذلك بوضوح:

- << ليصعد مع شارع بلمهيدي ثم توقف...>>(1) << و اقتحم شارع 19 ماي... هذا شارع فرنسا سابقا يبتدئ حيث ينتهي شارع "كرامان"... >>(2)، <<نهج 19 ماي 1956 ينطلق نحو اليمين، بينما يصعد شارع فلسطين في حزم الى فوق >> (3) << رحبة الجمال كما كانت .لكنها ضيقة >> (4)، << هذه السويقة لم يتغيرفيها شيئ سوى كثرة البشر>> (5)، << وقفت دليلة في مفترق الطرق بين <<حسين داي >> و<< القبة>>(6)، <<كان أبوها الشيخ علاوة واقفا بساحة الشهداء>>(7)، << وهبطت مع شارع محمد الخامس في اتجاه شارع ديدوش مراد..>>(8)، << وكانتا قد وصلتا إلى شارع شاراس المتصل في أسفله بشارع العقيد عميروش..>> (9). والأمثلة على ذلك كثيرة في هاتين الروايتين.

أما الصورة الثانية، فالشوارع والأزقة والساحات فيها ذات تشكلات هندسية خاصة تؤدي وظائفها المتنوعة ويكاد هذا يقتصر على رواية واحدة هي: << حمائم الشفق>> كما سيأتي بيان ذلك لاحقا.

---

(1).الزلزال: ص10.

(2).المصدر السابق: ص35.

(3).المصدر السابق: ص39.

(4).المصدر السابق: ص102.

(5).المصدر السابق: ص114.

(9،8،7،6)بان الصبح: على التوالي: ص14، 19، 85، 90.

تقوم الشوارع عادة، من حيث حجمها، على ثنائية، متضادة هي: الضيق والإتساع، وهذه الثنائية تتصل، من حيث الدلالة، بمفهومي الإنغلاق و الإنفتاح، والغالب ،في النصوص الروائية الجزائرية التي عرضت للشوارع والأزقة والساحات صفة <<الضيق>> التي تأتي من مصدرين: ضيق تسببت فيه هندسة الشوارع وتخطيط الإنسان لها، وضيق نتج عن إزدحامها بالرواد مع ما تشهد المدينة من إكتظاظ بالناس، وفي كلتا الحالتين فإن << الضيق>> سمة بارزة في شوارع المدن التي تناولتها الروايات الجزائرية ولذلك بعدان: إجتماعي ونفسي، فالشارع، في أية مدينة، والزقاق والساحة كلها أوجه متعددة تعكس أهل المدينة من حيث : ثقافتهم وتفكيرهم، وسلوكهم، ونمط معيشتهم. والنصوص الروائية الجزائرية تقدم لنا صورا بائسة لهذه الأمكنة يميزها: الإكتظاظ والازدحام والأوساخ المتراكمة على الأرصفة التي احتضنت بعض الباعة المتجولين والمتسولين ،شوارع لم تصمم لهذه الحشود الهائلة من روادها، ولم تشق في امكنتها لتؤدي هذه الوظيفة الإقتصادية التي أرادها لها الناس، ولعل من شأن هذه المظاهر الإجتماعية أن تولد رد فعل عنيف في نفس من يدرك الظاهرة بأبعادها الحقيقية، يترجم ضيقا نفسيا بها ورغبة ملحة في الهروب من المدينة وقد صارت كلها، من زاوية نظر داخلية، بوتقة ضيقة لاتتسع لما جبلت عليه النفس من حب الإنعتاق والتوسع والإنطلاق في فضاء رحب، ومن هنا ينشأ جانب من جوانب أزمة الإنسان في المدينة، ولعله يكون مفيدا هنا إيراد بعض الأمثلة عن هذا الضيق الذي تظهره بعض النصوص الروائية ببعده الإجتماعي على وجه أخص، ومن ذلك مثلا: <<مع ضيق الأزقة فان النوافذ لا تكاد ترى>>(1)، << في هذا الممر الضيق الذي ينحدر منها الى شارع الشهداء >>(2) <<وأنه إذن لنهج يلعب فيه سكانه من الأطفال ويلعب فيه

---

(1).الزلزال: ص115.

(2).بان الصبح: ص115.

أطفال العمارات المجاورة>>(1) <<هذه الأنهج الضيقة الملتوية صممت على هذا النحو لوقاية البيوت من شدة الحرارة والرطوبة>>(2).

والضيق هنا ببعده الهندسي والنفسي يقترب من صفة <<الإنغلاق>> التي هي القطب الأوحد النقيض لصفة <<الإنفتاح>> واللتين يوسم بهما الفضاء من حولنا، واذا قبلنا بهذا الإقتراب نكون إزاء عملية توالد لايكتشف الا بالتلمس الدقيق وحقيقته: أن ما يعرف بالفضاء المفتوح يمكنه أن يحتوي على عدة فضاءات مغلقة فالمدينة، خارج الجدران المكونة لكل فضاء مغلق، هي فضاء مفتوح.لكن هذاالفضاء سرعان ماتتقلص مساحته الىان ينغلق من رؤية خارجية مادية للواقع، أوإنطلاقا من إنعكاسات <<الملحوظ >> بالبصر والمعيش بالوجدان على الداخل الذي هو في حالة استبطان، و قد يفضي هذا الى القول ان انغلاق فضاء مفتوح لا يأتي الا من انسداد أفق الرؤية من الداخل، من الناظر: ويتعلق الأمر هنا بالكاتب، فهل يعني هذا أن كتابنا ينظرون الى هذا الواقع المدني بشوارعه الضيقة المزدحمة برؤية مسدودةالأفق؟ و هل هي حقا ضيقة و متسخة تلك الشوارع التي يذكرونها في رواياتهم؟. فعلى المستوى الابداعي يجب أن تتخذ الأشكال الهندسية للأماكن والأشياء أبعادا متميزة غير أبعادها في الواقع، لأنها تنتقل، في العمل الفني، من مستوى الموجود على شاكلة ما، إلى مستوى التشكيل وفق شاكلات متعددة ومتنوعة، وهنا يتخلى المكان عن خاصيته <<الشيئية>> الجامدة الساكنة ويكتسب بعض صفات المتحركات الفاعلات الملونات من الأشياء والناس والأفكار.فحيوية النفس من حيوية المكان أيضا و جمودها من جموده، لكن لا شئ مستحيل في الإبداع الأدبي مادام كل شيئ لا يخضع لحكم التناقص والغرابة.

وفي رواية << حمائم الشفق>> يرد الشارع تشكيلا هندسيا وبعدا مختلف

---

(1).نفسه.

(2).المصدر السابق: ص295.

الأوجه ، محملا بدلالات هائلة جديرة بأن يفرد لها مجال رحب من الدراسة ، لكنه يتعين علينا، ههنا، أن نعرض لها عرضا مقتضبا . كل جامد في هذه الرواية حي ،آخذ أشكالا متنوعة ، والشوارع مشكلة تشكلا حيوانيا في الغالب، اذ نجد منها المتثعبنة و المتحزلنة والمتمصرنة والمتسلحفة، وقد وردت الاشارات إلى ذلك في هذه المقاطع من الرواية <<أزقتها المتثعبنة وشوارعها المتحزلنة>>(1)، << تلك الشوارع المتسلحفة المتمصرنة>>(2)، <<الشوارع والأزقة الملتوية المتحزلنة>> (3) ويظهر من هذا أن الشارع أو الزقاق،وهو الشيئ الجامد في سكونه، يتخذ صورة الحيوان المتحرك و يتشكل بشكله فيغدو حيا بهذه الصورة وقد كان في غيرها ميتا، وقد يفضي هذا أيضا إلى إستنتاج أن الأشكال الهندسية لا تتخذ دائما في حالة السكون و في نفس الفضاء الفيزيائي أو التجريدي، و لكنها، يمكن أن تستمد أيضا من مخلوقات أخرى لا يرى ما بينها وبين الشارع من تقارب و تشابه إلا ذو إدراك متميز للعالم.

إن أشكال التثعبن والتسحلف والتحزلن والتمصرن تعبر كلها عن مدلولي الإلتواء والتحدب الهندسيين، وقد سبقت الإشارة إلى أن مفهوم <<التحدب>> في رواية حمائم الشفق، أسقط على المدينة شكلا عاما وعلى كل شيء فيها، و من ذلك الشوارع.و تسحلف الشوارع هنا أو تحدبها، على إعتبار أن شكل السلحفاة محدب، ينشأ على مستوى الواقع من أنها قائمة من أسفل الجبل الذي تقوم عليه المدينة متصاعدة إلى جنبه بالغة الذروة ثم نازلة إلى نقطة أخرى أسفل الجبل متخذة في ذلك شكل القوس أيضا، و القوس من أشكال التحدب التي ذكرتها الرواية بينما تعبر أشكال التثعين والتحزلن والتمصرن عن التواء أزقة المدينة وشوارعها تعبيرا واضحا، و ذلك في حالتي الحركة والسكون فالزقاق أو الشارع ملتو كثعبان أو حلزون أو مصران.

---

(1).حمائم الشفق: ص17.

(2).المصدر السابق: ص53.

(3).نفسه.

ويصحب هذة الأشكال صفة "الضيق" أيضا إذ نجد هذه الشوارع، على ماشكلت عليه ضيقة: <<أزقتها الضيقة المتحزلنة>>(1) والعلاقة بين الصفة والأشكال واضحة فالثعبان والمصران مثلا ممتدان امتدادا طويلا نسبيا لكنه لا يذهب الى الجهتين : الجانبية و الأمامية ذهابا متساويا اذ يفتقد مقدارا في العرض كلما امتد الى الأمام طويلا، فتشكل الشوارع على هذا النحو اضافة أخرى الى سمة الإنغلاق والانسداد، وكذلك شكل التحدب الذي هو في الحقيقة انغلاق فلوأنه تترك للخط الذي يرسمه حرية السير لعاد الى النقطة التي انطلق منها ثم سار في حلقة واحدة.

ولكن، ما هي وظيفة هذه الشوارع و الأزقة و المساحات؟ تحاول بعض النصوص الروائية الاجابة عن هذا السؤال: إذ، و فضلا عن الوظيفة العمومية الأصلية الكامنة في أنها أماكن للمشي والعبور والربط بين مختلف الجهات والنقاط، فإننا نجد الشارع محملا بدلالات أخرى، و مما يعنيه هذا اللفظ حين يطلق منفردا: الخلاء المضاد للبيت ويرتبط به مفهوم التشرد، الانحلال، وعدم الخضوع لأي ضابط أخلاقي أو قانوني، ومن هذا المفهوم تأتي مثلا عبارة "أبناء الشارع" أو "بنات الزقاق"، و يوحي الشارع أيضا بمفهوم الغضب والإحتجاج والتظاهر للمطالبة بالحقوق وهذا الإستعمال شائع عند الساسة، ويحيل ثالثا على البساطة حين يقال "رجل الشارع"، و هذا التنوع و التعدد في مدلولات لفظ "الشارع" يقيم الحجة على الأهمية الكبرى التي يكتسبها و الوظائف التي يؤديها في حياة الإنسان والمجتمع، و لعل رواية "الزلزال" قد أدركت هذه الأهمية أكثر من غيرها إذ وردت فيها إشارة إلى ذلك في قول المؤلف <<أهمية الطرقات في قسنطينة أعظم من أهمية المباني والمساكن، فهؤلاء الناس المرضى بالسير،

---

(1).المصدر السابق: ص157.

وكأنهم في سجن أو في إقامة جبرية ، ماذا يكون مصيرهم لو لم تكن المدينة مخربة بهذه الطرقات وإن كانت في معظمها ضيقة ملتوية>>(1). ووظيفة الشوارع هنا، وإن كانت على القدر من الأهمية الذي تراه الرواية فإنها لا تعدو السير جيئة و ذهابا، ولا تتخذ مدلولا ذا شأن كبير كما سنجد ذلك في روايات أخرى .

ففي رواية "وقائع من أوجاع رجل غامر صوب البحر" تؤدي الشوارع وظيفة سياسية: ففيها تقوم المظاهرات الصاخبة، وفيها تسيل دماء المتظاهرين، وإليها يلجأ الناس، ليس فرارا من ضيق بيوتهم، و إنما ليعبروا عن رفضهم لأساليب إدارة الحكم، وتستوي في هذا شوارع المدينة الأم أو شوارع باريس التي "أغرقها الدم و الصراخ.. المعارك كانت تدور هنا.. في هذه النقطة بالذات.. الموت.. النمل.. قاعات المحاكم العسكرية.. المتاريس.. الخنادق.. الجسور.. المنازل بدورها تهوي تحت دوي البارود"(2).

وقريب من هذه الأجواء ما رسمته رواية فوضى الأشياء <<كانت المدينة تظهر وكأنها أنيقة أو -بالأحرى- هادئة أو شبه ساكنة على الرغم من الدبابات الرابضة في النقاط الحساسة منها والركام والحطام والواجهات المحروقة والبنايات المحطمة والزجاج المبعثر... كان كل ذلك يضفي على بعض الشوارع الكبرى صبغة خاصة فحولتها إلى بطاقات بريدية فلكلورية..>> (3).

و في رواية "حمام الشفق" تؤدي الشوارع الوظيفة نفسها، فهي مكان تظاهر نسوة المدينة وانتفاضتهن و ثورتهن على "الجلاوزة" وأصحاب القصور، وتؤدي، من جهة أخرى، وظيفة "وطنية" تتجلى في الدفاع عن المدينة والتصدي للأعداء <<وسرعان ماانتشرنا عبر شوارع المدينة و أزقتها مطاردين العدو أينما اختفى>>(4).

---

(1).الزلزال: ص69 – 70.

(2).وقائع من أوجاع رجل غامر صوب البحر: ص278.

(3).فوضى الأشياء: ص12 – 13.

(4).حمائم الشفق: ص15.

2-الجسور: يمكن اعتبار الجسور في المدينة من ملحقات الشوارع ، نظرا للدور التكميلي والحيوي الذي تقوم به في بعض المدن .

و من الناحية الدلالية، فأن لفظة "جسر" توحي بالتواصل والإيصال بين نقطتين، وتؤدي بهذا وظيفة "الواسطة" بين ما يصعب أن يتصلا بذاتهما، والجسرمعبرحام ومؤمن، يلخص قدرة الإنسان على إيجاد الحلول لمعضلاته ، ذلك أنه لما صعب على الإنسان التنقل من نقطة إلى نقطة أخرى يرغب فيها بسبب عائق طبيعي ما، اهتدى إلى هذه "الواسطة" التي تسهل عليه عملية التنقل بحرية، هو وممتلكاته من سلع و حيوانات.

وفي الروايات الجزائرية العربية لا نجد أفضل مثال على الإهتمام بالجسور من رواية "الزلزال" و لعل ذلك لا يبرره سوى: معمارمدينة قسنطينة التي تكثر بها الجسور حتىسميت بذلك "مدينة الجسور المعلقة". والجسور بقسنطينة ضرورة حتمية، إذ أن المدينة لا يمكنها أن تتصل بغيرها من دون جسورها، إنها شرايين حياتها، و لذلك اكتست فيها إهمية كبرى لم تكتسها في سواها من مدن الجزائر وحتى مدن العالم -في حدود العلم- تشير الرواية بالرقم إلى عدد جسور قسنطسنة، كما هي موجودة بالفعل <<هذا الجسر أفضل من جسور قسنطسنة السبعة>>(1). وخلافا لكثير من الأشياء في الرواية، فإن الجسور فيها قد حظيت بمعاملة خاصة من الكاتب، فقد أغدق عليها من الأوصاف ألوانا وقدمها للقارىء في صور دقيقة تبدو وقد دبت فيها الحياة و صدرت منها حركة ما، أو اتصفت بفعل لازمها منذ القدم، ونادرا ما وردت الجسور في الرواية مفصولة عن وصف من الأوصاف، فهي تارة معلقة كما في قوله "إله قسنطسنة، الجسر المعلق" (2)، وهي تارة نائمة كما في قوله <<في الأقصى يبدو جزء من سيدي راشد، النائم

(1). الزلزال: ص10.

(2). نفسه.

فوق أقواس مضاعفة من الصخور و الإسمنت المسلح>>(1)، وهي تارة ثالثة قائمة على أقدامها، <<بين قدمي الجسر، تحت أقواسه الضخمة...>>(2)، وهي بعد ذلك صامدة باقية وصادقة "هذا أصدق الجسور على الإطلاق "(3).

وعلى مستوى التشكيل، فقد حظي جسر "شيدي راشد" بأكبر قدر من الوصف الدقيق، والمفصل لأجزائه وما يحيط به، وهو أمر لم يحظ به جسر آخر غيره، فكل الجسور إكتفى الكاتب بذكرها، و في أحسن الأحوال، خصها بوصف قربها من مخلوقات تتمتع بالحياة، وسأورد ، فيما يلي هذا الوصف الذي رسمه الطاهر وطار لجسر سيدي راشد:

<< جسر سيدي راشد يشكل هلالا، ينطلق من صدر المدينة، بأقواس ضيقة مضاعفة، وعندما يبلغ ضريح سيدي راشد يفحح على كامل الوادي في شموخ وإعتداد، تحت قدميه، تبدو المباني ألوانا زاهية لا غير...>> (4)، و هذا الإهتمام الخاص بجسرسيدي راشد الناجم عن علاقة خاصة لعبد المجيد بو الأرواح به، نظرا ربما إلى أنه يشرفعلى مكان عزيز على نفسه، الاو هو ضريح سيدي راشد، يجعله من أكثر الجسور متانة و صلابة لأن أقواسه مبنية من مزيج قوي من الصخور و الإسمنت المسلح، وهو ما يؤهله لأن يصمد أمام الزلزال المدمر الذي يرتقبه بو الأرواح، فالزلزال،<< ومهما كانت قوته وعظمته فإن هذا الجسر لن ينكسر، سيظل جسرا ولو بقي بدون واد يمر تحته، و لو ذهبت قواعده >>(5)، و لكن هل سر صمود هذا الجسر وبقائه قائما في وجه الزلزال العنيف، كامن في متانته فحسب؟ أن لذلك مدلولا اخر يعرفنا به عبد المجيد بو الأرواح، فالجسر، إضافة إلى صلابته <<شحنة من إصرار الإنسان على التحدي والمكابرة، بل إنه رمز لطموح الإنسان إلى المساهمة في الخلق>> (6). و من خلال محاولة تحميل هذا الصمود و البقاء دلالة ما يتضح، أيضا أنه ببقاء الجسر يستمر وجود الإنسان، فالإنسان الصلب

---

(1).المصدر السابق: ص127.

(2).المصدر السابق: ص129.

(3).المصدر السابق: ص162.

(4).نفسه.

(5).المصدر السابق: ص127.

(6).نفسه.

المشدود إلى الأرض<< بالحبال الفولانية > لا يمكن أن يسقطه زلزال مهما كانت قوته، و هو إيمان كبير بقدرات الإنسان الذاتيه التي يحسن إستغلالها بما يضمن له البقاء و السيطرة على الأرض. و مقابل ذلك، مقابل صمود هذا الجسر و إصرار هذا الإنسان الذي قد لا يحيا اليوم بقسنطينة، نجد الضد الأخر: السقوط و الفناء اللذين يرشح لهما : جسر مجاز الغنم و سكان قسنطينة الغافون، الذارعون الشوارع و الأزقة بلا غايات سامية، و هذا الجسر يقوم على نحو منفرد ينذر بالخطر و لا يعطي النفس شيئا كبيرا من الطمأنينة، ذلك أن << واضعيه فكروا في أنه وقتي و لا شك، فلم يجعلوا له أية قاعدة إلى جانب متكئيه علىحافة الوادي>> (1). و يثير منظر هذا الجسر في نفس من يراه شعورا بأنه آيل إلى الإنهيار في أية لحظة و هو منظر <<يومئ إلى إحساس القسنطينيين الدائم بأنه محكوم عليهم بفناء عاجل و بأن عليهم أن ينهبوا الحياة نهبا طيلة الدقائق المتبقية لهم >> (2).

3- العمارة

لعل من أكبر المعالم التي تميز ظاهرة المدينة جانبها العمراني حتى ليكاد مفهوم المدينة يتبلور منه، قبل أن يتبلور من وظيفة المدينة و خصائصها الحضارية المدنية، ومرد ذلك إلى أ ن هذه الوظيفة و هذه الخصائص إنما أفرزتها المعطيات العمرانية و تجمع عدد كبير من الناس في بيوت وأحياء مشكلة المدينة.

وإذا أمكن دارسي علم الإجتماع الحضري تصنيف المدن بحسب وظائفها

(1).المصدر السابق: ص162.

(2).نفسه.

ومواقعها، فإنه من الجائز أن ينشأ تصنيف آخر من حيث عمارتها وطرق بنائها. وفي الغالب فإن الشكل المعماري لأية مدينة إنما يخضع لعوامل ثقافية أيضا إذا كان قد أهلته ظروف سياسية وعسكرية واقتصادية، فالعمران مظهر من المظاهر التي تبرز ثقافة أهل المدينة وذوقهم العام الذي يكون في الغالب مشتركا، على اعتبار أنهم مجموعة، خضعت لمؤثرات متشابهة أملت عليها نمطا من السلوك، وبذلك يتميز عمران المدينة عن عمران غيرها كما يحتمل أن يتميز أهل المدينة عن غيرهم.

لقد حافظت مدن كثيرة في العالم على نمط معماري معين ورثته منذ قرون لتشابه ظروفها المختلفة قديما و حديثا فاستقرت حياتها، و لم يتبدل مناخها، و لم تدخلها أجناس أخرى مختلفة عنها سلوكا وحضارة ولم تتأثر بثقافات غيرها تأثرا بالغا و من ذلك مثلا بعض المدن التي نشاهدها في اليمن، و بعض مدن الجنوب الجزائري ، و يلعب بقاء مثل هذه المدن بعيدة عن التيارات الثقافية الواردة عن الغرب و "التقليعات" الجديدة المتجددة في كل عقد ، و محافظتها على رصيدها الثقافي ، دورا كبيرا في احتفاظها بنمطها المعماري، و إن كانت قد تفتحت بعض التفتح على الأساليب المعمارية الأوروبية الحديثة فإن ذلك لم يكن سوى إستعانة - لتحديث عمرانها - بما لا يقضي على نمطها الأصلي.

و ما يهمنا بعد ذلك هو الإجابة عن هذا السؤال : بأية نظرة تعامل الفن الروائي في الجزائر مع الفن المعماري في المدن أو إلى أي مدى استوعب الكاتب الجزائري التشكيل المعماري في المدينة و وظفه في نصه الروائي توظيفا فنيا ؟.

لا نستطيع أن نجزم أولا بإمكانية إيجاد علاقة مباشرة بين الفن الروائي والفن المعماري في نصوص روائية جزائرية، ذلك أن قلة قليلة من روائيينا من أنتبه إلى هذه المسألة، و لكن يمكن أن نتلمس بعض البذور في روايتي: <<حمائم الشفق>> و<<فوضى الأشياء>> اللتين انصب اهتمام صاحبيهما فيهما على مدينة الجزائر.

و ظاهرة العمران في مدينة الجزائر قديمة غ ير أنه <<لم نتمكن من ضبط مساحة مدينة الجزائر وتصور وضعيتها وشكلها المعماري في أيام الأتراك>>(1)، و قد اكتسى العمران إبان الوجود التركي في الجزائر إلى بداية العهد الإستعماري الفرنسي طابعا شرقيًا متميزا لم يبق منه اليوم الشيئ الكثير اللهم إلا ما تبقى من آثار في القصبة و في بعض القصور و المباني المتناثرة هنا وهناك عبر بعض أحياء المدينة الحالية ، وقد تعددت مظاهر العمارة و تنوعت في العهد التركي إذ بنيت لها الأسوار الشامخة وحفرت أسفلها الخنادق العميقة تحصينا لها وشيدت على سورها الشهير الأبراج و القلاع دفاعا عنها، كما يذكر أنه " كان للمدينة خمسة أبواب هي: باب عزون، باب الوادي، باب الحوت أوالدوانة وباب الجزيرة وكان يدعى باب الجهاد ثم الباب الجديد الواقع جنوب غرب المدينة وهو في أعلاها>>(2). وشيدت في المدينة القصور الفخمة التي سكنها الحكام وكبار ضباط الجيش التركي والأثرياء من الأتراك والوطنيين، كما أقيمت ثكنات للجند وفنادق للزوار ومستشفيات ومقاه وملاه لجنود الإنكشارية ومراكز للأسرى الأوروبيين الذين كانوا من موارد القرصنة التي كانت تدر كثيرا من الأموال على خزينة إيالة الجزائر. إلا أنه، ومع استيلاء الفرنسيين على مدينة الجزائر سنة 1830 <<لا نستطيع أن نغفل إتساع رقعة المدينة الجديدة، فقد زادت مساحتها من زمن طويل على ما كانت عليه أيام الترك، وامتدت مبانيها ومباني أرباضها كأحياء الداي حسين ومصطفى و باب الوادي و سانت بوجين>>(3). ولقد أدى هذا التوسع إلى تدمير كثير من المنشآت التي كانت قائمة قبل الإحتلال ومنها الدور الخاصة والمساجد والطرقات والأماكن العامة المخصصة للمصلحة المشتركة للسكان، وسأورد فيما يلي شهادة عن هذا التدمير الوحشي البربري، كما

(1).تاريخ المدن الثلاث: ص22.

(2).تاريخ مدينة الجزائر: ص23.

(3).دائرة المعارف الإسلامية: ص421.

ساقتها دائرة المعارف الإسلامية : <<ومن أجل ذلك هدمت الجنينة حجرا حجرا، وعفت آثارها كلها في عام 1856. ولم يبق من القصور التي كانت في داخل أسوارها سوى قصر بنت السلطان، وهو الآن قصر الأسقف وترك جامع "كتشاوة" يتداعى بين عامي 1854-1860 و قامت مكانه الكنيسة الكاثوليكية الكبرى [....] وحول مسجد حاجي حسين إلى كنيسة و اتخذت مساجد أخرى ثكنات للجند أو مخازن عسكرية وما وافت سنة 1863 حتى لم يبق من دور العبادة التي بلغت 176 دارا في عام 1830 سوى 8 >>(1).

ولقد كان من الطبيعي بعد هذا التدمير الذي ألحقته الحملة " البربرية " الفرنسية بهذه المنشآت أن يتغير الوجه المعماري لمدينة الجزائر تغيرا يوافق أسلوب الفرنسيين و ثقافتهم وحضارتهم، فكان أن أنشؤوا مرافقهم على نحو ما ألفوه في مدنهم الفرنسية، و هكذا بدأ الطابع المعماري لمدينة الجزائر يأخذ ملامح أوروبية في أغلب الأحيان تجسدت في هندسة المباني و الشوارع و الأحياء كما نشاهد ذلك ماثلا أمامنا اليوم في مدينة الجزائر و أغلب مدن البلاد الأخرى التي مسها جنون المدنية الأوربية.

تكشف رواية "فوضى الأشياء"عن هذا التغيير الذي حاول الأوربيون إدخاله على الفن المعماري لمدينة الجزائر: << لكم حاول الأوربيون والمستعمرون تشويهها و تدليسها و تقنيعها بأقنعة غير ملائمة و قد حاولوا تبديل سحنتها بتشييد تلك العمارات المثقلة بزخرفتها الشبه عربية انسجاما مع المعيار العربي الإسلامي الجديد>>(2). إلا أن محاولات التبديل هذه، من وجهة نظر الرواية، لم تفلح، ذلك أنهم <<زادوها زينة و رونقا وأضافوا على سعتها سعة كانت تنقصها ربما، فتوسعت المدينة داخل حدودها الطبيعية >>(3) ولا يفصل الكاتب بعد ذلك شيئا

---

(1) نفسه.

(2) فوضى الأشياء: ص14.

(3) نفسه.

في هذه الزينة و هذا الرونق بما يجعل العلاقة وطيدة بين الفن المعماري والفن الروائي، و يكتفي بذكر بعض المنشآت الكبرى كالبريد المركزي و مبنى الولاية وفندق سان جورج و ساحة قصر العدالة في زمن الماضي، لكنه يتوارى خلف ذلك الوصف المقتضب حكم مسبق عشوائي على هذه المدينة في حاضرها و قد صارت <<عبارة عن سقط معماري، عن نقاية إجتماعية، عن حثالة بشرية...>>(1) نتيجة ما آلت إليه من إضطرابات و فوضى . و نقمة بوجدرة على المدينة ظاهرة في هذه الرواية، و في غيرها، غير أن هذه النقمة لا تقتصر على الناس فيها و على أجوائها، وإنما امتدت أيضا إلى جانبها المادي: فلا شيء فيها كفيل بأن يثير في الكاتب إحساسا بالإعجاب وتذوقا للجمال، ولعل فوضى المدينة أنساه تلمس هذا الجمال في بعض مظاهرها المعمارية وأفرز فيه رؤية "سلبية" ينظر من خلالها إلى كل شيء من حوله نظرة "سوداء يغيب معها الإحساس بالجمال الإيجابي والمفيد، وههنا إنغلاق من نوع آخر، إنه إنغلاق الكاتب، هذه المرة، على ذات ترفض تقبل الأشياء كما هي ، و تزيد على ذلك بأن تحاول إثقالها بما تسقط عليها من الأحكام الشخصية التي هي ، في كثير من الأحيان، أبعد عما يفرزه الإدراك العميق والتدبر والتأمل والفكر السليم، إن غياب الإحساس بجمالية المدينة قد أثر على المستوى الجمالي للنص الروائي و ألقى به في دائرة مغلقة ليس لها أي منفذ.

و خلافا لهذا، تأتي رواية << حمائم الشفق >> تجسيدا لإمكانية مزاوجة ذكية بين الفن المعماري و الفن الروائي، وهذا ما يمنح الرواية خطوة قوية وصائبة نحو إلزامية <<التجديد>> المتوخى من كل عملية إبداعية.

لم يكتف الجيلالي خلاص في هذه الرواية بالإندهاش من عالم المدينة، و لم يقف

---

(1).المصدر السابق: ص39.

عند حدود الإنبهار الذي ينتاب المرء و هو يحدق إلى مبانيها ومعماريتها المنتظمة وزينتها وبهرجها، بل إن المدينة عنده كائن قبل كل شيئ يجسد وعي المثقف الذي يحضر معه من خلال:

- إستحضاره لتاريخ المدينة البعيد والقريب الحافل بالخيبات والهزائم والإنتصارات معا.

- طرق أبواب << السياسي >> وإستشراف أحداث محتملة بناء على خلل ما في طبيعة الراهن.

- إغراق ذالك كله بالفن : فتشكيل المدينة عبر تاريخها لابد وأنه قد خضع لذوق جمالي ما ينم عن وعي بالفعل و الأغراض منه.

وفي بعض المواضع من الرواية يتمتع القارئ بوصف فني رائع و دقيق لبعض الآثار المعمارية التي حافظت على نمطها الأصلي القديم، كما هو بتشكلاته وألوانه وزخارفه، ومن ذلك هذا المقطع << والحال أن رسومكما الملمعة بالرخام الأبيض والمزدانة بالفسيفساء لم تكن سوى تجسيد الديار المكبة الشكل، لكن بدل أن تكون كالديار الراهنة تتألف من طابقين وسطح أفقي بحيث تعتبر أرضيتها طابقا سفليا تكثر بداخله السواري الأسطوانية المنحوتة من الرخام أو الحجر الجيري دون أن تفتح لساكنيها سوى باب متين مقوس الجزء العلوي ومستطيل الجزء السفلي و مثبت في رف من رخام يرصع الجدار الذي يعلوه إفريز أو طنف من القرميد يكون في غالب الأحيان أخضر داكنا(طحلبي ؟) بينما تتوسط الباب فتحة مسيجة بالحديد تساعد على الرؤية من الخارج ...>>(1).

و قد أمعن الكاتب في الوصف إلى درجة تقريب الموصوف إلى ذهن القارئ بواسطة البراعة الفنية والقدرة الهائلة على التصوير، وأضفى ذلك على النص بعدا جماليا لا يقل روعة عن جماليات الفن المعماري والتشكيلي الدقيق.

---

(1) حمائم الشفق: ص111 - 112.

و في الرواية تتخذ بعض الأشكال المعمارية صورا ذهنية ومن ذلك هذه المقارنة الغريبة بين حي القصبة كما يبدو من البحر و بين نبات القصبة: <<حيث لم يفتد ك أن يتذكر أن تجمعات بيوت القصبة ذاته تبدو للرائي من عرض البحر و كأنها قصبة جافة منبتها يصعد من صخور شاطئ البحر متسلقا سفح الجبل حتى ليكاد يبلغ قمته الغارقة في الضباب دوما>>(1) ولئن بدت المقارنة بين حي القصبة ونبات القصبة بعيدة في الواقع، فإنه لا يخفى ههنا استغلال المدلول وتحميله دلالات فنية يجتمع فيها كثير من أسباب التخييل التي يقتضيها الفن الروائي كأي فن آخر، وهو أمر يدعم البعد الجمالي للنص ويفتح مجالات أوسع و فضاءات أرحب.

ولم تغب من الرواية الإشارة إلى ظاهرة الأقواس التي تتميز بها العمارة العربية الإسلامية دون كثير من غيرها، و إذا كان اختفاؤها من واجهات العمران اليوم ملحوظا، فإن الرواية تؤكد أنها من أحد أصول العمارة في مدينة الجزائر ، و زيادة على هذا، فقد ارتبطت بالتراث الشعبي وصار شكلها تعبيرا عن بعض سلوكات أهل المدينة، من وجهة نظر الرواية، وقد وردت الإشارة إلى ذلك في هذا المقطع: << أصل المطر، أي المنطلق الذي يكون - حسبما تخيلت أنت بلوحدتك - قد فتق قريحة البناة الأوائل للمدينة، فابتدعوا الأقواس في العمران تعبيرا عن مثلهم الشعبي الشهير<< اللي خرج منا ما يعود إلا لينا >>(2). وقد حمل الكاتب القوس دلالات أخرى فجعله - كما سلفت الإشارة إلى ذلك - تعبيرا عن تمسك الأهالي بالعيش في مدينتهم تارة ، و استعدادا للحرب تارة أخرى ، و قد أشارت بعض المصادر إلى شكل القوس هذا الذي تتخذه مدينة الجزائر حين تشاهد من البحر: << و لقد وصف هايدو المدينة وصفا مسهبا و شبه محيطها بقوس ذي وتر حيث كانت المدينة تمتد على المنحدرات الصخرية من القصبة إلى شاطيء البحر. فالقوس هو الجدران و الوتر هو البحر >>(3).

---

(1).المصدر السابق: ص36.

(2).المصدر السابق: ص34.

(3).تاريخ المدن الثلاث: ص22.

ولكن الرواية، مع ذلك، لا تقدم وصفا لمعمار المدينة الحالي الذي يميزه غلبة الطابع الأوربي الغربي، ويبدو أن إغراق الكاتب في الجانب التاريخي والسياسي للمدينة، صرفه عن حاضرها ودفعه إلى التدقيق في وصف كل ما يمثل بعدا حضاريا، وذاتيا خالصا للمدينة، وكأنما كان يريد من خلال ذلك أن يظهر إلى السطح ما طمس من معالمها القديمة وعفت عليه الأيام المتلاحقة ،إن التركيز على الطابع المعماري الأصيل للمدينة يعد كذلك بحثا عن ذات منسية وجذورنتآكل باستمرار...

إلا أن ما هو جدير بالتذكير أن جيلا قد أفلح في أن يزاوج بين فن العمارة وفن الرواية مزاوجة فريدة من نوعها على مستوى الإبداع الروائي الجزائري، ولم يتخذ الوصف الدقيق غاية إلا على النحو الذي يحقق له قدرا مهما من الجمال و المتعة.

4- البحر :

ظل البحر دوما يشكل مساحة مهمة من الأرض و يؤدي أدواره المختلفة في حياة الإنسان فكان مصدرا للنعمة تارة ومجلبة للمصائب تارة أخرى، و قد مرت علاقة الإنسان بالبحر على أطوار كثيرة بدأت من موقف الدهشة والخوف من هذا العالم الغريب و إنتهت في العصر الحديث بسيطرة الإنسان عليه كما سيطر على غيره من المظاهر الطبيعية المختلفة، و قد كان البحر، منذ القديم أحد أهم مصادر العيش التي يعتمد عليها الإنسان ومن أكثر مصادر الثروة ايضا، و يغلب على علاقة الإنسان به الطابع الإعتمادي النفعي، ولكنه إذا كان يشكل من الناحية الجغرافية أغلب مساحة الأرض، فإنه لا يشكل إهتمام جميع سكانها، إذ ظل على أهميته عالما غريبا مليئا بالأسرار و العجائب لدى عامة الناس ولم تخضعه إلا فئة قليلة منهم دفعتها الحاجة تارة و الفضول تارة أخرى إلى إستكشاف كنهه

والتعرف على بعض خباياه، و في الأدب ظل البحر موضوعا مهما سيما في الأعمال الروائية، و قد خلد علاقة الإنسان به و صراعه معه الكاتب الأمريكي الشهير ارنست هيمنجواي في روايته : << العجوز البحر >> و في الرواية العربية ترك الكاتب السوري حنامينا بصمات واضحة في رواياته التي تحكي عن عالم البحر، أما في الرواية الجزائرية، فإنه لم يشكل إهتماما رئيسيا لدى الكاتب على الرغم من وجوده في معظمها، إذ لا نذكر نصا روائيا عربيا إلا ونكر فيه البحر في – الغالب – لكن هذا الذكر لا يدفع إلى القول بأن تستقل الرواية كاملة بموضوع البحر. وسوف أكتفي في حديثي عن هذا الفضاء المفتوح من عالم المدينة بما ورد في بعض النصوص الروائية الجزائرية من إشارات إلى البحر ومحاولة استنباط ما يمكن أن يحمل هذا الفضاء من دلالات ورموز.

ولعل أهم رواية لامست البحر هي رواية: " وقائع من أوجاع رجل غامر صوب البحر"، و ما عداها فإننا لا نجد عنوانا اشتمل على لفظة "البحر" وإن لم تخل رواية من ذكره في متنها و الإشارة إليه فضاءا و معلما بارزا من معالم المدينة. غير أنه لجدير بالتذكير ملاحظة مهمة تتمثل في مفارقة واضحة بين نص الأعرج واسيني الذي ذكرته آنفا وسائر النصوص التي أشارت إلى البحر. ومفاد هذه المفارقة أن رواية الأعرج واسيني، وإن ذكرت لفظة البحر في عنوانها، فهي لا تتناول هذا الموضوع، لا تصفه بأي شكل من الأوصاف، ولا يتخذ فيها مساحة كبيرة أو صغيرة، وعلى العكس من ذلك يلاحظ أن بعض النصوص الروائية اتخذ البحر فيها جزء من فضائها، واتصلت به بعض الشخصيات فيها على الرغم من أن ذكره لم يرد في عناوينها... وإذا كان لعنوان الرواية علاقة ما بالمحمول فيها فإنه يعن لنا سؤال جوهري: ما هي طبيعة هذه العلاقة وما هي حدودها ؟.

على المستوى الواقعي الطبيعي تنشأ علاقة امتداد متبادلة بين البحر و اليابسة مع فرق جوهري في طبيعة فضاء كل منهما وتركيبه، واهتمام الروائي بالبحر

ناشيء من اهتمام الإنسان به، هـذا الإنسـان الـذي أدرك أهميـة أن يقيم علاقـة مـا بالبحر والتي تلخص في جانبين: جانب مادي: يكمن في إعتماد الإنسان على البحر في طعامه و زينته، وجانب نفسي: يكمن في الحاجة إلى المعرفة والتنقل.. ويتزايد اهتمام الروائي بالبحر بتزايد اهتمام الإنسان به والعكس صحيح .

و لم يكن للبحر دور كبير في حياة الإنسان الجزائري إلا في العهد التركي إذ أنه <<وبعد هزيمة شارل الخامس النكراء لم يعد لحكام مدينة الجزائر من أعداء أقوياء، فانصرفوا إلى شؤون البحر حتى سنة 1830م. وقد درت عليهم هذه الأعمال أرباحا طائلة و كانت بمثابة التجارة الرابحة فازدهرت المدينة في هذا العهد>>(1). وقد حبا الله الجزائر بموقع بحري متميز اتخذ منه مرسى و ميناء منذ القديم و ذكره كثير من الرحالة و الجغرافيين العرب في كتبهم فقد وصفه البكري بأنه <<مرسى مأمون>>(2) و وصفه من الأوروبيين فندلين شلوصل بأنه <<واسع جـ دا إلا أن موقعه المكشوف وقلة امتداده داخل الأرض لا يوفر للسفن الإستقرار والأمان>>(3).

و موقع الجزائر مقابل للبحر فهي – كما وصفها الدكتور عبد القادر حليمي – مدينة تنظر إلى البحر، << وظلت تنظر إلى هذا المسطح المائي أكثر من نظرتها إلى البر الذي لم تلتفت إليه إلا بعد الإحتلال الفرنسي>>(4).

ولقد ظل البحر أحد أهم مصادر الثروة والسياسة لمدينة الجزائر طوال قرون، لكنه فقد هذه الوظيفة مع مطلع القرن التاسع عشر ولاسيما عام 1827 تاريخ تحطيم الأساطيل الغربية لأسطول الجزائر حامي المدينة ومزودها بالثروة والسيادة لمدة طويلة، وتخللت فترة سيطرة الجزائر على البحر المتوسط حملات كثيرة شنها الأوربيون على المدينة بغية احتلالها. وكان البحر مصدرا لها إلى أن وفقت

---

(1) تاريخ مدينة الجزائر: ص22.

(2) عن: المدن المغربية: ص160.

(3) قسنطينة أيام أحمد باي: ص34.

(4) مدينة الجزائر: ص34.

آخرها سنة 1830م، ويفهم من هذا أن البحر كان يؤدي وظيفتين متناقضتين: وظيفة السيادة والثروة ووظيفة الحملات المتكررة على مدينة الجزائر، وهذه الوظيفة الأخيرة استوقفت الكاتب جيلالي خلاص وأفرد لها حيزا في روايته " حمائم الشفق " أشار فيه إلى صمود مدينة الجزائر في وجه الحملات العسكرية التي كانت تشن عليها من البحر << و لم ينبلج الصبح نهارها إلا و قد طفت على أديم البحر المشمئز أخشاب مهشمة لم تكن تتضاعف متطايرة من حطام السفن المتلاطمة... لم يصدقوا أن مناعة مدينتكم قد تبلغ هذا الحد من القوة القاهرة>>(1). فالرواية، من زاوية الواقع والتاريخ، ترى أن البحر كان مصدرا للغزوات المتكررة على مدينة الجزائر، و ما أصاب أهلها من كوارث الحروب المتداعية عليهم إنما مرده إلى هذا الفضاء المائي الذي يمتد أمام المدينة، غير أن الرواية تعطي صورة مغايرة للبحر، من زاوية الرؤية الفنية، فالبحر، عند الفنان الرسام، شيء آخر مختلف تماما إنه << ذلك السحر المعجج في مخيلته مالئا خياشيمه برائحته المفعمة بملوحة عذبة المذاق>>(2). وهنا يكون البحر مصدرا لعلاقة وجدانية متميزة تنشأ بين الفنان وبين البحر حتى ولو كان هذا عالما غامضا لم يسبق له أن رآه، <<وكأن هاتفا مغناطيسيا كان يربطه بالبحر الذي أطل من هناك كانسا الأحراش والصخور من أمام نظراته المتعطشة >>(3). ولذلك فإن هذا الفنان، و بعدما رأى البحر: << لم يصدق أن ذلك الماء المترامي بلا أطراف هو البحر >>(4). وعلى هذا النحو، يشكل البحر صورة جميلة وحلما في ذهن من لم يشاهده فإذا شاهده أصابته الدهشة من شساعته وامتداده غير المتناهي وينفتح عليه انفتاحا شبيها باكتشاف السر المخبإ منذ أمد بعيد.

هذا الحلم يتكرر في روايات أخرى، ففي رواية << وقائع من أوجاع رجل

---

(1).حمائم الشفق: ص157.

(2).المصدر السابق: ص59.

(3).المصدر السابق: ص68.

(4).نفسه.

غامر صوب البحر >> يشكل البحر خلاصا من العذاب والمطاردة والسجن، وهو الطريق نحو الضفة الأخرى من المتوسط التي توفر قدرا أكبر من الحرية ، والركض المتواصل في الرواية

- بقسميها - باتجاه البحر ، إنما هو فرار نحو<< الإتجاه الصحيح >> (1) والتوق إلى الوصول إلى البحر هو توق إلى الحرية و الطمأنينة اللتين افتقدهما عاشور و رفيقه في وطنهما، لذلك تبدو المسافة المؤدية إليه طويلة <<حبينك و بين فتحة البحر مسيرة أجيال>>(2)، وهي مسيرة أيضا بين لحظات العذاب و لحظة إشراق الحرية، وفي خضم هذه المعاناة لا ينظر المعذبون إلى البحر إلا من حيث أنه وسيلة للخلاص، وتسقط مع هذه النظرة كل الإعتبارات الجمالية والجغرافية والمادية للبحر.. فالأشياء تكتسب قيمتها وتفقدها انطلاقا من الحالات النفسية، فإذا كان البحر مصدرا للثراء عند جامع اللؤلؤ فإنه مجرد معبر للهروب في حالات كحالة عاشور الماندرينا في الرواية: وبهذا يفقد اللؤلؤ قيمته أمام قيمة الحرية، وتنتفي عن الأشياء صفة << المطلق>> التي تأخذ مفهومها الصحيح بالنظر إلى قيمة الشيء في لحظة معينة ومكان محدد، وليس من وجوده في جميع الحالات.

و يتخذ البحر قيمة نسبية أيضا في رواية << البزاة >> فهو، وإن كان جزءا مهما في المدينة، لايسيطر على قدر كبير من اهتمام مراد وأصحابه من أطفال المدينة، مراد لا يأتي إلى البحر و لاينظر إليه دائما و لكن حين دعت إلى ذلك ضرورة فقد جاءه رفقة صديقه محمد الصغير، لترقب عودة أبيه البحار << إنها ثاني مرة يأتي فيها إلى هذا المكان المطل على الميناء لانتظار والده، تردد كثيرا في المرة الأولى >>(3). و لعله ما كان لينزل إلى الميناء أو يلامس أطراف البحر لولا انتظاره عودة والده، و لذلك تحيد الرواية من فضائها مجال البحر،

---

(1).وقائع من أوجاع رجل غامر صوب البحر: ص33

(2).المصدر السابق: ص14.

(3).البزاة: ص10.

فالأطفال يرغبون عنه ويقضون جل أوقاتهم في حيهم، ولم يرتبطوا به ارتباطا من أي نوع كان لعدم الحاجة إلى ذلك، فلا شيء يدفعهم إليه: فلا هم يقيمون بالقرب منه و لا الزمن الداخلي للرواية يسمح بعلاقة محتملة بين الأطفال والبحر، إذ أن أحداثها تدور في فصل الشتاء.

و خلافا لذلك والد مراد الذي يعمل بحارا على متن إحدى السفن التجارية فهو مرتبط بالبحر ارتباطا وجدانيا يفوق ارتباطه بالبر، وهو ما لاحظه مراد وهو يصحبه في رحلة الصيد على ظهر قاربه << ولاحظ مراد ذلك الحبور الذي يغمر وجه والده، ولعل وجوده في عرض البحر هوالذي يشيع في نفسه البهجة و لعل هذا الصمت من العوامل المؤثرة في النفس و إلا كيف يفسر هذه البهجة على وجه والده وكان قد رآه قبل وقت قصير في المقهى يفسح المجال لدموعه شفقة بذلك الكهل>>(1). وفي موضع آخر من الرواية نجد هذه الإشارة المؤكدة لذلك الإرتباط القوي بين والد مراد والبحر << و راح والده يلقي بعدة خيوط في وقت واحد و يربط أطرافها إلى مسامير مثبتة في حنية القارب، والظاهر أنه نسي كل مايربطه بالشاطىء والبشر>>(2). فما سر هذه العلاقة القوية إذن ؟.

إن بين البحر ووالد مراد علاقة انتماء، فالرجل يقضي جل وقته على متن السفن التجارية ما يلبثه في البحرأكثر مما يلبثه في البر، لذلك فإن ارتباطه به هوإرتباط أي كائن حي بمكان إقامته، هو إرتباط غريزي في الأصل وكأنما حكم عليه أن يبقى إمتدادا للبحر ويبقى البحرامتدادا لوجدانه كما أن البر امتداد لوجدان أليفه وساكنه، فالبحرعنده هوية وانتماء و هو لا يتخذه مصدرا للثروة أوللرزق وبالتالي ليست قيمته بما تحوي أعماقه من اللؤلؤ والمرجان والأسماك ولكن بما يتيح له مجالا للتحرك بعيدا عن الشاطىء والناس، وليس ذلك شأن الناس جميعا،

---

(1).المصدر السابق: ص157.

(2).المصدر السابق: ص158.

فمراد –مثلا – لا يهمه من أمر البحر شيء بل أن إهتمامه بالمدينة أقوى بحكم حركته اليومية فيها وإرتباطه بها لذلك لم يكن في نفسه وهو صحبة أبيه << ميل شديد إلى الصيد . كان يريد أن يضرب صفحا عن القلق الذي يساوره فيترك الخيط ينزل إلى القاع بصورة وئيدة ثم يسمر عينيه في الثكنة القائمة في الجبل الغربي >> (1).

و في البحر يتغير سلوك الإنسان و نظرته إلى الأشياء و يظهر ذلك في موقفين:

1- لقد إكتشف مراد أن الفضاء ليس له شكل ثابت، إذ يتشكل من زاوية النظر ووفق معطيات : فهو يتغير بتغير هذه العوامل، هذا ما عبر عنه وهو يكتشف الميناء من الداخل، أي من البحر << الشيء الذي سجله مراد لأول وهلة هو ان الميناء الذي يوجد داخله الآن غير الميناء الذي تعود رؤيته من اعلى السور. كل الأبعاد تتغير حينما يكون الإنسان في الداخل>> (2).

2 – لا يتصرف الناس في البحر تصرفهم في البر ولو كان بعضهم لبعض عدوا، فقد فوجئ مراد بسلوك الأوربيين من الصيادين تجاهه في البحر فأظهروا له صورة مغايرة لصورتهم في المدينة و سلوكهم حيال العرب << والغريب هو أن مراد كان يتلقى التحيات حتى من الصيادين الأوربيين، ولعل معظمهم كانوا من الأسبان والإيطاليين. وازدادت تساؤلاته عن عالم البحر وما يخلقه من مودة بين الملاحين>>(3).

و اكتفت رواية "بان الصبح" لعبد الحميد بن هدوقة من البحر بالميناء وكان تعاملها معه سطحيا، ومن بعيد، فالميناء لا يمثل إلا مرسى للبواخر التي لم يكن فيها << ما يدل على الحياة سوى الأدخنة التي تخرج منها في تثاقل شديد>>(4)، وكانت راسية لإفراغ سلعها التي حملتها إلى مدينة الجزائر من شتى

---

(1).نفسه.

(2).المصدر السابق: ص156.

(3).المصدر السابق: ص158.

(4).بان الصبح: ص179.

موانيء العالم، وماعدا الميناء فإن الرواية لا تذكر شيئا عن البحر، ويبدو أن ابن هدوقة تدارك قيمة هذا العنصر الهام في مدينة الجزائر في روايته الأخيرة <<غدا في يوم جديد>> إذ تحدث عن العلاقة الحميمية بين المدينة والبحر وحمل هذه العلاقة أبعادا تنم عن عمق شديد في الإدراك << إن مدينة الجزائر نفسها هي هدية من البحر، عروقها تتغذى من البحر تاريخها يحكي قصة البحر، لولا البحر لما وجدت و لما كان لها ذكر في الحاضر والغابر لولا زرقة البحر لما كان وجهها بذلك البياض المشع الغريب، و بأضوائها تلك الساحرة >>(1).

و يفضي هذا إلى جملة استنتاجات أذكرمنها:

1- إن لمدينة الجزائر علاقة وثيقة بالبحر، فهي منه .

2- إن تاريخ المدينة مرتبط به، فلولاه ما ذكرت ماضيا و لا بدت حاضرا .

3- لقد أضفى البحر على مدينة الجزائر طابعا جماليا متميزا و كأن بياضها من زرقته .

و مثل هذه المدركات الجمالية لم تأت صريحة في رواية << بان الصبح >>، وهي في رواية << غدا يوم جديد >> متناسقة مع الجنوح نحو التجديد والتغيير الذي توخاه الكاتب عبد الحميد بن هدوقة في آخر نص روائي له إن على مستوى التقنية الروائية أو اللغة أو الموضوع. ويبدو أن إبراز الجانب الجمالي للأمكنة في هذه الرواية يمثل جانبا من جماليات النص كاملا وهو ما يحمل على الإعتقاد باقتراب ابن هدوقة من تحقيق أكبر قدر ممكن من "تكاملية" النص الروائي من مختلف جوانبه.

و رؤية البحر من هذه الزاوية تكشف عن الناحية الشعرية في الرواية سيما من خلال استغلال الفضاء كأداة مهمة لتحقيق العنصر الجمالي للعمل الروائي.. ومع

---

(1).غدا يوم جديد: ص28.

ذلك فليس البحر في هذه الرواية، ولا في سواها من النصوص المذكورة في هذا المجال وغير المذكورة، موضوعا أساسيا فيها، وليس شرطا أن يكون أي شيء موضوعا أساسيا للرواية كي تحقق أكبر قدر من الجمال والمتعة، والنظرة المتطورة للبحرمن رواية << بان الصبح >> إلى رواية << عندًا يوم جديد >> تكشف عن حركية التصور لدى الكاتب المبدع، ذلك أن الشيء لا يثبت في ذهن الكاتب على صورة واحدة في أزمنة مختلفة، إن تغيير النظرة إلى الأشياء يعني ديمومة التصور واستمرارية الفكر في أداء وظيفته التحويلية التحسينية التجميلية.

ثانيا : الفضاءات المغلقة

يكتسب المكان وجودا متميزا من خلال أبعاده الهندسية والوظيفة التي يقوم بها، فإذا كانت الفضاءات المفتوحة إمتدادا للفضاء الكوني الطبيعي العام مع تعديل وتكيف على حسب الحاجة والضرورة، فإن حياة الإنسان ترتبط ارتباطا بارزا بتلك الفضاءات التي يقيم فيها أو تؤدي له خدمات ضرورية، فالبيت مأوى من الطبيعة وعواملها والمكتب مكان لعمله والحمام مطهره والمسجد معبده و السجن مكان يحد من حريته وطلاقته، وهكذا يجد الإنسان نفسه وقد أجبر على التنقل بين فضاءات مغلقة، مبنية بيده منحها هو الشكل الهندسي الذي اختاره ورآه أنسب لها، و منحها الوظيفة التي يخدم بها نفسه من خلالها، و باختصار يمكن اعتبار كل فضاء مغلق نقيضا للفضاء المفتوح، و أهمية هذه الفضاءات المغلقة تكمن في حاجة الإنسان إليها، سيما بعد التطور الكبير الذي شهده و نعني به انتقاله من طور البداوة حيث كان الخلاء و الكهوف مأواه الأول إلى طور التحدي و الإستقرار فكان الإحتماء من عوامل الطبيعة يقتضي الإحتماء بالمغلق، غير المفتوح على الريح و المطر والحيوان وهذا يقتضي منه جهدا و صناعة، فوظف في ذلك فكره وذكاءه واهتدى إلى ما اهتدى إليه بعد طول معاناة ثم تجربة متواصلة ومتطورة، ورأى الإنسان أنه لكي يتميز عن الحيوان تماما لا بد له من بيت يصنعه هو كما يصنع طعامه و لباسه و آنيته، وليس مثلما وجده مسخرا أمامه كما وجده أيضا الحيوان، ومن ثم كان التفكير في الأبعاد الهندسية من أرقى ما وصل إليه عقل الإنسان، فكان لابد له من أن يراعي في مأواه: الجدار الذي يعزل به نفسه عن المؤثرات الخارجية، و السقف الذي يوفربه قدرا هائلا من الأمن. و كان المسكزأول ما بنى الإنسان لأنه كان حاجته الأولى بعد أن وفر لنفسه حاجته من

الطعام واللباس << ويمكن تعريف المسكن بأنه المكان الذي نشبع فيه جزءا كبيرا من احتياجاتنا المادية الفيسيولوجية والعاطفية والعائلية والثقافية والروحية>>(1). وبعد أن لبى هذه الحاجة شرع في بناء مساكن أخرى لتلبية حاجات مختلفة، فبنى المعبد و المسرح والقصر والسجن والمكتبة والمدرسة وغيرها من المباني التي اقتضى ظهورها السياق التطوري الذي شهده الإنسان على مر العصور.

و لطالما تغنى الأدباء والفنانون بهذه المباني فمنهم من كان يبثها حنينه وشوقه ومنهم من كان يتفنن في وصف جمالها الخلاب، ومنهم من راح يرثيها بعد الحالة المزرية التي آلت إليها، ولعل مما جاء في ذلك وصف البحتري لإيوان كسرى إذ يقول في وصف حالته:

فكأن الجرماز من عدم الأنس وإخــلاقــه بنيـــة رمس

لـو تراه علمـت أن الليـــالي جعلت فيه مأتما بعد عرس

وتشكل الفضاءات المغلقة أحاييز معتبرة في الفن الروائي، فهي فضلا عن أنها أمكنة لأحداث كثيرة منها، إلا أنها تتميز في بعضها بخصوصيات متفردة يجعل أهميتها تعظم لتفضل نواحي كثيرة في الرواية، و ثمة من النصوص ما تشد قارئها بما يصف أصحابها من البيوت والغرف والأثاث وما يدور فيها من الأحداث العجيبة وما يقيم بها من الشخصيات المهمة ونادرا ما نعثر على رواية أهملت هذا الجانب.

و في الرواية الجزائرية العربية نجد قدرا معتبرا من الإهتمام بهذه الفضاءات المغلقة، بل نجد منها ما يحمل دلالات و رموزا لدى بعض الروائيين. وفي هذا الفصل سيكون الإهتمام منصبا على بعض هذه الفضاءات والتي سنحصرها في لبيوت والغرف، والسجون والمقاهي والحمامات والمكاتب ...

---

(1) الإنسان في المجتمع المعاصر: ص276.

1- البيوت و الغرف: ستقتصر الدراسة في هذا الموضع على روايتين هما <<دبان الصبح>> و<< التفكك >> كنموذجين لحضور البيت أو الغرفة كفضاء هام في كثير من النصوص الروائية الجزائرية. و إذا كان البيت مأوى ضروريا للإنسان، فهو في العمل الروائي جزء من الدلالات المختلفة التي يمكن أن يحملها النص كما يشكل بعدا فنيا و جماليا.

فمن الناحية النفسية فإن البيت << هو مكان الألفة ومركز تكييف الخيال وعندما نبتعد عنه نظل دائما نستعيد ذكراه و نسقط على الكثير من مظاهر الحياة المادية ذلك الإحساس بالحماية و الأمن اللذين كان يوفرهما لنا البيت>>(1).

و من الناحية الإجتماعية فإن << البيت هو ركننا في العالم. إنه، كما قيل مرارا، كوننا الأول، كون حقيقي بكل ما للكلمة من معنى>>(2).

و معنى هذا أن البيت يكتسي طابعا حيويا، فهو ليس مجرد مكان نولد فيه و نعيش بين أحضانه ونأوي إليه كل مساء بل هو امتداد لأجزاء هامة تكون شخصية الإنسان و تمده بالمشاعر والعواطف وتغذي حياته. إن حضور البيت في حياة الإنسان يأخذ معنى روحيا وبعدا فلسفيا أحيانا، ولعل إختلاف البشر في أفكارهم وسلوكهم، ناجم في جزء كبير منه عن اختلاف وتباين البيوت التي تربوا فيها، واختلاف البيوت يعني اختلافا في الحالة الإجتماعية والإقتصادية والثقافية والمناخية، وهذا يفضي بنا إلى الإستنتاج أن للبيت دورا مهما في تكوين شخصية الإنسان.

في الروايتين اللتين وقع عليهما الإختيار : بيت من أرضية و طابقين، وبيت قصديري مكون من غرفة واحدة.

قدم الشيخ علاوة إلى مدينة الجزائر عام 1962 و سكن في "قصر" كان ملك

(1).جماليات المكان -فاستون باشلار- ترجمة: غالب هلسا -دار الجاحظ- بغداد 1980. ص10.

(2).المرجع السابق: ص42.

لأحد المعمرين و قد اتخذ له صاحبه اسم " الربيع "، ومع زيادة عدد أفراد أسرة الشيخ علاوة كان لزاما عليه أن يدخل على البيت بعض التعديلات. وبعد أن كان مكونا من طبقة أرضية تحيط بها حديقة أقام عليه دورا أول ثم أضاف دورا ثانيا فصار يبدو<< كعمارة صغيرة أكثر منها كفيلا>>(1).

و قدأساء هذا الشكل الجديد إلىمعمار البيت وجماله إذ << بدا النشاز واضحا بين البناء الأرضي الذي تحيط به حديقة وله مدخل كمدخل الفيلات، والجانب العلوي الذي ترك الفيلا في الأرض ليتخذ شكل عمارة بدورين>>(2).

و هذا التعديل أو << التحوير>> الذي أدخله الشيخ علاوة على << فيلا الربيع >> كان –في اعتقاده– نتيجة طبيعية لنمو أسرته، و قد دفعته الحاجة إلى توسيعه دون أن يفكر في استبداله ببيت آخر أوسع به أو الحصول على قطعة أرض في مكان آخر صالح لبناء بيت من طابقين أو أكثر.

و يمكن أن يربط هذا بجانب مهم من التحول الإجتماعي الذي عرفه المجتمع الجزائري بعد الإستقلال و الذي كان سريعا و فوضويا، و كان من مظاهره النمو المتسارع للسكان والزيادة المذهلة لعدد أفراد الأسرة الواحدة مما أسهم في خلق أزمة سكن خانقة أجبرت كثيرا من العائلات على الإحتفاظ بأبنائها في بيت الأبوين حتى بعد زواجهم وإنجابهم والعمل على توسيع البيت بإضافة أدوار أخرى في أحسن الأحوال، وقد يكون في هذا الإحتفاظ دافع آخر نفسي اجتماعي موروث وهو رغبة الوالدين في الإبقاء على أواصر الأسرة و بناء العائلة الكبيرة، ذلك أن انفراد المتزوج من العائلة ببيت مستقل يعني اضمحلالا تدريجيا لهذه الأواصر.

و يؤدي هذا إلى الإعتقاد في بروز ظاهرة فريدة تخص المجتمع المديني

(1).بان الصبح: ص112.

(2).نفسه.

الجزائري وتتمثل في انتقال العقلية الريفية إلى المدينة و تأثير سلوكات الريف على مظاهر الحياة العامة في المدينة، فالشيخ علاوة يبني طابقين و يفكر في طابق ثالث، دون أن يقيم اعتبارا للجانب الجمالي للعمارة و دون أن يراعي شروط البناء التي ترتبط بالمحيط و الجيرة.

و هكذا، يبدو، أن بيت الشيخ علاوة يسير في سياق تطوري مع المجتمع الجزائري من حيث الظاهر، فهل ترى الرجل واكب هذا التطور في أفكاره وسلوكه؟ الإجابة عن هذا السؤال تفيدنا أن الشيخ علاوة ظل رجلا محافظا على عقليته التي جاء بها من الريف، يقف حاجزا قويا أمام كل محاولات التغيير والتبديل، يفرض أفكاره و آراءه، و سلطته على البيت كله فينصاع الكل له، وهذا في وقت كان التحول الإجتماعي العميق كبيرا في الجزائر سيما في عهد مناقشته <<الميثاق الوطني>> الذي يعد نقلة مهمة في تاريخ الشعب الجزائري.

يتبين من هذا أن الشيخ علاوة باني الدورين الإضافيين لم يستطع أن يحدث في نفسه ذلك التغيير العميق و الجذري الذي أحدثه على بيته، وهو أمر يتيح لنا الإستنتاج بأن التحول الذي عرفته الجزائر في تلك الحقبة كان تحولا في الظاهر– غالبا– ولم يمس مسا واسعا الجوهر.

والبيت من الداخل مكون من طابق أرضي و طابقين علويين، يوجد بالطابق الأرضي، المطبخ و الصالون الذي أدخل عليه الشيخ علاوة تعديلا فقد << كان هذا الصالون يشتمل على قاعتين واحدة للجلوس وأخرى للأكل. لكن الشيخ علاوة فضل أن يجعل قاعة الأكل في حجرة مستقلة وأمر بضم القاعة المخصصة للأكل إلى الصالون>>(1). أما الدور الأول فنجد فيه غرفة الشيخ علاوة، وغرفة تتقاسمها إبنته الكبرى زبيدة مع ابنت عمها نعيمة وغرفة مراد، وغرفة عمر

---

(1)بان الصبح: ص147.

وزوجته منى، أما العجوز كلثوم فليس واضحا ما إذا كانت تستقل بحجرة عن زوجها علاوة أم مازالت تقاسمه الغرفة ذاتها التي اختارها لهما حين شرع في تقسيم غرف البيت قبل أن يبلغ الأبناء أشدهم << حجرة له هو وزوجته والبنت الصغرى هالة. حجرة إلى رضا، حجرة إلى زبيدة و دليلة، وحجرة تركت شاغرة لعمر إذا رجع من قسنطينة على أنها في غيابه تستعمل للطوارىء >>(1)، ويبدو أن هذا التوزيع قد أعاد فيه النظر لما أضاف الدورين فوق سطح الفيلا وكبر أبناؤه، فعدد الغرف – حسب هذا التوزيع لا يتعدى الأربع، بينما نجده –في سياق أحداث الرواية وزمانها– ستا، والواضح أن تقدمه و زوجته في السن وتزويج ابنه عمر وقدوم نعيمة إلى البيت، كل ذلك استدعى إعادة توزيع للغرف على النحو الذي قدمنا آنفا.

وتصميم البيت من الداخل، من حيث موقع الصالون في الطابق الأرضي، والغرف في الطابقين العلويين يجعله قريبا إلى حد كبير من أي بيت أوربي فردي مع اختلاف جوهري وهو ندرة أن يجتمع في بيت أوربي عدد من الأفراد وعلى نفس التركيبة الإجتماعية الأسرية على هذه الصورة الذي اجتمع بها الشيخ علاوة.

إن الطابع الذي يتخذه بيت الشيخ علاوة من الداخل يشبه ظاهريا طابع ما يعرف في الجزائر << بالدار الكبيرة >>، و الفرق بين هذا البيت و هذا النوع التقليدي من الدور كامن في الطريقة الهندسية: فالعائلة الجزائرية التقليدية كانت << تعيش في الدار الكبيرة و يمكن تكبيرها ببناء غرف جديدة إذا ارتفع عدد الأعضاء و حسب المناطق و ظروف الحياة تستطيع الجماعة المنزلية ذلك أو الحياة في دار كبيرة واحدة مبنية حسب حاجات ومتطلبات الأسرة...>>(2). ومن حيث تصميمها فإن الدار الكبيرة تحتوي << على غرف منفصلة بوضوح

---

(1). المصدر السابق: ص148.

(2). العائلة الجزائرية: ص39.

متميزة وعلاقات يقيمها الناس فيما بينهم، وليكن لنا أن نسمي انغلاق الدار الكبيرة "انغلاقا مفتوحا" بالنظر إلى إيجابياته على علاقات الناس بعضهم ببعض، وعلى العكس من ذلك تماما، فإن بيت الشيخ علاوة موغل في الإنغلاق، فزيادة عن إنغلاقه الهندسي ثمة إنسداد واضح في العلاقات بين أفراد الأسرة التي يضمها.

تشمل أحداث الرواية نسبة كبيرة من الفضاء الكلي للبيت: إذ تتوزع بين الصالون والمطبخ والغرف كلها باستثناء غرفتي مراد و عمر، وحاز الصالون على حجم كبيرمن هذه الأحداث لاعتبار أساسي و هو أنه المكان الوحيد في البيت الذي يجمع كل أفراد العائلة في جلسات السهرة التي كان يعقدها الشيخ علاوة، وكانت تدور فيه المناقشات التي تهم الأسرة، وموقعه في الطبقة الأرضية للبيت مع المطبخ يجعله ممرا لكل داخل و خارج، فالصعود الى الطابقين العلويين أو النزول منها باتجاه الخارج يمر حتما منه، وبه جهاز الهاتف الذي هو وسيلة الإتصال بمن هو خارج البيت ، و يكمل هذا الجهاز وظيفة الصالون وقد أدخل الشيخ علاوة تعديلا على هذا الصالون مثلما.... أدخله على هندسة البيت فوسعه بعدما كان مكونا من حجرة واحدة، أما أثاثه فكان خليطا من كل نوع وفن <<الموائد الخشبية المنقوشة من تلمسان، المتكآت من سوريا، وكذلك المناضد العالية المطعمة بالعاج، التي توضع بين المتكئات. السرر الخشبية المنقوشة كانت من فن مغربي الصناديق التي وضعت بالجهات الأربع للصالون، لتعطي بعدا للمقاعد عن بعضها من فن جزائري ....>> (1).

وقد حظيت الجدران ببعض الزينة، حيث علق عليها سيفان أحدهما جزائري والأخر أوربي وصور ملونة مأخوذة من الأساطير العربية منها: صورة للإمام علي وابنه الحسين وصورة ابراهيم الخليل وهو يستعد لذبح إبنه وبالقرب منه

---

(1) بان الصبح: ص148.

ملك يقود كبشا، ثم صورة تظهر عراكا بين فارس عربي و أخر رومي... و قبالة الباب علق مصحف حائطي، بينما بثت في أماكن من الصالون تحف وآيات وطرر>> (1).

و بالنسبة إلى الشيخ علاوة فإن تجهيز الصالون على هذه الكيفية يعطيه بعدا رمزيا .إذ يجعله صورة للماضي و يعطي انطباعا بالأصول العربية للأسرة، ولا شيء من رموز الحاضر نجده معلقا بجدرانه، بما يوحي بالركون إلى الماضي والتشبث به، دون محاولة التفتح على الحاضر، وهذا الموقف يجسده الشيخ علاوة أيضا من خلال أفكاره وتصرفاته، و بهذا يأتي تأثيث الصالون و تجهيزه امتدادا لنمط ثابت من الفكر والتصور يتميز بالماضوية والخوف من المستقبل والراهن، ويمثل الصالون في نظر علاوة مكانا رسميا <<فهولا يختلف عن الأماكن الرسمية الأخرى >>(2). لذلك يحضر إليه بلباسه الرسمي أيضا.

و إذا كانت هذه هي وجهة نظر الشيخ علاوة فإن للأبناء موقفا آخر مغايرا، فرضا كان يراه أشبه بالمتحف و لذلك كتب على بابه كلمة << متحف>> وكان يرى الصور التي علقت على جدرانه نوعا <<من الفلكلور الشعبي في الرسم>>(3)، وترتبط هذه الصور بقصص شعبية لا يعرفها إلا علاوة، قصص مستوحاة من الماضي البعيد يسرد معظمها أحداثا لا علاقة لها بالواقع، بعيدة عن الحقيقة التاريخية الإسلامية والعربية، لكنها هكذا رسخت في ذهن الرجل وتقبلها عقله ورآها تفسيرا مناسبا لهذه الصور التي علقها على جدران الصالون، ويكاد الأبناء يجمعون على السخرية من تأثيث الصالون و تزيينه بهذه الكيفية، وهو موقف يؤكد جنوحهم إلى الإنفصال عن ذهنية الأب المغرقةفي الماضي واستشرافهم للحاضر والمستقبل، فهم لا يسخرون من محتويات هذا الصالون إلا

---

(1).المصدر السابق: ص150.

(2).المصدر السابق: ص151.

(3).المصدر السابق: ص148.

بقدر ما تمثله من امتداد للماضي، ويظهر عبث محاولات السيطرة على البيت والأبناء التي كان يتوخاها علاوة في تصرفاته حيالهم من خلال هذا الإستخفاف الذي يبدونه تجاه ما يعتبره هو رصيدا تراثيا مهما وجزء كبيرًا من الماضي ينبغي استحضاره و المحافظة عليه.

و يتخذ الصالون طابعا رسميا بما يؤدي من وظيفة، فهو مكان عرض القضايا التي تهم الأسرة و مناقشتها، و يكون الشيخ علاوة، في كل مرة، داعيا إلى اجتماع الأسرة و مديرا موجها للنقاش و منهيا للجلسة، لكن هذه المناقشات غالبا ما تحتد بسبب التصلب الذي يبديه طرف من الأطراف فينفض المجلس بأمر من الشيخ أيضا، و من بين القضايا التي نوقشت فيه الإستعداد لحضور حفل زفاف عائلة الثري ابن عبد الجليل في الجلسة الأولى، و كانت الجلسة الثانية مخصصة للحديث عن بعض مما جرى في هذا الحفل ورغبة العجوز كلثوم في خطبة إحدى بنات ابن عبد الجليل لإبنها مراد. وشهد الصالون أيضا خيبة بعض أفراد العائلة واحباطها أمام صالح أبي نعيمة الذي فضحهم وبرأ إبنته من تهمة << الحمل>> التي ألصقها بها عمها وزوجته.

و يتضمن الطابق الأرضي أيضا المطبخ الذي هو :"عصب الحياة ... هو المكان المنفتح المغلق، هو الوجه والقفا لحياة أسرة منغلقة على نفسها >> (1)، لم يحتضن أحداثا ذات شأن بإستثناء حادثة متميزة وقعت ذات ليلة بعد ما أثيرت قضية نعيمة وعمر في جلسة الصالون، حيث حاول رضا أن يزيح عن ابنة عمه بعض همومها فأيقظ أخته دليلة التي أيقظت زبيدة و نعيمة واقترح رضا على الجميع النزول إلى المطبخ لتناول العشاء في ساعة متأخرة من الليل، ولما اجتمعوا بالمكان وهموا بالعشاء فاجأتهم العجوز كلثوم وافتكت منهم الدجاجة فانفضوا

---

(1).الأقلام: جوان 1981- ص148.

غاضبين، وسوى هذه الحادثة فإن المطبخ لم يكن له حضور متميز في الرواية، ولم يكن يؤمه باستمرار إلا الكنة منى والعجوز كلثوم والأبناء في حالة نادرة، أما الشيخ علاوة فلا تذكر الرواية أنه دخله وكان << من عادته تناول غدائه وعشائه بالمطعم >>(1). والحضور المستمر لمنى بالمطبخ يؤكد وظيفة الكنة في العائلة الجزائرية المحافظة، فهي <<الآلة >> التي تقوم بتموين أفرادها، فيما يبرز حضور العجوز كلثوم العلاقة المتميزة – في العائلة الجزائرية – بين <<العجوز>> والكنة، إذ تقوم بدور المساعد والمراقب.

والكاتب لا يفصل شيئا عن المطبخ، لا يذكر فضاءه ومحتوياته، وموقعه بالتحديد من الصالون أو بعض الحجرات الأخرى في الطبقة الأرضية مما يوحي بأنه مطبخ عادي لا يتميز بشيء لافت للنظر مثل الصالون.

و يبدو أن ثمة قاعة أخرى خاصة بالطعام- كما سلفت الإشارة –، لكن الرواية لا تذكرها، و ليس ثمة حدث وقع فيها.

و مهما يكن فإن هذه الأجزاء الثلاثة – الصالون والمطعم والمطبخ –، ولا سيما الجزأين الأول و الثاني، تؤدي وظيفة تجميعية، فإذاأمكن النسوة التجمع في المطبخ لأداء العمل المنوط بهن، فإن التجمع في الصالون والمطعم أكبر، ذلك لأن هذين المكانين يؤمهما كل أفراد الأسرة، وهو مما يوهم بالإنسجام والتفاهم والوحدة بينهم.

لكن هذا الوهم سرعان ما ينكسر في الطابقين العلويين حيث يتوزع أفراد الأسرة على الغرف، ويكاد كل فرد أن يستقل بغرفة لنفسه، وهذا ما يعطي انطباعا باستقلالية كل فرد عن البقية. وتقاسم فردين لغرفة واحدة أملته الضرورات المختلفة، كعلاقة الزواج بين عمر ومنى، وحداثة سن هالة التي جعلت الشيخ

(1).بان الصبح: ص32.

علاوة يقاسم الغرفة بينها وبين أختها دليلة، بينما اقتضت ضرورة: عدم وجود غرفة شاغرة أو تقاليد الأسرة أن تتقاسم زبيدة غرفتها مع ابنة عمها نعيمة، أما مراد و رضا فطبيعي أن يستقل كل واحد منهما بغرفة، ولا تحدد الرواية بوضوح غرفة الشيخ علاوة والعجوز كلثوم ، أهي واحدة، أم كل منهما يستقل غرفة بنفسه، إلا أن ثمة قرائن نصية تجعلنا نرجح الإحتمال الأخير أهمها:

- إن التقاليد المحافظة التي يحرص عليها الشيخ علاوة ترغمه على أن يستقل بغرفة لوحده سيما وقد تقدم في السن و كبر أبناؤه.

- بعد حادثة المطبخ ذات ليلة ذكر الكاتب تعاون << مراد و رضا على إدخال أمهما إلى غرفتها>>(1)، و كانت باكية شاكية من ابنتها دليلة التي زعمت أنها حاولت ضربها ودفعها، ثم إن زبيدة ، بعدما صعد الجميع إلى غرفهم << رأت أن تذهب إلى غرفة أمها >>(2) . وقد جرى بينهما حديث عنيف فيه تأنيب وسخط وانفعال، كل ذلك جرى في غرفة الأم ولم يستيقظ الشيخ علاوة فيعرف ما وقع، وهذا ما يؤكد أن العجوز كلثوم تنام في غرفة لها مستقلة عن غرفة الشيخ علاوة، ويدعم هذا نسبة الغرفة إلى الشخص، فالكاتب يقول <<غرفة العجوز، غرفة النوم>> ويقول أن الشيخ علاوة << اتجه إلى غرفته بالدور الأول>>(3) وغرفة الأم كذلك بالدور الأول، لكن ما يبقي الشك قائما في هذه الإستقلالية عدم التناظر في هندسة البيت بين الطابقين الأول والثاني إذا حصل أن بالأول أربع غرف وبالثاني ثلاثا، ولايهمنا ذلك إلا من حيث مبدأ الإنسجام أو عدمه الذي يطبع البيت أولا يطبعه، و نعني به الإنسجام الشامل : في هندسة البيت وترتيبه والعلاقات بين أفراده .لكن من ناحية الجنسين، يبدو أن التوزيع متساو بين الطابقين: ففي الطابق الأول يقيم رجلان هما الشيخ علاوة وابنه الأوسط مراد وثلاث نسوة هن:

---

(1).بان الصبح: ص283.

(2).المصدر السابق: ص284.

(3).المصدر السابق: ص31.

زبيدة و نعيمة والعجوز كلثوم، والعدد والتوزيع نفسه نجده في الطابق الثاني: رجلان هما: عمر ورضا وثلاث إناث هن: منى ودليلة وهالة الصغيرة، وهذا التوزيع المتساوي يوحي بالإنسجام الظاهري الذي يريد الشيخ علاوة أن يقيمه في البيت من حيث توزيع عدد من الرجال و النساء على الطابق الثاني مساو لعددهم بالطابق الأول، و يبدو أن الغرف لا تتقابل و إنما تتجاور وكأنها بنيت ثلاثها أو أربعها صفا واحدا.ومما يؤكد ذلك ما ورد على لسان رضا <<غرفة زبيدة بين غرفة أسي ومراد >>(1). وهذا التجاور ليس فيه ما يثبت الإنسجام، بل على العكس من ذلك تماما، إذ نجد تباينا واضحا بين هؤلاء، زبيدة البنت الكبرى العانس غير المثقفة و نعيمة الفتاة الجامعية القروية و العجوز كلثوم المتصلبة ومراد الشاب الطبيب، و في الطابق الثاني تتجاور غرف رضا ودليلة وعمر ومن مع هذين، دون أن نجد انسجاما كبيرا بينهم.

والغرف في الطابقين لا تنفتح على القارىء في أشياء ذات بال، لا شيء من الأحداث المهمة يدور فيها، فباستثناءغرفتي الشيخ علاوة ودليلة، فإن الكاتب يكتفي بالإشارة إلى الغرف ولا ندري علام تنغلق كل غرفة، وهو لون آخر من ألوان الإستقلالية والإنفراد اللذين يطبع بهما أفراد الأسرة . فدليلة تجد في غرفتها فضاء لممارسة حريتها، ففيها تدخن وسط أسرة محافظة، و فيها يحلو لها أن تتجمل وتتباهى بصورتها الجميلة، و تقف قبالة المرآة مدة تتأمل جسمها ومفاتنها، وهي سلوكات لا تستطيع القيام بها في حضرة أبيها، إذ أنها، وبعد أن دق أبوها باب غرفتها، << أطفأت السيجارة بسرعة، وأشارت إلى المرآة هامسة: الجنرال وخرجت وغلقت الباب وراءها بسرعة لئلا يدخل ابوها الغرفة>> (2).

إن دليلة تجد في غرفتها متنفسا لأفكارها و سلوكها، لكنها سرعان ما تفقد هذا

(1).المصدر السابق: ص272.

(2).المصدر السابق: ص6.

المتنفس خارج جدران الغرفة وبين جدران البيت، ثم لاتلبث أن تستعيد شيئا منه خارج البيت، وعمل دليلة في كلتا الحالتين هو محاولة فرار من الرقابة: رقابة الأب في البيت العائلي ورقابة المجتمع في المدينة، فهي تلجأ إلى غرفتها حين تحاول أن تفلت من رقابة البيت و تلجأ إلى غرفة كريمو بشارع محمد الخامس أو غرفة صديقتها نصيرة بالمرادية أو غرفتها الموعودة التي أكترتها بالقصبة، حين تحاول أن تفلت من رقابة المجتمع، ويوحي هذا بأن دليلة تبحث عن الحرية في الأماكن المغلقة، وهذا في وقت يسعى غيرها – من النساء أو الرجال إلى البحث عن الحرية في الأماكن المفتوحة، في كل فضاء لا تحدده أربعة جدران، ولكن وهم <<التحرير>> هذا سرعان ما يسقط حين تصاب بخيبة أمل. إن الحرية المرغوب فيها لا يحققها أبدا الهروب من واقع الأسرة والمجتمع، فقد جنت عليها شقة كريمو جريمة الزنا، وجنت عليها محاولة الإستقلال ببيت في القصبة خيبة ومرارة.

أما الغرفة الثانية التي حظيت ببعض الإهتمام فهي غرفة الشيخ علاوة التي تقع في الطابق الأول، في موقع وسط بين الطبقة الأرضية والطابق الثاني وهي غرفة عادية كسائر الغرف حسب ما يتضح من خلال الرواية، إذ لا تحتوي على أكثر من سرير ومنضدة صغيرة وخزانة و مقعد << وثير منجد >> (1)، ولا شيء على الجدران سوى << معلاق >> يعلق عليه ملابسه التي يخلعها بعد عودته من الخارج، وفي أول ظهوره في الغرفة يبدو متضايقا من ما سمعه ورآه في عمله وفي الشوارع وفي الحافلة وازداد تضايقه في الغرفة بعد أن إطلع على الأسرار التي حملتها بعض الرسائل الوافدة إلى إبنيه عمر ومراد وإبنة أخيه نعيمة – خطأ – في الغرفة يكتشف الأسرار الدفينة: إبنه عمر مدير

---

(1).المصدر السابق: ص32.

المؤسسة في رصيده البنكي مبلغ خيالي.

<<مليون وخمسمائة دينار؟>>(1) حصل عليه بطرق غير مشروعة، وابنه الطبيب مراد على علاقة بامراة أجنبية قد يتزوجها، وإبنة أخيه نعيمة حامل.. وبالغرفة نافذة تطل على بيوت الجيران منها جاء للشيخ علاوة ما يزيد من تضايقه حين رأى شابا واقفا في نافذة إحدى حجرات بيتهم وهو لا يرتدي إلا تبابا، وفي هذه الغرفة << أحس بالحزن يطبق عليه من جميع أقطاره. حزن مقرون بالغضب>>(2). وهكذا لا يجد الشيخ علاوة راحة في مكان ما، لا في الخارج، ولا في بيته بين أفراد أسرته، حتى غرفته صارت مبعثا لهمه وحزنه واغترابه وخيبة أمله في من كان يثق فيهم، سيما إبنه عمر مفخرته.

وصرامة الرجل ومحاولته السيطرة على أوضاع البيت حولته في نظر بعض أبنائه إلى صورة << جنرال >> وحولت البيت إلى << ثكنة >> وحولت الأم إلى << كومندان >>، إلا أن هذه الرسائل والسلوك الذي يصدر من دليلة وعمر خارج البيت، يؤكد عدم قدرة <<الجنرال>> على التحكم في زمام الأمور، وتبرز استحالة تكييف سلوكات الناس وفق التصورات الخاصة والأهواء الشخصية. إن هذا البيت بنظامه وإدارته نموذج لهشاشة النظام في مجتمع كالمجتمع الجزائري ومؤشر دال على تفتت النظام الأسري في بعض العائلات الجزائرية التي لم تستطع أن تحقق توازنها الإجتماعي في علاقاتها الداخلية و الخارجية.

وفي رواية التفكك يجد القارىء نوعا منفردا من البيوت، يجد مأوى تصدق عليه تسمية البيت، كما تصدق عليه تسمية الغرفة، و لكنه ليس ببيت ولا هو بغرفة، كما يحمله مدلول كل منهما، لقد جاء الطاهر الغمري إلى المدينة وهو لايحمل بطاقة هوية يتخفى من الناس والسلطة، وقد اختار لإقامته << مأوى >> هو عبارة عن بيت من القصدير وصفه الكاتب << بالصندوق الذي تكوم عليه الصديد وهو يسيل

---

(1).المصدر السابق: ص37.

(2).المصدر السابق: ص45.

قيظا في الصيف وصردا في الشتاء، والذي رسمت على جدرانه الخارجية ما يشبه النوافذ المطلية بلون فسفوري ناصع يغطي خلفيتها المزعومة ستار بين اليقظة والنوم...>>(1). ويقع البيت القصديري الذي يتخذه الطاهر الغمري مأوى له في مكان مرتفع إذ <<لا يعتم أن يرجع صاحبنا إلى بيته المنفرد المعزول والمشرف على المدينة وعلى الميناء وعلى السيلان البشري المتدفق وعلى قوافل السيارات المنسابة على اختلاف أنواعها و طرازها >>(2) ومن هذا الموقع يسهل عليه مراقبة المدينة بكل ما يتحرك ويسكن فيها، ولا يبدو أن هذاالمأوى يتصل ببيت آخر من حوله، فهو كما يصفه الكاتب معزول، وعزلة البيت هنا من عزلة صاحبه الذي يعيش وحيدا في المدينة لا يتصل بأحد ولا يتصل به أحد ما عدا سالمة التي اكتشفته ذات مرة ثم دأبت على زيارته باستمرار، وإذا كان ارتفاع موقع البيت وانعزاله يوحيان بانعزال صاحبه عن المجتمع، فإنهما لا يعزلانه عن ماضيه وذاته، لكن الطاهر أن الرجل لا يمتد مع غيره وإنما يتقوقع على نفسه تقوقعهفي بيته القصديري.

و من الداخل فإن <<حذواة الغرفة القصديرية تحتوي فيما عدا الكثير من الأسلاك والشرائط والحبال – سريرا صغيرا، ثم منضدة من الخشب القديم يقضقض طول الليل، وضع عليها كأس من الماء لا يجف أبدا ووردة صفراء مزروعة زرعا في حفرة تتوسط المائدة المرشوقة ببق الأعوام و بموس حافية نحتت جملة لا تخلو من الغرابة، ليضمني ظلهم كما وضعت عليها كراسات ومقلمة وعلبة من المعدن تحتوي على صمغ بين الوردي والصدإ وكتب قديمة وصفراء، ثم موقد نسي حتى لونه يحمل غلاية مبعجة بأوراق الأسفار[....] ثم لوحة قرآنية مزخرفةو مكتوبة (تبت يدا أبي لهب...) علقت على أحد الجدران

---

(1). التفكك: ص14.

(2). المصدر السابق: ص8.

[...] ثم أيقنة من الأواني >>(1).

و كان للغرفة نوافذ وهمية مصنوعة من الورق المقوى و مطلية بعناء حيث يخيل للرائي أنها نوفذ حقيقية،أما الباب فكان << عبارة عن غشاية كتيمة مرصعة بنسيج مصلب قطيفي المخمل أو صوفي – من يدري – متعرج القطبات، مقوى بالألواح من الخشب المعاكس المتألف من شرائح متضاربة الإتجاه تربط الباب بأشرطة مضفورة >>(2).

و يتخذ هذا << المأوى >> تسميات مختلفة فهوتارة: << غرفة قصديرية>> و تارة أخرى << عرين >> وتارة ثالثة << دار الهناء >>، وهذه التسميات ظهرت في الرواية على التدريج كما هي مذكورة هنا، فتحول << الغرفة القصديرية >> إلى << دار الهناء>>، تم بفعل التغيير الذي أحدثته سالمة على << المأوى >> وعلى الطاهر الغمري إذ أنه <<كتب على بابها منذ أن تعرف على سالمة كلمتين فخمتين باذختين: << دار الهناء >>(3)، و قد غيرت سالمة كثيرا من فضاء الغرفة وأجوائها فأضفت عليها روح الحيوية التي انبعثت في نفس الطاهر الغمري، حيث صار منزله نظيفا وعلق الصورة التي كانت تلازم جيبه على أحد الجدران و فتح نافذة مكان النوافذ الوهمية << فاتسعت الحجرة وتبلور جوها وتشفف مناخها >>(4).

و لكن ماذا كان يصنع الطاهر الغمري في هذا البيت؟

تبين الرواية – في مواطن متفرقة – أن الطاهر الغمري كان يعكف على كتابة التاريخ الذي لم يكتبه أحد، بتدوين مذكراته، والتاريخ الذي يكتبه هوالذي عاشه وشهد أحداثه ووقائعه ، بدأ من فترة ما قبل الثورة وانخراطه في صفوف الحزب الشيوعي ثم عمله بالثورة أثناء اندلاعها وما آلت إليه أحواله بعد ذلك، وهو بالتالي

---

(1).المصدر السابق: ص71.

(2).المصدر السابق: ص111.

(3).المصدر السابق: ص163.

(4).المصدر السابق: ص216.

تدوين لحياة مناضل في حزب أكثر من كتابة تاريخ ثورة، و إلى جانب هذا السلوك كان الطاهر الغمري يمارس العادة السرية وكثيرا مما لا يستطيع فعله أمام الملأ. و بهذا تكون << الزنزانة الوجودية >>(1) التي يعيش فيها أيامه الأخيرة من حياته تلك مساحة لفعلين لا يتعارضان بالضرورة:

- أما الفعل الأول فهو ممارسة الحرية - كما يراها هو - دون رقيب أو محاسب، فالغرفة، على صغر مساحتها وسوء حالها - تتيح له قدرا كبيرا من التحرر الذي لم يتحه له الفضاء الخارجي لذلك فإن انغلاقها بالنسبة إليه - إيجابي، ومن مظاهر حريته فيها أنه يمكنه النظر إلى الصورة التي يحملها سرا ويتأمل أصدقاءه فيها دون خوف من أحد.

- و أما الفعل الثاني فهو العودة إلى الماضي و الغوص في بعض تفاصيله، بدءا بتلك اللحظات الأولى التي بدأ فيها << النضال >> ثم مَاهو عليه من مآس بفعل فقدان رفاقه، ويتم ذلك بطريقة نظرية تعتمد البصر والتأمل، و طريقة أخرى عملية تعتمد الكتابة والتدوين، ومن هنا يرسم بالصمغ و على كراسته ما عجزت الصورة عن ترجمته، ويبدو ثمة تلازم قوي بين الصورة بوصفها لقطة من لقطات الماضي وبين التاريخ الذي هو الماضي كله، واستحضار التاريخ اقتضاه الوجود الدائم للصورة .لكن في النهاية، التاريخ و الصورة وأصحابها، الكل في << بيت قصديري منسي >> يقيم بعيدا عن المدينة اتقاء السؤال والبحث و التأكد من الهوية. والبيت المنسي المنعزل تأكيد لرجال منسيين و تاريخ مطوي لا يريد أحد الإقتراب منه.

و يبدو أن في تسمية المأوى بالعرين << سقوطا >> لإنعدام التوافق بين الدال والمدلول، فإذا كان البيت القصديري عرينا فأين الأسد الذي يضمه؟ إلا أن يكون مأوى <<لأسد>> هرم مشرف على نهايته، وساعتها يستوي هو وجحر الفأر، إذ أن العرين يأخذ هيبته من هيبة صاحبه.

---

(1).المصدر السابق: ص24.

2- السجون :

و لعل السجن من أكثر الأماكن إنغلاقا، فهو فضاء محصور مقيد، لا يتصل منه المرء بالفضاء الخارجي إتصالا إراديا حرا، وفيه تفقد الحياة والإنسان قيمتهما فيصير ذو الجاه والسلطان و المنطلق بحرية في آفاق الأرض مجرد رقم في زنزانة << وإذا كانت حرية الإنسان هي جوهر وجوده والقيمة الأساسية لحياته، فإن السجن هو استلاب لهذه الحرية. وبالتالي فهو استلاب للوجود وإهدار للحياة.>>(1).

و قد عانى الإنسان منذ القديم من ويلات السجن، و كثيرا ما كان يزج فيه بالمقهورين المغلوبين على أمرهم الذين لم يؤتوا نصيبا كبيرا من الجاه والقوة، ولكم قاسى ويلاته معارض سلطان أو عدو ملك أو بطل شعبي مهزوم أو طالب حق سلبته منه قوة السلطة وظلمها، والسجن في كل هذه الحالات، ولأي سبب من الأسباب، هو نقيض الحرية ذلك أنه << الحقيقة الثابتة في المجتمعات الخاوية من الحرية >>(2).

و في الإبداع الأدبي يتخذ السجن مدلولات شتى منها: المدلول المادي المباشر، والمدلول الرمزي والمدلول الوجودي والمدلول السياسي والمدلول النفسي، ولذلك فإنه ليس من الضروري العيش في زنزانة باردة للشعور بوطأة السجن، إن هذا قد يأتي والمرء في قصر واسع الأرجاء يحيط به الخدم والحشم من كل جانب، وحين يتعلق الأمر بأزمة حرية يكون للسجن مدلول وجودي، ويكون له مدلول سياسي حين يتعلق الأمر بما يسميه الحاكم عادة <<أمن الدولة >> أو << قلب النظام>> أو << التشويش وإثارة البلبلة >> وغيرها مما ضمه معجمه السياسي.

والرواية العربية في الجزائر -على حداثة سنها، إذ أن <<البدايات الحقيقية لها

(1).دراسة روايات نجيب محفوظ الذهنية: ص88.

(2).المرجع السابق: ص90.

التي يمكن أن تدخل في مفهوم الرواية هي التي ظهرت منذ سنوات قليلة، أي في السبعينات >>(1) فإنها استطاعت أن تبلور فكرا سياسيا، بغض النظر عن منطلقاته واتجاهاته الإيديولوجية، و تجسد هذا الفكر في بعض المواقف الجريئة من النظام السياسي القائم في العشريتين الأخيرتين، وانعكس ذلك في اتجاهين فنيين: أحدهما مباشر تقريري، و الثاني رمزي، و كان من نتائج هذه المواقف الجريئة المنتقدة لأسلوب الحكم و الرافضة لممارسات السلطة بطرق تعسفية فيها كثير من الجور والقمع، أن أظهر ما يمكن أن نسميه << الإتجاه السياسي في الرواية العربية الجزائرية >> ومن البديهي أن تصدور الروايات التي تعكس هذه المواقف معاناة المثقف في هذه الرقعة من الأرض من تلك الممارسات وما جره عليه رفضه من عواقب وخيمة كان أبرزها المحاكمات والسجون وألوان العذاب التي ذاقها في الزنزانات وقاعات التعذيب على أيدي جلادي النظام.

و لعل من أخطر الروايات السياسية التي عرضت لهذا رواية الأعرج واسيني:

<< وقائع من أوجاع رجل غامر صوب البحر>> وتليها بدرجة أقل رواية الجيلالي خلاص : << حمائم الشفق >>.

تبدأ محنة عاشور الماندرينا من الشارع والمصنع حين رفض واقعا سياسيا مجحفا، وأوصله رفضه بعد ذلك إلى ثلاث محطات شكلت نقلة في حياته: المحكمة، قاعة التعذيب وزنزانة السجن، و بالنظر إلى ذلك الواقع السياسي فإنه لا يبدو ثمة فرق واضح بين هذه الأماكن، فهي ثلاثتها حلقات متصلة للعذاب والإستلاب، ففي المحكمة يغيب العدل فتصير معبرا لقاعة التعذيب التي تشتغل دواليبها على حساب أجسام الرافضين لما يريده النظام ومن ثم تحتضن الزنزانة ما تبقى من آثار الحياة في ذلك الجسد، ويفتقد الإنسان فيها كل القيم التي كان يقيمها معايير لحياته و سلوكه قبل رحلة العذاب هذه. ولنتتبع مسار هذه الرحلة، فإنه من الضروري التوقف في كل محطاتها.

---

(1) تطور النثر الجزائري الحديث -عبد الله الركيبي- الدار العربية للكتاب -تونس ليبيا 1978- ص201.

- **المحكمة:**

المحكمة في الرواية أداة في يد السلطة تسخرها لخدمة نفسها والمحافظة على مكانها، فهي أحد أجهزة القمع التي تستعين بها في القضاء على كل صوت معارض . و إذا كانت المحاكم في الدول التي تحترم نفسها أماكن لإقامة العدل وإحقاق الحق بإنصاف المظلوم والإقتصاص من الظالم، فإن ذلك ليس من شؤونها في رواية << وقائع من أوجاع رجل غامر صوب البحر >>، إنها وجه من وجوه السلطة الجائرة حيث << يصبح القضاء مأجورا>>(1) وتتحول في نظر المحاكمين ممن اتهموا بالمساس بأمن الدولة إلى غابة تغيب فيها القوانين التي هي من مظاهر التمدن البشري و<< توزع أدوار مدروسة على محامين قتلة يطبخون القوانين على هواهم>>(2) وعبثا توهم الناس بشعاراتهم المعلقة على الجدران من مثل <<أنصر أخاك ظالما أو مظلوما...>>(3) إنها مكان يؤدي وظيفته التي أقيم من أجلها. لكن ثمة بونا شاسعا بين شعاراتها المعلقة وما يمارسه فيها قضاتها ومحاموها من دوس القوانين التي يحرصون عليها ويزعمون أن <<لا حق لمن داس العرف والقانون >>(4). وفيها يتهم المتظاهرون الذين عبروا في الشوارع عن رفضهم لأوضاعهم المعيشية بالتدبير لمحاولة قلب نظام الحكم، و يتهم عاشور الماندرينة، مهرب البرتقال عبر الحدود بإستقدام أسلحة والإستعداد لتلك المحاولة الإنقلابية و يغيب العدل حين يرفض القاضي الإعتراف بمحضر الجمارك الذي يثبت حقيقة ما ضبط عند عاشور، إن القاضي في هذة المحكمة لا يسعى إلى إقامة العدل و إنما يحمي النظام ويسهم في ترسيخ بقائه ويزيد على ظلمه الناس، وهكذا تفتقد المحكمة منذ الوهلة الأولى وظيفتها الأصلية ويستوي فيها النظام بآلياته البشرية والمعنوية التي وضعها كلها في خدمته.

---

(1).وقائع من أوجاع رجل غامر صوب البحر: ص28.

(2).نفسه.

(3).المصدر السابق: ص30.

(4).نفسه.

جو المحكمة كان << يقوي رغبة التقيء والغثيان >> (1)، في المنصة هيئة المحكمة وإلى جانبيها المحامون والبوليس، وقبالة هذا المشهد المهيب يجلس الجمهور في الصفوف الأمامية،مؤيدو النظام ومناصروه الذين راحوا يصرخون بالإعدام في حق المتهمين، و بعض من أقارب عاشور. أما في الصفوف الخلفية فيجلس الرافضون من الطلبة والعمال و الفلاحين، وهذا التوزيع يوحي بتغييب الصوت الرافض وتهميشه ودفعه إلى الخلف حيث لا يكون له تأثير كبير على قرارات << الرئيس >> بينما يتصدر مؤيدو الإعدام، مناصرو السلطة الصفوف ليوصلوا أصواتهم إلى من بيده الحل والعقد، هكذا تقرب السلطة إليها من تشاء وتبعد من تشاء، و تتهم من تشاء بما تشاء دون أن يكون لصوت الحق صدى مسموع في آذانها. المعارضون المتعاطفون مع المتهمين كانت << سحابات حزن عبوسة >> (2) تعلو وجوههم. وقد لفت نظر عاشور -على الرغم مما هو فيه - <<لوحة جميلة... جميلة جدا منقوشة بالفسيفساء.. تدغدغ ظهر القاضي تمثل <<صانطورا >> ورجالا وخيولا تطأ وسيوفا وهي ترتشق في بطنه وعلى ظهره، وهو فاغر فاه الذي فاض بالدم.. هذا مصير كل من يخرج عن القانون>>(3). وقد قابل المتهمون التهم المنسوبة إليهم بالصمت الذي هو سلاحهم الوحيد أمام حجم التهم الملفقة لهم والتي كانت منسوجة على نحو لم يتح لهم منفذا ولا لدفاعهم..

- **قاعة التعذيب:**

بعد المحاكمة التي إنتهت بإدانة عاشور ورفاقه، حول المتهمون << مع <<أزيز >> سيارة خشنة إلى معتقل غير مسمى.. أو ربما إلى مقبرة باردة نبت الحشيش فوق رفات شهدائها>>(4).

---

(1).المصدر السابق: ص34.

(2).المصدر السابق: ص35.

(3).المصدر السابق: ص29.

(4).المصدر السابق: ص36.

و استقبلتهم في المعتقل قاعة التعذيب << القاعة لم تفاجئني بأشد يائها المخيفة...هي نفسها التي أدخلتني إياها، الكلب هو هو.. الأشخاص، العملية معروفة..تبدل الأدوار لا أكثر ولا أقل..>>(1) وقد ذاق عاشور شتى ألوان العذاب بمختلف الوسائل، من ماء مكهرب وصابون، وزجاجات مختلفة الأحجام وقضيب وخازوق، لإرغامه على تأكيد التهم الموجهة إليه والإعتراف بذنوب لم يرتكبها.

و على مبدأ التدرج، تمثل قاعة التعذيب هذه الخطوة العملية لما تم في قاعة المحكمة، حيث يستكمل فيها نسج خيوط المؤامرة الكبرى، ويأخذ مكان القاضي والمحامين هنا الجلادون الذين يستلذون بتعذيب الناس إرضاء للنظام وخدمة له، وهي من ناحية أخرى محطة انتقالية بين المحكمة والزنزانة، لكنها أكثر المحطات بشاعة وتمثيلا لكيفية سلب الإنسان حريته و كامل حقوقه الإنسانية وتجريده من قيمه وحقه في الدفاع عن نفسه، إنها مظهر من مظاهر الإستعباد التي يتعرض لها الإنسان منذ القديم من قبل الإنسان، ومن حيث الوظيفة فإن قاعة التعذيب هذه لا تختلف عن المحكمة سوى في أنها<< كانت مظلمة وضيقة.. ما عدا كوة صغيرة ينفذ منها نور رقيق حاد و خيط من الذرات الراقصة >>(2)، ويلوذ عاشور بالصمت كما لاذ به في المحكمة، فيما يعج المستنطقون و الجلادون في صراخهم و<< كفرياتهم >> وهو وجه آخر من وجوه تغييب الحق و العدل في نظام مستبد متسلط.

---

(1).المصدر السابق: ص216.

(2).المصدر السابق: ص202.

- **الزنزانة:**

والزنزانة هي المنتهى، المصير الذي يلاقيه كل من أصدرت المحكمة حكما في حقه، وأحد وجهي القانون (العادل أو الظالم)، وهي من أكثر الأماكن توغلا في الإنغلاق : يحال فيها بين السجين وبين العالم الخارجي، فزيادة على انغلاق بناية السجن، فإن الزنزانة تشكل منغلقا داخل منغلق، ومن يواجهه هذا المصير يزداد عزلة عن الحياة الطبيعية و تقلصا في حقوقه الفطرية الإنسانية والإجتماعية، وانفصالها عن العالم الخارجي يفرز في نفسية المقيم بها شعورا بالإنفصال عن المكان والوجود في مكان مجهول، هذا ما يكشف عنه حالة عاشور الماندرينا في الرواية حين يتساءل هذا السؤال المهم :<< أين أنا يا الرب العالي ؟>> ثم حين يحاول أن يتلمس نفسه ضمن الإطار الذي يوجد فيه : << و رفعت رأسي من جديد، أحدد النقطة التي أقف عليها.

<< كه..كه.. فتحت عيني بتثاقل واضح، كمن يستيقظ من نوم عميق جدا.. أبدا سر التطلع و لذة الإستكشاف..

<< أربعة حيطان تنز بالرطوبة.. أحس بجسمي قطعا من اللحم >>(1).

وفي الزنزانة يبدأ نوع آخر من المعاناة، هي أشد من معاناة التعذيب والإستنطاق، إذ يتحتم على السجين معايشة أجواء الزنزانة حيث شروط الحياة المريحة غير متوفرة <<رحلت إلى الركن البارد الذي كانت تنبعث منه كل أنواع الروائح الكريهة و مخلوقات كريهة تشبه الحشرات >>(2).

و لا تنتهي فيها هواجس الإستنطاق والتعذيب، إنها << تراقب حتى أنفاس عباد الله >>(3) و يمارس على المسجونين ضغط نفسي رهيب يتواصل مدة الحبس ومن مظاهره << صرير أبواب السجن..تأتي من زاوية ما..هي نفسها

(1).المصدر السابق: ص102.

(2).المصدر السابق: ص80.

(3).المصدر السابق: ص27.

التي تسكن رأسي من زمان>>(1)، وحياة السجين رتيبة مملة إذ لا يعدو أن يتحول إلى << ماكنة..كتلة من الغرائز المسيرة <<يدق الجرس..نتأمل من وراء ثقوب المفتاح مرور السجان والطعام.. خطوات العودة الرتيبة..صرير المفاتيح..أخذ الأواني..إغلاق الأبواب الحديدية >>(2) ومع ذلك فإن الأمل في الحياة لا يموت في السجن لأن الزمن لا يتوقف فيه، ويبقى ثمة شيء واحد مشروع الحلم << في أقبية السجون.. نحن لا نمتلك في خلوتنا رغم حزننا، إلا سلاحا واحدا نشهره في وجوههم المنتفخة الأوداج..الحلم..الحلم ليس إلا بكل أبعاده >>(3).

و يترجم هذا الحلم في تلك المحاولات التي يلجأ إليها المتشبعون به، إذ تبقى جدران الزنزانة فضاءهم الوحيد للتعبير عن حلم مشروع وأفكار امتلكوها <<تعودنا الكتابة وبدمائنا وأظفارنا، على الجدران المكتظة بكتابات رفاق سبقوا..فتوارثنا هذه الحيطان وهذه الأقبية جيلا عن جيل >>(4)، ولعل في هذا السلوك بحثا عن حرية مسلوبة واسترجاعا لبعض ملامح الكيان الإنساني الذي تحاول الأنظمة سلبه الناس بالزج بهم في السجون والمعتقلات.

و هاجس السجن والمعاناة غالب في الرواية – سيما قسمها الأول- إذ نجد السجن فيها أحد رموز الظلم في المجتمعات المتخلفة التي تصادر فيها الأنظمة الرأي الأخر ولا تسمح للمعارضين الرافضين بإبداء آرائهم ومواقفهم حيال ما يصدر عنها من سلوكات وممارسات، وهو من جهة أخرى ممر حتمي لكل من ينشد الحرية، وهو معقل لأولئك الرجال الذين يصنعون الأفكار الخطيرة ذات الأثر العميق على المجتمعات والأمم.

و في رواية << حمائم الشفق >> يتخذ السجن هذا الملمح ذاته، ويستدعي

---

(1).المصدر السابق: ص219.

(2).المصدر السابق: ص251 – 252.

(3).المصدر السابق: ص252.

(4).نفسه.

ظهوره ظهور الشباب الذين اتهموا بقتل الرسام، فأودعوه مدة ثمانية عشر عاما، وقد وجدوه مكانا كما يجده كل من يدخله << رطوبة الجدران العتيقة التي تنز مياهها المتقاطرة باردة مقززة>>(1)، ولقد كانت المدة التي أقامها أولئك الشباب بالسجن فرصة كبيرة لإكتساب تجربة قوية في النضال والوطنية << نحن الذين تعلمنا السياسة في السجن فعرفنا أن الوطن هو ذلك الهواء العليل الذي ينعش الرئات>>(2)، ومن هنا يكون للسجن نتائج عكسية على النظام، ويتحول مكان لبناء الإنسان فكرا ونفسا والتوعية واستخلاص الدروس والعبر، ويكون المفقود في الأماكن المفتوحة أحيانا موجودا في أماكن أشد انطلاقا، وهذا يفضي بنا إلى استنتاج مهم ألا وهو: إن ما يترتب عن الإنغلاق والإنفتاح نسبي في الغالب فقد توجد الحرية في ما يعتقد أنها مكان لموتها والعكس صحيح، وإن عاشور الماندرينا ظل يشعر بوطأة السجن حتى وهوخارجه << هناك مسجونا كنت.. يتآكل جسمي بصمت وراء أربعة حيطان.. وهنا مسجون، وسط هذا المد اللامتناهي >>(3)، فالسجن الحقيقي –بناء على هذا الإعتبار– هو سجن في الذات، في الذاكرة، في الفكر و الوجدان، و ليس سجنا في المكان، إن التحرر من قيود المكان المفروضة لا يتيح بالضرورة تحررا من الشعور بالسجن، و متى أمكن الإنسان أن يحرر فكره من قيود مفروضة عليه أو فرضها هو على نفسه، استطاع أن يفر من هذا الشعور و لو كان بين الجدران الأربعة، ومن هنا يتخذ المكان بعده الحقيقي اللافيزيائي، بعده النفسي العميق الذي يزول معه بعد << المكانية >> فيه، هذه المكانية الموغلة في الأسر والتحديد والتقليص والإغلاق.

---

(1) حمائم الشفق: ص89.

(2) نفسه.

(3) وقائع من أوجاع رجل غامر صوب البحر: ص101.

3- المقاهي :

لا تمثل المقاهي و الملاهي بدعا في المجتمع المديني المعاصر، فهي امتداد لصور وأشكال من أندية اللهو و الشراب واللقاءات سادت المجتمعات منذ أقدم العصور، ولئن عرفت تغيرا واضحا في هذه الأشكال والصور، فإنها ظلت تحافظ على قدر كبير من وظيفتها التي أنشئت من أجلها.

و المقهى والملهى أحد مميزات الحياة في المدينة المعاصرة، وإذا كانت الرواية ترصد لكل مظاهر الحياة في المدينة، فإن المقاهي والملاهي ليست استثناء فيها. في الرواية الجزائرية لا تأخذ المقاهي والملاهي مكان الصدارة، ولكنها حاضرة، لأن المدينة حاضرة في كثير من النصوص.

ففي رواية << الزلزال >> يندرج المقهى ضمن الأمكنة الكثيرة التي يعاد إكتشافها بعد غياب طويل و تمثل دلالات على التغير الكبير الذي عرفه مجتمع مدينة قسنطينة من الناحية الإجتماعية، تغير نحو السلبية كما يراها عبد المجيد بوالأرواح، وقد حدث هذا التغير في ذهنيته على الرغم من أن المكان ظل هو المكان: << إلتفت إلى المقهى المواجهة، ألفاه في موضعه، لكنه متدهور أيضا بشكل فظيع >>(1) فهو متدهور كغيره من أمكنة أخرى كان يرتادها زمن الفرنسيين ورسخت لها صورة أنيقة في ذهنه لا يزال يذكرها، ومما يدخل في هذه المقارنة مطعم بلباي العريق الفخم في زمانه الذي تحول إلى مجرد مطعم صغير يقدم لزبائنه مأكولات شعبية خفيفة وتافهة.

و خير ما يمثل هذا التغير مقهى البهجة الذي كان << في ذاكم الزمن وكر المثقفين من كامل العمالة>>(2) أما اليوم فإن << اللافتة لا تزال تعلن <<البهجة>> والطلاء متحلل، ودقات الحجر تنبعث من الداخل، بدل صوت فريد الأطرش المنساب <<بساط الريح، بساط الريح جميل ومريح>>(3).

---

(1).الزلزال: ص22.

(2).المصدر السابق: ص39.

(3).نفسه.

و هكذا يمثل المقهى في هذه الرواية دلالة على التحول الإجتماعي الكبير الذي عرفه مجتمع المدينة في بداية السبعينيات، إذ صارت <<الشعبية>> تطبع كل شيء وألغيت مظاهر الترف والفخامة التي سادت مجتمع المدينة زمن الفرنسيين وحلت محلها مظاهر الحياة البسيطة كما تصدر عن أبناء المدينة أنفسهم أو على الأقل عن أولئك الذين يقيمون بالمدينة، وهو تحول لا يرضي دائما بقايا <<الطبقة الإقطاعية >> التي تخشى على مصالحها وتخاف من ضياع مكانتها التي اكتسبتها في أزمنة الظلم السابقة، وهو تفسير يساير السياق الفكري والثقافي للرواية.

أما في رواية البزاة، التي تدور أحداثها زمن الثورة، فإن المقهى الذي لا يبرز بروزا كثيفا يمثل مظهرا من مظاهر الثورة في المدينة، يختار الكاتب مقهى الأميرالية المقابل للميناء ليكون مكانا للقاءات السرية التي كانت تعقد بين بعض مجاهدي الثورة، و هو مقهى شعبي أغلب رواده من العرب، و عرف تحولا سريعا تماشيا مع تطور مسار الثورة التحريرية إذ صار << هادئا بالنسبة لما تعود عليه مراد حينما كان يأتي مع أبيه فيما مضى، و لعل الأمر أعطي للناس ألا يختلفوا إلى المقاهي كثيرا حتى لا تثار الشبهات حولهم>>(1).

و لعل الكاتب بإختياره هذا المقهى في هذا المكان بالذات يريد أن يبرز جانب العمومية والسرية في الثورة التحريرية، فالمجاهدون في كل مكان. في القرى والجبال والمدن بأحيائها وشوارعها ومقاهيها، وهذا الوجود المكثف أحيط بالسرية التامة وهو سر النجاح المدهش الذي أحرزته الثورة التحريرية. ومن ناحية أخرى يبرز لنا المقطع السابق إستجابة الشعب للأوامر التي يصدرها لهم المجاهدون، وهوما يضفي على الثورة صفة << الشعبية العامة>> التي كانت من أسباب نجاحها أيضا.

---

(1).البزاة: ص152.

أما في رواية << فوضى الأشياء>> فيكتسب المقهى صورة متكررة في زمانين متباعدين يفصل بينهما ثلاثون عاما، هي صورة الدمار والتحطيم، اللذين لحقا بالمقهى مرتين <<وكان هذا المقهى لثلاثين عاما مضت قد تحطم تحطما هائلا بتفجير قنبلة ضاربة ناسفة. أما الآن فقد أحرق من جديد ودمر شر تدمير فتحول إلى ركام حجرا وحديدا وخشبا>> (1)، و لقد كان دماره، إذن، في المرة الأولى بفعل قنبلة وضعها بداخله أحد الفدائيين زمن أن كان يرتاده الأوربيون، بينما كان تحطمه في المرة الثانية << تحت أيدي المتظاهرين الغاضبين>>(2) الذين خرجوا في أكتوبر من عام 1988، على الرغم من الفارق في الزمان فإن صورة المقهى القديمة تكررت هي ذاتها بعد ثلاثين عاما، وهو ما حدا بالسارد إلى الإعتقاد بأنه إزاء مشاهدة فيلم << تتسلسل صوره الرديئة أمامي قد التقطت من الخمسينات>>(3).

و في كلتا الحالتين، و في حالات أخرى، يبقى المقهى من الأمكنة الأكثر إستهدافا في كل حركة ثورية أوإحتجاجية لأنه المكان الأنسب الذي يصب عليه الغضب من الأوضاع، ويظل أبدا فضاء لضخ شحنات الرفض المكبوتة في صدور الناس في تلك المجتمعات التي تمنع فيها حرية القول وحرية الفعل ويصادر كل رأي.

و ما يلفت النظر في صورة المقهى في هذة الرواية، هو المنحى الجمالي الذي نحاه الكاتب في إتخاذ المكان الواحد وسيلة الربط بين أحداث الماضي و الحاضر، وتكرار صورة المكان يرتبط بتكرار الأحداث، و هنا يخرج الزمن من إطار الفاعلية، و تبقى العلاقة قائمة بين المكان الواحد والأحداث المتشابهة، فالزمن في هذه العلاقة لا يغير السلوك ولا يبدل الأوضاع ولا صورة المكان.

أما الملاهي فلا نجد رواية قد أشارت إليها أو صورت بعض الأحداث فيها،

---

(1) فوضى الأشياء: ص11.

(2) نفسه.

(3) نفسه.

وهذا لا يعني – في علاقة الرواية بالحياة – خلو المدن الجزائرية منها، فهي موجودة منتشرة في أماكن كثيرة، إلا أن السبب في إختفائها من هذه النصوص المدروسة يعود إلى طبيعة الكتاب أنفسهم في تعاملهم مع واقع الحياة في مجتمع المدينة الجزائرية و في علاقتهم هم أنفسهم بهذه الأمكنة، و إن لم يكن أي كاتب ملزما بأمر فإنه على الأقل ملزم بتتبع مختلف مظاهر الحياة في المجتمع المديني، ما يمثل فيها صورة الرخاء او الشقاء وما يمثل فيها صورة الطهارة أو الفساد، وإذا بادر الكاتب إلى تصوير الحياة العادية في الشوارع والأزقة والأسواق والبيوت، فإنه يتعين عليه إبراز الجوانب الخفية في حياة المجتمع المديني المعاصر وذلك تحقيقا للنظرة التكاملية لحياة أي مجتمع.

4 – المساجد و الأضرحة

لا يلتفت كتابنا إلى هذه الأماكن إلا نادرا، وإذا إلتفتوا إليها فإن ذلك لا يكون لغرض تقديم صورة حقيقية عنها بل لتشويهها وإنتقاد بعض ما لا يروق للكتاب فيها، وخلافا لذلك، فإنه قلما تخلو رواية غربية أو فيلم من أماكن العبادة المسيحية على الرغم مما يزعمونه من علمانية ولائكية.

و تغييب المسجد في النصوص الروائية الجزائرية يصدر عادة عن موقف إيديولوجي يتبناه كثير من الروائيين الجزائريين، وهو موقف معاد لكل ماهو ديني. لكن السؤال الجدير بالطرح هنا هو ما الدافع الذي يقف وراء ه ذا <<التغييب>>

يمكن أن تكون الإجابة عن هذا السؤال متعددة الأوجه لكن أهمها – في رأيي– الغياب شبه التام للشخصيات الدينية في هذه النصوص، ثم التعامل التوجيهي الذي تعامل به بعض الكتاب مع بعض الشخصيات التي وجهوها توجيها دينيا من خلال سلوكاتها وأفكارها وأقوالها غير أن هذا التوجيه كان يقصد من ورائه خدمة أغراض فكرية وإيديولوجية هي من قناعات الكاتب الأمر الذي كان يؤدي أحيانا

إلى كثير من التشويه والتزوير للحقائق: فالكاتب يوجه شخصيته التي يريدها أن تكون دينية الوجهة التي تدعم موقفه الإيديولوجي الرافض للدين ورسمها رسما كاريكاتوريا يحدث في الذهن ذلك الإنطباع الساخر النافر المنتقد، فالكاتب إذن لا يبحث عن تأييد القارىء لفنه ولكنه يسعى بكل السبل إلى انتزاع تأييد القارىء لأفكاره وقناعاته، وتلك قمة الإنحراف عن الفن.أقف في هذا العنصر من البحث عند رواية واحدة كان حظ المساجد فيها وفيرا ألا وهي رواية الزلزال التي كان لظهور المساجد بها علاقة حتمية بظهور شخصية عبد المجيد، بوالأرواح التي سعى وطار إلى أن يجعلها دينية سلفية، وإقطاعية << رجعية >> من جهة أخرى، والمصطلحات دائما ضمن السياق الفكري للرواية.

يندرج ظهور بعض المساجد في الرواية ضمن عملية إعادة الإكتشاف التي ميزت سلوك عبد المجيد بوالأرواح في مدينة قسنطينة و الوقوف على الحالة التي آلت إليها هذه الأماكن فهو تارة يرى أنه <<لم يبق من قسنطينة سوى المساجد والزوايا والأضرحة...>>(1) وتارة أخرى يأسف لما لحق بها من ضرر وتبديل لملامحها ووظيفتها تبديلا كاملا أحيانا حين يكتشف أن جامع سيدي قموش قد <<احتل، أضحى مقرا لطبيب الأمراض الصدرية>>(2)، وثمة تغير آخر لاحظه عبد الحميد بولأرواح ذلك أن <<المساجد يؤذن فيها بالكهرباء. وبالأسطوانات بغير سرعتها، والزوايا تكميليات وثانويات>> (3) وخلافا لسلوك بو الأرواح إزاء كثير من الأمكنة والبنايات التي كان يكتفي بالنظر إليها من الخارج، فإن بعض المساجد <<حظيت>> منه بوصف لداخلها ومن ذلك الجامع الكبير ومسجد سيدي راشد.

كان الجامع الكبير أول ما ولج عبد المجيد بو الأرواح من المساجد لأداء

---

(1).الزلزال: ص203.

(2).المصدر السابق: ص34.

(3).المصدر السابق: ص203.

صلاة العصر، وإستدعى حضوره فيه حضور إبن باديس في الذاكرة. وكان الغرض من هذا الحضور هو تصحيح الصورة التي حاول الرسامون ترسيخها في أذهان الناس << تراءى له في المنبر الشيخ إبن باديس، بحركات وجهه النشيطة، لا بذلك الجمود الذي بذل الرسامون جهدهم لإبرازه على ملامحه بطريقة مثالية>> (1) فصورة إبن باديس في ذهن بو الأرواح مختلفة تماما عن تلك الصورة المعروفة التي قدمها خيال أحد الرسامين للناس، و لذلك فقد <<بدا له أن صورة ابن باديس المترائية غريبة إلى حد كبير عن الفكرة التي غرسها في نفسه عنه طيلة السنوات التي أعقبت وفاته>> (2)، وما عدا هذا فإن حضور بو الأرواح في الجامع الكبير لم يكن متميزا، لم يكن لوظيفة أخرى ولعل الكاتب أراد، في سياق تطوير التفكير في صورةابن باديس، أن يبرز وجه الخلاف بين تصور بو الأرواح للدين المستنبط من الإخلاص للسلف والتصور العلمي الذي عبر عنه إبن باديس طوال حياته و مارسه سلوكا. والهدف من ذلك هو الوصول إلى تحييد بو الأرواح عن النهج الباديسي، حتى ليبدو أن ثمة اتجاهين مختلفين ونظرتين للدين غير متفقتين ولذلك يحدث بو الرواح نفسه قائلا:

<<- في الحق كان غريبا عنا رغم الحماس الذي كنا نحيطه به... << - لو عاش لكان لنا معه شأن..>>(3).

و مسجد سيدي راشد كان من بين المساجد التي دخلها عبد المجيد بو الأرواح، وحضوره كان لغاية أرادها الكاتب وهي الكشف عن أحد الجوانب الخفية في شخصية بو الأرواح، جانب << المتدين>> المؤمن بقدسية الأولياء و الزوايا والأوثان، فهو ظاهريا لا يعترف بذلك ولكنه يقره باطنيا << كنت ولا تزال، ترى أن كل ما يربط العامة بالله، جائز شرعا، حتى ولو كان عبادة الأوثان، لم تجاهر

---

(1).المصدر السابق: ص17.

(2).نفسه.

(3).المصدر السابق: ص17 - 18.

برأيك ولكنك كنت شديد الإيمان به>>(1). والواقع أن بوالأرواح لم يقصد مسجدا للصلاة، وإنما قصد ضريحا للتبرك والدعاء والشكوى فقد أسر للولي الصالح بسبب قدومه إلى قسنطينة و ما لاقاه في سبيل البحث عن أقاربه الذين أرادهم لتسجيل أراضيه عليهم شرط ألا يستغلوها إلا بعد وفاته وذلك ليحول دون مصادرة الحكومة إياها منه . و المكان إذن أنسب للبوح و الشكوى منه إلى التعبد والصلاة، لأنه لم يوضع أصلا لغرض العبادة و إنما لغرض << الزيارة >> والتبرك، فهو صغير الحجم إذ أن مساحته لا تتجاوز <<حوالي عشرة أمتار مربعة -المذبر المتواضع على اليسار، الضريح على اليمين...>>(2) و إلى جانب ذلك تقف على خدمته عجوز <<وكأنما تحرس ممتلكات سيدي راشد من السرقة >>(3). وسيدي راشد كان آخر ما لجأ إليه بوالأرواح بعدما أصيب بخيبة أمله من العثور على اقاربه فشعر بنهايته وبأن أراضيه سائرة إلى المصادرة لا محالة، ولم يبق له بعد ذلك سوى الدعاء على سكان هذه المدينة بالزلزال القوي الذي يترقبه، وهكذ يكون المسجد والضريح ملاذه في نهاية المطاف وآخر ما يمكن أن يعلق عليه من آمال، و قد كان بدء آماله الجامع الكبير، وتكون حركة بوالأرواح بذلك في خط بدؤه مسجد ومنتهاه مسجد، لكنها حركة لمسار خائب، وحتى بعض المساجد والزوايا الأخرى التي قصدها لم تجر عليه سوى الخيبة كخيبته في ابن خالته عيسى بوالأرواح مقدم الشاذلية الذي كان مقدما في زاوية سيدي عبد المؤمن، حين اكتشف أنه تحول إلى مناضل نقابي شيوعي وهجر حياة العبادة والزهد إلى تحريض العمال والطلبة على تنظيم الإضرابات وتوزيع المناشير، وخيبته في رؤيته الحالة التي آلت إليها المساجد والزوايا التي عهدها من قبل.

إن خط هذه الحركة يتناسب مع بنية شخصية بوالأرواح التي تطبعها

---

(1).المصدر السابق: ص130.

(2).المصدر السابق: ص132.

(3).نفسه.

الإزدواجية في المعاملة و ثنائية الظاهر و الباطن، إلا أنه يلاحظ تحييد أمكنة العبادة في هذه الرواية، فالكاتب الطاهر وطار لا يحمل على المساجد و الزوايا لكنه يحمل على بعض ممن يستعملونها، وإن كانت كلها أدوات استثمرها الكاتب لإبراز الجوانب الخفية في شخصية ملأى بالتناقضات.

و من الناحية الوظيفية الصرف يبقى المسجد في الرواية مكانا للعبادة -كما وضع له أصلا - بما يوفر من سكينة وهدوء ووقار، والمشكلة في النهاية ليست فيه مكانا ولكن في بعض من ينتسب إليه.

تبقى الإشارة إلى أن الرواية قد حفلت بذكر كثير من الزوايا و الأضرحة وقل فيها ذكر المساجد و الجوامع، و من ذلك << الجامع الأخضر>>، وجامع ميمون، و زاوية المصلى على اليمين و قربه جامع بلباي، جامع سيدي قموش...>>(1) وهو ما يؤكد رسوخ التقاليد الريفية التي من بعض مظاهرها إنتشار الأضرحة للتبرك، في مجتمع المدينة، و تكريس هذه التقاليد الدينية في هذا المجتمع يبقى على الملاحظة الدائمة التي كان يبديها بوالأرواح حيثما حل وهي أن القرى والأرياف انتقلت إلى مدينة قسنطينة . وبالمقابل فإن المنابع الصافية للدين - كما أرادتها الحركة الإصلاحية بزعامة ابن باديس - قليلة في المدن، وإن كانت موجودة فليست هي دائما مقصد أمثال عبد المجيد بوالأرواح، لأنهم يقصدون ضالتهم في غيرما أتفق على أنه ضالة الناس جميعا وانتهاء، فإن المساجد والأضرحة في الرواية ذات دلالة إجتماعية تتجسد فيها مختلغ مظاهر التحول التي تسود المجتمع في عمومه.

نخلص في نهاية هذا الفصل إلى ما يلي:

1- إن غنى النصوص الروائية المدروسة بالفضاءات المدينية بنوعيها: مغلقة،

---

(1). المصدر السابق: ص22.

ومفتوحة واستغلالها مجالا فنيا هاما ذو علاقة قوية بالمدلول العام للنصوص.
2- توجد هذه الفضاءات في مدينة معينة بذاتها، معروفة بإسمها، وغالبا ما يلجأ الكاتب إلى ذكر أسماء شوارعها وأحيائها وساحاتها وحدائقها...، وهو يقرب الفن من الواقع، ويجعل المسافة بين الممكن والمتخيل والموجود تتقلص إلى أن تتلاشى.
3 - تتنوع الفضاءات في النص الواحد: فنجد منها المغلق ونجد منها المفتوح، ونجد أنواعا مختلفة من المغلق وأخرى من المفتوح، وهكذا لا يقتصر الكاتب في الرواية على إدارة الأحداث في مكان واحد، وهو لا يعمد إلى ذلك بغرض إستعراضي.
4 - إهتمت بعض النصوص بالوصف الدقيق والمفصل لبعض الأمكنة، مما أضفى عليها بعدا جماليا يمكن إدراجه ضمن البعد الجمالي العام للنص الروائي، وبالمقابل فإن ثمة تراجعا ملحوظا في وصف الشخصيات - كما دأب على ذلك كتاب الرواية الكلاسيكية - مما يؤكد أهمية الفضاء وعلاقته الوطيدة بالنصوص الروائية، إذ أن حركة الشخصية ترتبط به و<< هويتها>> تستمد من طبيعتها.
5 - كان لبعض الفضاءات بعد دلالي إكتسبت بفضله حيويتها و خرجت عن طابعها الجامد، و منها ما إكتسب هذا البعد الدلالي من ذاته، و منها ما إكتسبه من وجوده أو إسمه أو موقعه، غير أن هناك ما كان حضوره غير لافت للنظر البتة.
6 - تشكل الأمكنة العادية المألوفة النسبة الكبرى في النصوص الروائية المدروسة، بينما تقل - إلى درجة الندرة - الأمكنة غير العادية، وهذا ما يعطي إنطباعا بأن كتابنا لا يتعاملون مع غير الواقعي وغير الموجود، وهو ما يثير - من جهة أخرى - سؤال المتخيل في النص الإبداعي أو بالأحرى سؤال الإبداع في النص الروائي، وأين هي بصمات تجاوز الواقع المألوف في العمل الروائي؟.

خاتمــة

ويمكن أن نخلص في نهاية هذا البحث إلى ما يلي:

1- يتضح، على ضوء ما تقدم، أن الرواية الجزائرية العربية إستطاعت أن تتخطى حدود الريف وتطرق عالم المدينة، وإن كان سيرها إلى هذا العالم بطيئا ومحتشما، ومهما كانت طبيعة نظرة الروائيين الجزائريين إلى المدينة وموقفهم منها، فإن حضورها في نصوصهم يعكس جانبا من التحول الذي عرفه المجتمع الجزائري في فترة ما بعد الإستقلال، إذ لم يبق إهتمام المثقف الجزائري محصورا في عالم الريف بل كان عليه أن يواكب ذلك التحول الإجتماعي المهم الذي أفرز كذلك تحولا في الرؤية والتعامل مع العالم على نحو مغاير.

2- وقد تعامل الروائيون الجزائريون مع موضوع المدينة من زاويتين: داخلية وخارجية، وتحددت ملامح المدينة وصورتها على ضوء زاوية التعامل هذه وقد نتج عن هذا أتجاهان: أتجاه يتعامل مع المدينة تعاملا سطحيا ماديا محضا و إتجاه يحاول أن يعمق نظرته إليها من خلال إخراجها من نطاقها المادي الفيزيائي وتحميلها أبعادا دلالية وفنية متنوعة.

3- يتضح، على ضوء التصنيفات الواردة في الفصل الأول من هذا البحث، أن لرؤية الكاتب الفنية وخلفيته الإيديولوجية والثقافية دورا في بلورة موقفه من موضوع المدينة، و لاشك في أنه كان لهذه الخلفية دور أيضا في تحديد ملامحها.

4- ظل جل الروائيين الجزائريين يتعاملون مع المدينة تعاملا يشوبه كثير من الحذر، ولم يستطيعوا أن يغوصوا في أعماق هذا العالم ولذلك ترددت صور الإغتراب ومواقف السخط والغضب والرفض، ولعل من شأن هذا أن يبرز حقيقة علاقة جل الروائيين الجزائريين بعالم المدينة: إذ لم يستطيعوا أن يتخلصوا من <<رواسبهم>> الريفية في نظرتهم إلى المدينة، وهو ما يحمل على الإعتقاد في أن هؤلاء قد لامسوا موضوع المدينة ولم يفلحوا في ولوجه ولوجا يتيح لهم وصف مجتمع المدينة وصفا داخليا عميقا بالتعرض لتناقضاته وواقعه. ومن ثم تتردد صورة الشاعر العربي البدوي الذي يخشى المدينة وقد رآها تمردت عن فطرتها وفرطت في عذريتها.

5- المدينة في الرواية الجزائرية ليست مجرد مكان لأحداث متخيلة، بل هي أحيانا شاهد على قرون طويلة من الحضارة والصراع المتواصل من أجل البقاء، وهي مثال حي لصمود الإنسان وتكيفه مع ما يطرأ عليه من حوادث الزمان ودليل على عزته وشموخه، ولذلك يلتصق التاريخ بالمدينة ممثلا في الرموز المادية الشاهدة على محطات كثيرة للمقاومة العنيفة.

6- تعرض الروائيون الجزائريون إلى أجزاء مختلفة من عالم المدينة، فتحدثوا عن شوارعها وأزقتها وأحيائها بأسمائها، وتحدثوا عن جسورها ومعمارها وهندستها وطابع كل منها، وتراوح ذلك بين التقريرية والمباشرة تارة وإستغلال هذه الأماكن لتحميلها معاناة الكاتب وهواجسه ومواقفه.

7- إنه، وبالنظر إلى هذه المواقف، يمكننا إيجاد أصناف من المدن في الرواية الجزائرية منها مثلا المدينة الحلم، كالتي نجدها عند عبد الحميد ابن هدوقة في روايته الأخيرة <<غدا يوم جديد>> وعند الجيلالي خلاص في نهاية روايته الأولى <<رائحة الكلب>> وعند الأعرج واسيني في روايته <<وقائع من أوجاع رجل غامر صوب البحر>> وثمة تلميح إلى هذا الصنف أيضا في رواية رشيد بوجدرة <<ليليات إمرأة آرق>>. ومدينة اللعنة والشرور كتلك التي نجدها في رواية <<الزلزال>> وفي رواية <<فوضى الأشياء>>. والمدينة الرمز كتلك التي نجدها في رواية <<حمائم الشفق>> رمزا للصمود والمقاومة. وإنما تتخذ هذه الأصناف هذه التسميات التقريبية بالنظر إلى الصورة التي يرسمها لها الكاتب، إنطلاقا من مواقف أصحابها إزاءها.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصادر

1- بان الصبح -عبد الحميد بن هدوقة- المؤسسة الوطنية للكتاب -الطبعة الثانية- 1984.

2- البزاق -مرزاق بقطاش- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1983.

3- التفكك -رشيد بوجدرة- المؤسسة الوطنية للكتاب -الجزائر: الطبعة الثالثة-1984.

4- حمائم الشفق -الجيلالي خلاص- المؤسسة الوطنية للكتاب 1986.

5- رائحة الكلب -الجيلالي خلاص- المؤسسة الوطنية للكتاب 1985.

6- الزلزال -الطاهر وطار- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع -الطبعة الثالثة- 1980.

7- طيور في الظهيرة -مرزاق بقطاش- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1981.

8- غدا يوم جديد -عبد الحميد بن هدوقة- منشورات الأندلس الجزائر 1992.

9- فوضى الأشياء -رشيد بوجدرة- دار بوشان للنشر 1990.

10- ليليات إمرأة آرق -رشيد بوجدرة- المؤسسة الوطنية للكتاب 1985.

11- مصرع أحلام مريم الوديعة -واسيني الأعرج- دار الحداثة بيروت - الطبعة الأولى- 1984.

12- وقائع من أوجاع رجل غامر صوب البحر -الأعرج واسيني- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1983.

ثانيا: المراجع

1- أبو عثمان الجاحظ -محمد عبد المنعم خفاجي- دار الكتاب اللبناني 1982.
2- الإتجاهات العربية في العالم العربي الحديث -د.أنس المقدسي- ط 6 - دار العلم 1982.
3- إتجاهات الرواية العربية في الجزائر -الأعرج واسيني- المؤسسة الوطنية للكتاب 1986.
4- أدب العرب في العصر الجاهلي - د.حسين الحاج حسين- المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت بدون تاريخ.
5- أزمة المدينة العربية -عبد الإله أبو عياش- وكالة المطبوعات، الكويت ط1 1980.
6- أسئلة الكتاب النقدية -إبراهيم رماني- المؤسسة الوطنية للطباعة/ المجاهد الأسبوعي 1992.
7- الأسطورة والرواية -ميشال زيرافا- ترجمة: صبحي حديدي -دار الحوار اللاذقية ط1 1985.
8- الإنسان في المجتمع -جورج سيمون- ترجمة: عبد المنعم شوقي -دار النهضة العربية- 1967.
9- الإنسان في المجتمع المعاصر -فاتيه ترجمة: مصطفى كامل جودة- دار المعرفة، القاهرة 1969.
10- الإنسان وعالم المدينة في الشعر العربي الحديث -مناف منصور- مركز التوثيق والبحوث1978.

11- البحث عن النقد الأدبي الحديث -محمد ساري- دار الحداثة بيروت ط1 1984.
12- بحوث في الرواية الجديدة -ميشال بوتور- ترجمة: فريد أنطونيوس، منشورات عويدات بيروت 1982.
13- تاريخ التمدن الإسلامي -جورجي زيدان- منشورات دار مكتبة الحياة بيروت بدون تاريخ.
14- تاريخ الجزائر الثقافي -أبو القاسم سعد الله -المؤسسة الوطنية للكتاب ط1 1985.
15- تاريخ الجزائر الحديث -عبد القادر جغلول- ترجمة: فيصل عباس - دار الحضانة- بيروت 1982.
16- تاريخ المدن الثلاث -عبد الرحمان الجيلالي- مطبعة صاري الجزائر ط2 1972.
17- تاريخ مدينة الجزائر -د. أحمد السليماني- ديوان المطبوعات الجامعية 1989.
18- تطور النثر الجزائري الحديث -د.عبد الله الركيبي- الدار العربية للكتب، ليبيا تونس 1978.
19- الجزائر: الأمة والمجتمع -مصطفى الأشرف- ترجمة: حنيفي بن عيسى -المؤسسة الوطنية للكتاب 1983.
20- الجغرافيا الحضرية -جاكلين بوجوقارنيي- ترجمة: عبد القادر حليمي -ديوان المطبوعات الجامعية- 1989.
21- جماليات المكان -غاستون باشلر- ترجمة: غالب هلس -دار الجاحظ للنشر، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد 1980.
22- حركية الإبداع -خليدة سعيد- دار العودة بيروت ط2 1982.
23- دائرة المعارف الإسلامية المجلد السادس.

24- دراسات في روايات نجيب محفوظ الذهنية -مصطفى التواتي- الدار التونسية للنشر / المؤسسة الوطنية للكتاب 1986.
25- دراسات في علم الإجتماع الريفي والحضري _مجموعة من الأساتذة (منهم د.محمد الجوهري، علياء شكري) دار الكتاب للتوزيع، القاهرة - الطبعة الثالثة- 1979.
26- روح الإجتماع -غوستاف لوبون- ترجمة: أحمد فتحي زغلول باشا- موفم للنشر، الجزائر 1988.
27- الرواية العربية الجزائرية الحديثة -د.محمد مصايف- الدار العربية الكتاب/المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع 1983.
28- العائلة الجزائرية -مصطفى بوتفنوتش- ترجمة: دمري أحمد -ديوان المطبوعات الجامعية- 1984.
29- علم الإجتماع الحضري -د. محمد عاطف غيث- دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، بدون تاريخ.
30- فجر الإسلام -أحمد أمين- موفم للنشر 1989.
31- في النقد والأدب -إليا حاوي- ج1- ط4- دار الكتاب اللبناني بيروت، بدون تاريخ.
32- قسنطينة أيام أحمد باي -فندلين شلوصل- ترجمة: د.أبي العيد دودو - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر بدون تاريخ.
33- مجتمع المدينة -عبد المنعم شوقي- دار النهضة العربية، بيروت -ط7- 1931.
34- المخطط التوجيهي العام لمدينة الجزائر -رئاسة مجلس الوزراء- كوميدار.

35- مدخل إلى عالم الرواية الجزائرية –شايف عكاشة– ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1990.
36- مدخل إلى نظرية القصة –سمير المرزوقي– جميل شاكر– ديوان المطبوعات الجامعية –دار التونسية للنشر، بدون تاريخ.
37- مدن عربية –نيقولا زيادة– دار الطليعة بيروت –ط1– 1968.
38- المدن العلربية –إسماعيل الغربي– المؤسسة الوطنية للكتاب 1984.
39- المدينة: سرابها ويقينها –جورج باستيد– ترجمة د.عادل العوا –مطبعة جامعة دمشق– ط2 1963.
40- المدينة الإسلامية –محمد عبد الستار عثمان– عالم المعرفة، الكويت 1988.
41- مدينة الجزائر –عبد القادر خليمي– المطبعة العلربية، الجزائر 1972.
42-المدينة العتيقة –فوستيل دي كولانج– ترجمة: عباس بيومي بيك مكتبة النهضة المصرية.
43- المدينة الفاضلة –د.علي عبد الواحد وافي– عالم الكتب، القاهرة 1973.
44- المدينة والخيال –د.محمد محجوب– منشورات أمية –دار العهد الجديد، تونس ط1 1989.
45- المدينة ومشاكل الإنسان –تشارلز ابرمز– ترجمة: لجنة من الأساتذة الجامعيين –دار الآفاق الجديدة– بيروت بدون تاريخ.
46- مرآة –حمدان خوجة– الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ط2 1992.
47- معجم ألفاظ القرآن الكريم.
48- مقامات الحريري.
49- مقدمة في نظرية الأدب –عبد المنعم تليمة– دار العودة –ط3– 1983.
50- مقومات القصة العربية الحديثة في مصر –د.محمد حامد شوكت– دار الجيل 1974.
51- نجيب محفوظ في مجهوله المعلوم –د.علي شلق– دار المسيرة، بيروت –ط1– 1979.
52- النقد الأدبي –أحمد أمين– دار الكتاب العربي، بيروت –ط4– 1967.

الدوريات

- الأقلام –عدد حزيران 1981– وزارة الإعلام والثقافة – بغداد.
- الثقافة والثورة – وزارة الإعلام والثقافة – الجزائر.
- جسور – العدد الأول – 1990.
- الشروق الثقافي – العدد 06 – 1993.

الرسائل الجامعية

- رثاء المدن والممالك الزائلة في الشعر العربي –أحمد عقون– رسالة ماجستير، معهد اللغة والأدب العربي – قسنطينة – 1987.
- الشخصية الدينية في روايات الطاهر وطار – بن جدو موسى – رسالة ماجستير – معهد اللغة والأدب – جامعة الجزائر – 89 – 90
- صورة المدينة في الرواية العربية الجزائرية وعند ألبير كامو – الأخضر الزاوي – رسالة ماجستير – جامعة القاهرة – 1988.

الفهرس